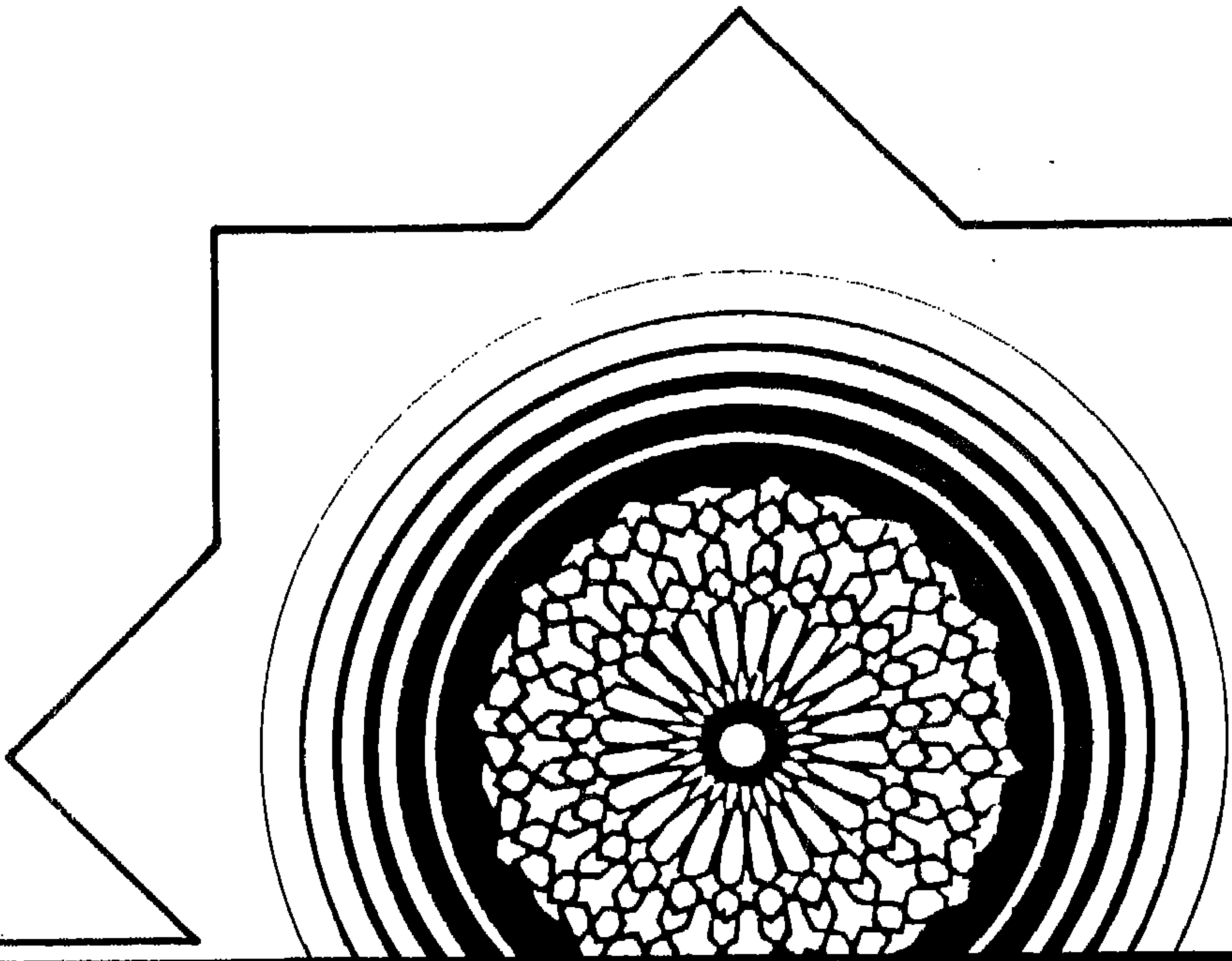
محاضرات في

النصرانية

تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى
وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم



الإمام محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ حافظ يوسف

الإسكندرية

الإمام محمد أبو زهرة

اهداء من دكتور
حافظ يوسف

محاضرات في النصرانية

تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى
وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذى بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، والصلاة والسلام على النبى الأمى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبى الرحمة الذى بعث على فترة من الرسل ، بعد أن ضلت الأفهام ، وحرفت الحقائق وسيطرت الأوهام ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين العالمين .

أما بعد .. فهذه محاضراتى فى النصرانية أعيد طبعها ، بعد أن الح الكثيرون فى طلب الاعادة ، اذ تعذر على مريدى قراءتها الحصول عليها ، حتى أنها عندما قررت دراستها على طلبة معهد الدراسات الاسلامية لم يجد الدارسون ما يراجعون فيه ، فلم يكن بد من أن يعيد المعهد طبعها ليعين الدارسين ، ولينشر تلك الحقائق ، من غير تهجم على متدين ، ولا مضايقة لغير مسلم ، لأن البحث الذى يتبع فيه المنهاج العلمى السليم ، لا يصح أن تضيق به الصدور ، ولا أن تنزوى عنه العقول . واذا كانت فيه ثغرات يرأبها النقد المنطقى المستقيم ، ويعالجها البحث العلمى القويم من غير عوج فى القول ، ولا التواء فى القصد .

لقد كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذى يجمع الحقائق ، ويعرضها ، وقد تماسك بعضها ببعض ، ليتكون من ذلك مجموعة علمية تهدى ولا تضل . وما كنا نجهد التاريخ لنسيره ، ولكنا خضعنا له ، وهو الذى كان يسيرنا .. وكنا فى ذلك كالقاضى العادل خضع للبيانات التى تكون بين يديه ، وهى التى تحكم فى الحكم الذى نسجله . لا نغير ولا نبدل ، ولا ننحرف بها عن النتائج التى تؤدى اليها مقدماتها . فنسير حيث يسير بنا الدليل من غير انحراف ولا تحريف .

وما كانت البيانات التى بين أيدينا من مصادر اسلامية ، أو من اعداء المسيحية . بل كانت من كتاب المسيحيين انفسهم التى سجلوها فى

تاريخها : كتبها المتقدمون ، ورددها المتأخرون ، فهى شهادات من أهلهـا استنطقناها ، فنطقت ، واستهديناها ، فهدت ، واسترشدنا بها فأرشدت، وما ضنت .

واذا كان من اخواننا وعشرائنا من تململ من محاضراتنا . أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به ، فانا — علم الله — ماقصدنا بكلامنا احراجا ولا ايلاما، انما أمانة العلم هى التى جعلتنا لا نقـدم لتلاميـذنا الذين نلقاهم ، والذين لا نلقاهم بالخطاب ، بل نلقاهم بالكتاب ، الا ما نعتقد أنه الحق الناصع ، وقد وجه الينا نقد من بعض المخلصين من اخواننا المسيحيين فى مقـالات متتابعة نشرتها احدى المجلات المسيحية ، فما ضاقت صدورنا ، بل ذهبنا الى الناقد فى داره ، وطلبنا اليه ان يطلعنا على كل الأعداد التى تشتمل على نقد لنا ، لنصحح خطأ وقعنا فيه ، او لنبدل حكما ما أنصفنا فيه ، عمـلا بقوله تعالى : ((**ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسـن الا الـذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم ، والهنـا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون**)) .

وانا لنحسب أنه ليس من بين اخواننا اقباط مصر من ظلموا ، فما كان لنا الا ان نتقبل النقد بقبول حسن ، ونتبعه فى كل ما وجه الينا مسـتطيبين ذلك ، حتى ما كان منه تهجم علينا . فان المخلص يستمع ، ولو كان فى كلام مخالفه هجوم ، أو تهجم بغير الحق .

وما وجدنا فى النقد ما يغير حكما ، ولقد أرسـل الينا بعض ابنائنا المسيحيين رسائل نقد قدرناها ، فقرأناها ، وكان كتابها يخرجون عن حد النقد أو الدفاع الى ما لا يحسن من قول ، فما ضاقت صدورنا ، وحاولنا أن ننتفع منها ، ولكنا ما وجدنا فيها أيضا ما يبرر لنا تغيير حكم حكمنا به ، والى هؤلاء وأولئك نعتـذر .

ولا يصح أن يتبرم أحد من اخواننا وابنائنا من كلام نسوقه لطلابنا ، معتقدين أنه الحق الذى لا ريب فيه ، فلو كان أهل كل دين تضيق صدورهم بالبحث والدرس ، لكان حقا علينا معشر المشتغلين بالدراسات الاسلامية أن تذهب نفوسنا حسرات مما يكتبه بعض علماء أوروبا عن الاسـلام ، يفترون على حقائقه ولا يدرسونه دراسة موضوعية ، بل يدرسونه دراسة

ذاتية محرفين الكلم عن مواضعه ، ومع ذلك ندرس كلامهم ، ونضع الصواب منه فى موضعه ، ونضع الباطل فى مكان سحيق ، نأخذهم الى المنطق ولا ننحرف معهم عن قصد السبيل .

واخيرا نقول لاخواننا أننا نؤمن بالمسيح عليه السلام ، ونؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وسائر النبيين ((**قولوا آمنا بالله ، وما انزل الينا ، وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون**)) .

محمد أبو زهرة

٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٨١

١٩ من مارس سنة ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثانية

الحمد لله الذى خلق فقدر ، وخلق آدم من طين ، وعيسى ابن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين . فيثبت ان الخلق بالارادة لا بالعلية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين ، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .

أما بعد ، فقد جاء فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال :

ثلاثة لهم اجران : « رجل من اهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك اذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» .

وبقبس من هذا الروح السمح كتبنا كتاب محاضرات فى النصرانية ، نرجو به مع احقاق الحق الهداية ، لا نهاجم اعتقادا ، ولا نبطل عقيدة ، بل نثير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلكها من يريد الرشاد ، ومن يرجو السداد ، ولكننا فى عصر فهم الناس فيه الدين منزعا جنسيا ، ولم يفهموه حقا اعتقاديا ، ولا تهذيبا نفسيا ، ولا خلاصا روحيا ، فكان ذلك حاجزا دون أن تصل الهداية الى القلوب ، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

وقد كان الناس فى الماضى يوجد من بينهم من يقول « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » أما الآن فالناس جميعا غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنسا ، والاستمساك به من القومية أو ما يشابهها ، فيكون العار على من خالف ، وان كانوا يعلمون ان فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية فى التدين ظهر نقد لكتابى هذا من بعض بنى وطنى غير المسلمين ، وكنت (علم الله) مستريحا لظهوره ، فجمعت

النقد ، وشكرت الناقد ، وتغاضيت عن عبارات نالنى بها ، لأنها من فلتات القلم ، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفا حرفا ، لاصحح به خطأ جرى فى الكتاب ، أو سوء تفسير فسرناه ، أو تخريجا بعيدا عن المعنى خرجناه.

ولكنى وجدت النقد خاليا من ذلك فى جملته ، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب ، يثير اعتبار الدين جنسا ، ويدفعه التعصب الشديد ، ويحاول توهين المكتوب ، حتى انه فى سبيل ذلك يعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضا ، والمعلق على شرط متضاربا ، لان صدر الكلام غير الوصف ، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وان كان فى النقد ما يفيد انه أثبت ان بعض اخواننا تألم من عبارات جاءت فى كتابنا . فغيرناها ان لم يكن فى التغيير ما يمس الجوهر ، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن اعادة طبع الكتاب ، مع الالحاف من الكثيرين وبعضهم من اخواننا المسيحيين ، واحجمنا عن ذلك نحو ست سنوات ، ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية ، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر ، وان عند اخواننا من سعة الصدر ما يتسع لذلك . وخصوصا أن الكتاب معروف فى أمريكا واوربا والهند . فقد ترجم الى الانجليزية . ولخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصا كاملا ، وترجم الى الفرنسية والاردية .

فاذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلا للآثار العلمية . وان خالفوها — فانه من نقص الحرية الفكرية فى مصر ان يضيق صدر بعض أبنائها حرجا باعادة طبع كتاب سجله المسيحيون فى لغاتهم .

لهذا اقدمت على أعادة طبع الكتاب بعد طول الاحجام ، راجيا من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، أنه نعم المولى ونعم النصير .

محمد ابو زهرة

٩ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ، اشهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى ابن مريم من النبيين الصديقين ، ومن عباد الله الصالحين وأولى العزم من الرسل .

اما بعد . فقد عهد الى تدريس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والارشاد من كلية اصول الدين فالقيت محاضرات فى النصرانية ، هذه خلاصتها ، وتلك لبابها ، ولقد عنيت ببيانها فى أدوارها المختلفة متبعا فى بيان المسيحية الحاضرة سلسلة اسنادها المتصلة . فكان اول السلسلة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهى بعصرنا الحاضر ، هذا مبدأ السند وهذا منتهاه ، فالسند اذن ينقطع بين المسيح عليه السلام ، والمجمع الأول من المجامع المقدسة ، وان انقطاع السند فى هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذى لحق النصارى فيها ، حتى كانوا يستخفون ويتعبدون فى السر . فلا يعلنون دينهم الذى ارتضوا ، ويفرون به فرارا ان كشف أمرهم ، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حد السيف أو نار العذاب ، وقد اعترف بقطع السند مجادلوهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع.

وانا ازاء ذلك العجز أو عدم توافر أسباب العلم ابتدانا بحثنا فى دينهم بكتبهم التى الزم المسيحيون بها بعد قرار المجامع بالالزام ، ثم تتبعنا فى البحث سير المجامع . نسير فى مسارها ، ونتجه فى اتجاهاتها ، ولكنا لا نكتفى بدراسة قرارات مجمع من المجامع ، بل ندرس البواعث التى بعثت الى انعقاده ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذى سبقه ، والذى جاء المجمع لحسمه ، ثم انتهى الى تشعيبه وتوسيع زاويته .

وان عنايتنا بتفصيل البواعث التى ادت الى انعقاد المجمع الاول ، وبيان قراراته ، وكيف تلقى جمهور المسيحيين ، وخاصة رجال الدين تلك القرارات ، قد ازالت الستار عما اكتنفه غياهب التاريخ فى الفترة التى

كانت بين المسيح وهذا المجمع ، بل ان تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخى لنصل الى ضوء نعشو اليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح فى عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد ، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازنا فيها بين المسيحية الحاضرة وفلسفة الرومان واليونان فى تلك الفترة ، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القارىء أو نسبقه الى الاستنباط ، بل القينا اليه بالمقدمات ، وتركنا له استخراج نتائجها ، ليشاركنا فيما وصلنا اليه باقتناعه ، ولكيلا نملأ عقله ، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة الى بيان العقيدة ، فجلينا ادوارها ، وبينا ما قام حولها من مناقشات وخلافات . وبينا كل فرقة ومنبعثها ، والمجمع الذى انبعثت من بعده . وما احصينا فرقهم عدا ، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلا ، بل عنينا بالفرق الكبرى ، وعنينا بتفصيل العقيدة دون سواها .

وعلم الله أنى لبست رداء الباحث المنصف ونظرت بالنظر غير المتحيز ، وتخليت عن كل شىء سواه ، لأصل الى الحق وصول المجتهد الحر ، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره ، والمأخوذ بسابق اعتقاده ، ولكنى انتهيت كما ابتدأت ، مؤمنا بالله الواحد الأحد ، الذى ليس له والد ولا ولد .

وانى لأهدى كتابى هذا الى كل مسيحى طالب للحقيقة يسير فى مسالكها لا أبغى به غلبا فى جدال ، ولا سبقا فى نزال ، ولكن ابغى به الحق المجرد « **يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله** » .

محمد ابو زهرة

تمهيـــــد

١ ــ عسير على المرء ان يكتب فى رأى يخالف رأيه ، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأى ، كما يجول بخاطر صـــاحبه ، وينبعث فى نفسه ، فيبين دوافعه وغاياته ، واذا كان ذلك واضــحا فى رأى مخالف يرتأى ، فكيف تكون الحال اذا كانت المخالفة فى عقيدة تعتنق ، وتتغلغل فى اعماق النفس ، وتستكن فى اطوائها !! ان الطريق حينئذ يكون أوعث ، ومسالكه اضيق ، لذلك كان الطريق غير معبد امام الباحث الذى يريد ان يكتب فى النصرانية كما يعتقد النصارى ، ويصورها امام القارىء كمـــا يجول بخاطر معتنقيها ، ويفرض من نفسه ناظرا غير متحيز ، يبين العقيدة ، كما هى فى نفس أصحابها ، لا كما ينبغى أن تكون ، أو كما يعتقد هو ، لأن الباحث خلع نفسه مما تعتنق وتؤمن به . ويجردها تجردا تاما مما قد صار منها بمنزلة الملكات ، وخالط الاحساس والمشاعر ، واســتولى على كل مسالك الآراء اليها ، وتصوير المسيحية كما يعتقد اصـــحابها ليس فقط عسيرا على الكاتب غير المسيحى ، بل انه عسير على الكتاب المســيحيين انفسهم ، يستوى فى ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين ، ولذلك يستعينون فى تصويرها ، وادنائها الى العقول بضرب الأمثال . والتشبيهات الكثيرة ، لتأنيس غريبهـــا بالقريب المألوف ، والمشــــاهد المحسوس ولادخالها فى العقل من الباب الذى يألفه ويعرفه . ما استطاعوا الى ذلك ســـبيلا .

٢ ــ ولكن البحث العلمى يتقاضى الباحث الحر المنصف ان يدرس المسيحية ان اراد ان يعلنها كما يعتقد اهلها مجردا من نزعاته السابقة على الدراســـة ، غير جاعل لعقيدته سلطانا على حكمه ، حتى لا تســيره فى دراسته ، وتتحكم فى اتجاهاته ، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم ، والتزيد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتناول كلامهم بغير ما يريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هى فى ذاتها ، بل يدركها كما انعكست فى نفسه ، وكما رسمت على قلبه ، وقد يباعد ذلك الأمر فى ذاته .

ولذلك سنحاول داعين الله — مبتهلين اليه أن يلهمنا التوفيق — دراسة المسيحية ، مجردين من انفسنا ناظرا غير متحيز عليها ، لتصورها كما هى ، وكما يعتقد أهلها ، ولنتمكن من ان نكتبها بروح الانصاف ، ولقد نضطر فى سبيل ذلك الانصاف ان ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأى تصرف ، حتى ما يتعلق بالاعراب واساليب البيان ، لكيلا يدفعنا التصرف فى التعبير الى تغيير الفكرة ، أو تحريف القول عن مواضعه . وسنجتهد ما استطعنا فى تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال ، ان لم نجد بدا من ذلك .

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم ، وتعرف غاياته ومراميه لا نترك النقد العلمى النزيه ، الذى يستمد قوانينه من بداته العقول وأحكام المنطق ، وخصوصا ما يتعلق بكتبهم ، لأنه اذا كان الانصاف قد طالبنا بألا نتزيد على ما عندهم ، أو نحرفه عن مراده ومرماه ، فالانصاف أيضا يطالبنا بألا نهمل العقل ، والا خرج بحثنا عن معناه العلمى التاريخى ، وصار بحثا لاهوتيا صرفا ، وذلك ما لا نريد ، فلا يصح أن يدفعنا حرصنا على انصافهم الى ظلم العلم والحق والعقل .

المسيحية : كما جاء بهـا المسيح عليه السلام

المســيحية فى القـرآن :

٣ ـ قبل ان نخوض فى المسيحية كما هى عند المسـيحيين نتكلم فى المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام ، وانا اذا تصدينا للمسـيحية التى جاء بها المسيح نجد التاريخ لا يسعفنا بها ، اذ بعد العهد ، واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التى نزلت بالمسيحيين ، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والاثبات عملها ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وصار من العسير ان نميز الطيب من الخبيث ، والحق من البـاطل ، والصـحيح من غير الصحيح ، واننا معشر المسلمين لا نعرف مصدرا صحيحا جديرا بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، فهمـا المصدران المعتمدان للمسلم فى هذا ، وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين ، ولا على انه هو المعتبر عندهم ، ولكن نكتبـه ، ليتسـق البحث ، ولنتم السـلسلة .

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى التوحيـد الكامل ، التوحيد بكل شعبه ، التوحيد فى العبادة ، فلا يعبد الا الله ، والتوحيد فى التكوين ، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له ، والتوحيد فى الذات والصفات فليست ذاته بمركبة ، وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى . فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى ما دعا الا الى التوحيد الكامل ، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجـاوبة بينه وبين ربه : **« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سـبحانك ما يكون لى أن ان اقول ماليس لى بحق إنكنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسـك ، انك انت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شـهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شىء شهيد »** .

فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى ما دعا الا الى التوحيـد ، فغـير التوحيد اذن دخل النصرانية من بعده ، وما كان عيسى الا رسـولا لله رب العـالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الانجيل ، وهو مصـــدق للتوراة ، ومحيي لشريعتها ، ومؤيد للصـــحيح من احكامها ، وهو مبشر برسول يأتي من بعده اسمه احمد ، وهو مشـــتمل على هدى ونور وهو عظة للمتقين ، وانه كان على اهل الانجيل ان يحكموا بما أنزل فيـــه ، ولذلك قال الله تعالى : « **وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحـــكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون** » .

دعـــوة المســـيح :

٤ — ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس انه لا توسط بين الخالق والمخلوق ، ولا توسط بين العابد والمعبود ، فالأحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس ، بل كل مسيحي يتصل بالله في عبادته بنفسه ، من غير حاجة الى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما ، وليس شخص — مهما تكن منزلته أو قداسته أو تقواه — وسيطا بين العبد والرب في عبادته ، وتعرف أحكام شرعه مما انزل الله على عيسى من كتاب ، وما أثر عنه من وصايا ، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام — كما ورد في بعض الآثار ، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين — تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة ، وكان يحث على الايمان باليوم الآخر ، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبني الانسان في الدنيا ، اذ الدنيـــا ليست الا طريقا غايته الآخرة ، وابتداء نهايته تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام الى الزهادة في الدنيـــا ، والابتعاد عن أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب عن ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية ، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الانسان ، بل ان التوراة التي بأيديهم اليوم خلت من ذكر اليوم الآخـــر ، ونعيمه او جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي اوعد به العاصين ، وثوابه الذي وعد به المتقين ، انما زمانه في الدنيا لا في الآخرة ، وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسي في كتابه حياة المسيح : « الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها الســـلطة الفعلية في نفس هذا العالم ، فانه يؤخذ من أقوال

شيوخهم ان الصالحين يعيشــون فى ذاكرة الله والناس الى الأبد ، وهم يقضــون حياتهم قريبين من عين الله ، ويكونون معروفين عند الله ، أما الاشرار فلا ، هذا كان جزاء اولئك ، وعقاب هؤلاء ، ويزيد الفريسـيون على ذلك أن الصالحين ينشرون فى هذه الأرض يوم القيامة ليشــتركوا فى ملك المســيح الذى ياتى لينقذ الناس ، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته ، وهكذا يتنعمون بانتصارهم ، وانخذال الاشرار أعدائهم ، وعلى ذلك تكون مملكتهم فى هذا العالم نفسه » ا هـ فجاء المسيح عليه السلام مبشرا بالحياة الآخرة ، وانها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها ، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكرها بفعله ، فكانوا فى ذلك الانكار سواء .

مريم والمسيح فى القــــرآن الكريم :

٥ — واذا كانت شخصية المسيح هى اللب فى المسيحية الحاضرة ، وأساس الاعتقاد فيها ، وجب أن نبينها كما جاءت فى القرآن ، كما سنبينها كما جاءت فى المسيحية ، ليستطيع القارىء أن يوازن بين الشــخصيتين ، ويعرف ايهما اقــرب الى التصــور ، والعقل يتقبلهــا بقبول حســن ، ولنبــدا بأمه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام ، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران . فيقول تعالت كلماته : « **اذ قالت امراة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محــررا ، فتقبل منى انك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها انثى ، والله اعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى ، وانى ســميتها مريم ، وانى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن ، وانبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حســاب** » .

هذه هى الأحوال التى اكتنفت الحمــل بالبتول مريم ، وولادتهــا ، وتربيتها ، ويلاحظ القارىء أن العبادة والنسك أظلاها ، وهى جنين فى بطن أمها الى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفاها الله لأمر جليل خطير ، فأمهــا وهى حامل بها نذرت أن يكون ما فى بطنها محررا خالصا لخدمة بيت الله

وسدانته ، والقيام بشئونه ، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها ، فلما وضعت ، وكان نذرها على فرض الذكورة ، كما يبدو من اشارات النصوص القرآنية ، جددت العزم على الوفاء بالنذر ، وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر ، فكان ذلك الاصرار عبادة أخرى ، اذ وجدت فى النفس داعيات التردد ، والرجوع والتحلل من الوفاء فكان كفها هذه الداعيات والقضاء عليها عبادة أخرى ، ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا الى النسك والعبادة ، وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبى من أنبياء الله الصديقين الصالحين ، فكفلها زكريا ، ووجهها الى العبادة الصحيحة ، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والاثم ، وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها أخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولا تحتسب ، ومن غير جهد ولا عنت ، حتى أثار ذلك عجب نبى الله كافلها فكان ((**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب**)) .

٦ — ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التى تكونت فى ظلها بريئة من دنس الرذيلة — لا يجد الشيطان سبيلا أو منفذا ينفذ الى النفس منها — تمهيدا لأمر جليل قد اصطفاها الله تعالى له دون العالمين ، ولذا خاطبتها الملائكة وهى الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها : ((**اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين**)) . ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية . وكان ذلك لكى تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما حف بها من أحوال القرائن التى تقطع ريب المرتاب ، والسنة كل أفاك ، وتنير السبيل أمام المؤمنين اذ أن ولادته من غير أب من أم كانت حياتها للنسك والعبادة . والعكوف على التقوى . وتحت ظل نبى من أنبياء الله تعالى لم تزن بزيبة قط — يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى فى هذا الكون ، ولا يجعل شيئا يقف أمام مريد الهداية من تظنن بالآثم أو ريبة فيها ، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفى هذه الريبة ، وتبعدها عن موطن الشبهة .

الحمل بالمسيح وولادته :

٧ — حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام ، وهو الأمر الذى اجتباها الله له ، واختارها لأجله ، ولقد فوجئت به ، اذ لم تكن به عليمة . فبينما هى قد انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، أرسل الله اليهـا ملكا تمثل لها بشرا سويا ((**قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا * قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا**)) . حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب ، ثم ولدته . ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل . فلم يرد فى الصحاح آثار تبين تلك المدة ، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا اذن الا أن نفرض ان مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين الناس . وهى مـدة تسعة اشـهر هلالية .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم ، سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ، ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب ، وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية ، ولا يسـتطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر ، وخصوصا أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر عادى لا مجـال للريب فيه عادة ، ولكن الله سـبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة ، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ، ويأتى عـلى قواعده ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ، ليعيد الى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسـكها وعبادتها ، ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهـد بالولادة ، اشارت اليه ((**قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا اينما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا**)) .

٨ — نطق السيد المسيح فى المهد ، ليكون كلامه اعلاما صريحا ببراءة أمه وانه لم يكن الا عبد الله ، ولد من غير أب . ويروى ابن كثير : « عن ابن

عباس أن عيسى ابن مريم امسك عن الكلام بعد ان كلمهم طفلا ، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم انطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، فاكثر اليهود فيه، وفى أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى : « **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** » ، ولم يذكر فى الآثار الصحاح عن النبى عليه الصلاة والسلام حال عيسى عليه السلام فى مرباه ونشأته ، وكيف كان منه مما يكون ارهاصا بنبوته ، فليس لنا الا أن نقول انه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة فى بنى اسرائيل، ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه وهو غلام ، ما يدل على روحانيته ، وما يدعو اليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة ، وغلبت عليهم نزعاتهم ، والاتجاه اليها .

الحكمة فى كون المسيح ولد من غير اب :

٩ — لابد من ان نشير هنا قبل أن ننتقل الى بعثته عليه السلام الى السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير اب . فانه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته ، وقد اشار اليها سبحانه فى قوله تعالت كلماته : « **ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان امرا مقضيا** » .

وانا نتلمس تلك الآية الدالة فى ولادة عيسى عليه السلام من غير اب ، فنجد انه يبدو امام انظارنا امران جليان : احدهما . ان ولادة عيسى عليه السلام من غير اب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وانه الفاعل المختار المريد ، وانه سبحانه لا يتقيد فى تكوينه للاشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى ابدعه الله والذى خلقه ، فالأسباب الجارية لا تقيد ارادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها ، فان الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته ، كما يصدر الشىء عن علته ، والمسبب عن سببه ، من غير أن يكون للعلة ارادة فى معلولها ، بل كانت بفعله سبحانه وبارادته التى لا يقيدها شىء مهما يكن شأنه ، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب اعلان لهذه الارادة الأزلية . بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفى عصر ساده نوع من الفلسفة ، اساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول ، كالعلة من معلولها ، فكان عيسى آية

الله على انه سبحانه لا يتقيد بالاسباب الكونية ، وان العالم كله بارادته ، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول : « **تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا** » .

الأمر الثانى : ان ولادة المسيح عليه السلام من غير أب اعلان لعالم الروح بين قوم انكروها ، حتى لقد زعموا إن الانسان جسم لا روح فيه ، وانه ليس الا تلك الأعضاء والعناصر التى يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود انهم كانوا لا يعرفون الانسان الا جسما عضويا ، ولا يقرون انه جسم وروح ، فقد قال رينان فى سبب الحقد الذى تغلغل فى النفس اليهودية : « لو كان الشعب الاسرائيلى يعرف التعاليم اليونانية التى كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين : احدهما الروح ، والآخر الجسد ، وانه تعذبت الروح فى هذه الحياة لانها تستريح فى الحياة الثانية ، لسرى عنه شىء كثير من عذاب النفس ، واضطراب الفكر ، بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه فى نفسه من الامتياز الأدبى والدينى عن الشعوب التى كانت تذله » .

يقرر رينان فى هذا ان اليهود ما كانوا يقولون كاليونان أن الانسان جسم وروح ، ولقد يؤيد هذا ما جاء فى التوراة التى بأيديهم فى تفسير النفس بانها الدم ، فقد جاء فيها : « لا تاكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هى دمه » ، اذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شىء غير الجسم . فلما جاء عيسى من غير أب . وكان ايجاده بروح من خلق الله ، كما قال تعالى « **والتى احصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين** » كان ذلك الايجاد الذى لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ فى جيب مريم . فكان الانسان من غير بذرة الانسان وجرثومته . كان ذلك اعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها ، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الانسان الا انه جسم لا روح فيه ، وهذه آية الله فى عيسى وأمه عليهما السلام .

بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته :

١٠ — بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد فى القرآن الكريم ، ولا فى الآثار الصحاح بيان السن التى بعث عند بلوغها عليه السلام . ولكن ورد فى بعض الآثار أنه بعث فى سن الثلاثين ، وهى السن التى تذكر الأناجيل

المعتبرة عند النصارى أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث في هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح ، وهجر الملاذ التى استغرقت النفوس فى تلك الأيام ، واستولت عليها ، ويبشر بعالم الآخرة ، ولقد أيده الله بمعجزات ، وأن ولادته نفسها معجزة ، كما جاء فى الملل والنحل للشهرستانى ، فقد قال رحمه الله فى ذلك : « كانت له آيات ظاهرة . وبينات زاهرة ، مثل احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه ، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سابق » .

ومعجزاته التى ذكرها القرآن الكريم تتلخص فى خمسة أمور ، جاء ذكر أربعة منها فى سورة المائدة فى قوله تعالى : **« اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة ، والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى ، فتنفخ فيها ، فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى »** .. الى قوله تعالت كلماته : **« اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير الرازقين * قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين »** .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات :

الأولى : انه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا باذن الله ، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيرا من الطين ، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى ، ولكن جرى الخلق على يد عيسى ، وينفخ من روحه عليه السلام باذن الله تعالى .

الثانية : احياؤه عليه السلام الموتى باذن الله جلت قدرته ، والمحيى في الحقيقة هو الله العلى القدير ، ولكن اجرى الاحياء على يد المسيح عليه السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته ، ودليل رسالته .

الثالثة : ابراؤه عليه السلام الاكمه والابرص ، وهما مرضان تعذر على العالم قديمه وحديثه العثور على دواء لهما ، والتمكن من اسباب الشفاء منهما ، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما ، وبرىء المريضان برقيته ، فكان ذلك دليلا قائما على رسالته عليه السلام .

الرابعة : انزال المائدة من السماء بطلب الحواريين ، لتطمئن قلوبهم ، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهناك خامسة ذكرت فى سورة آل عمران ، وهى انباؤه عليه السلام بامور غائبة عن حسه ، ولم يعاينها ، فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم . وقد ذكر الله تعالى فى قوله تعالى حاكيا عنه « **وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين** » .

الحكمة من كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع :

١١ — هذه معجزات عيسى عليه السلام ، وهنا يتساءل القارىء : لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟ يجيب عن ذلك ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية بقوله : « كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزاته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى اليه . وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره الا ممن أيده الله ، واجرى الخارق على يديه تصديقا له اسلموا سراعا ، ولم يتلعثموا : وهكذا عيسى ابن مريم بعث فى زمن طبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون اليها ، وانى لحكيم ابراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل احد من الخلق الى أن يقيم الميت من قبره ، وغير هذا مما يعلم كل احد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ،

وهكذا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم اجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء ، فانزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. فلفظه معجزة تحدى به الانس والجن ان يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله او بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، وما ذلك الا لانه كلام الخالق عز وجل ، والله لا يشبهه شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله .

ما نراه حكمة صحيحة :

١٢ — من هذا الكلام يستفاد ان معجزة المسيح كانت من نوع ابراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم واحياء الموتى ، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ، ليكون عجزهم حجة عليهم ، وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى الطب ، ولكن رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسى يقرر أن اليهود ماكانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول : « كانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم ، فان اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ ، وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط ابى الطب موضوعه العلة المقدسة يعنى الهستريا ، وفيه وصف هذه العلة ، وذكر دوائها ، الا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب ، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين ، وربما كان ذلك ناشئا من شدة الحماسة الدينية .

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم اذن بالطب ، أو الطب الطبيعى على رأى ذلك الفيلسوف المؤرخ .

وفى الحق ان الذى نراه تعليلا مستقيما لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لانهم اطباء ، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والادواء ، بل لان أهل زمانه كان قد سادهم انكار الروح فى اقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة ،

مصدق لما يأتى به الرســـول وهى فى الوقت ذاته اعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها ، فهذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حيا ، وما ذاك الا لان شيئا غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ، فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد اكله البلى ، واخذت اشلاؤه فى التحلل ، واوشكت ان تصير رميما ، أو صارت . يناديه المســـيح عليه السلام ، فاذا هو حى يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك الا لان روحا غير الجسم الذى غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه بالحيـــاة ، وهكذا . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته ، وتناسب اخص رسالته ، وهو الدعوة الى تربية الروح ، والايمان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة اخرى يجازى فيها المحسن باحسانه والمسىء باسـاءته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . وهل ترى أن معجزة احياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى انكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشـــور أن يستمر فى جحوده . وقد اسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الايمان باليوم الآخر . ان لم يكن بالقول فبالعمل . فكان احياء الموتى صـــوتا قويا يحملهم على الايمان حملا . ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

تلقى اليهـــود لدعوته :

١٣ — بعث عيسى عليه السلام بتلك البينات ، وأيد رسالته بتلك المعجزات وانها باهرة تخرس الالســـنة ، وتقطع الطريق على منكرى رسالته . لو كان الدليل وحده هو الذى يهدى النفوس الضالة ، والقلوب الشاردة ، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب ، قساة القلوب فكانت مهمته شاقة ، اذ حاول هدايتهم ، لان منهم من علم الديانة رسوما وتقاليد يتجهون الى الاشكال والمظاهر منها ، دون الاتجاه الى لبها وغايتها ، حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير فى يوم السبت زاعما انه داخل فى عموم النهى عن العمل فيه ، فاذا جاء المسيح داعيا الى أن ينظروا الى اصلاح القلب ، بدل الاخذ بالمظاهر والاشكال فانه لا شك يصدم هؤلاء فيما يألفون ، وفيما وجدوا عليه سابقيهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة ، واستغرقتهم ، واســـتولت على اهوائهم ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسـدنة الهياكل عندهم ، وقد

فاتهم العمل على كسب المال من ابوابه الدنيوية — يجمعون المال من نذور الهياكل . والقرابين التى يتقرب بها الناس . ويحرصون على ذلك اشد الحرص . فكانوا يأخذون القرابين من اشد الناس حاجة وافقرهم . فجاء المسيح ونـــدد بهذا .

ولقد اتخذ بنو اسرائيل من تدينهم المزعوم بدين موسى والانبياء من بعده . وزعمهم أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها احد — اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى ارستقراطية دينية ؟ فزعموا أن لهم المكانة السامية . ولغيرهم المنزل الدون ، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية ، وآمنوا برســـالة موسى . فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، وكان الاسرائيليون يعاملون آحادها ، كأنهم المنبوذون . فلما جاء عيسى عليه السلام . وسوى بين بنى البشر فى دعايته انكروا عليه ذلك وناصبوه العداء .

ولقد كانوا يجعلون لاحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة الســـامية والمكانة العالية دون الناس . فجاء المسيح وجعل الناس جميعا ســـواء امام ملكوت الله .

منــــاواة اليهــــود له :

١٤ — لكل هذا تقدم اليهود لمناواة المسيح . وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به . واخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته ، فلما أعيتهم الحيلة . ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه ، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله — أخذوا يكيدون له . ويوسوسون للحكام بشــــانه ، ويحرضون الرومان عليه ، ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون الى المسائل الدينية . والخلافات المذهبية بين اليهــــود ، بل تركوا هذه الامور لهم يسوونها فيما بينهم ، واليهود يريدون ان يغروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن . فبثوا حوله العيون يرصدونه ، ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام . عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلون بها للحاكم الرومانى، فلم يجدوا لأن المسيح ما كان يدعو الا الى اصلاح الجانب النفسى الخلقى ولم يكن قد اتجه الى اصلاح الحكومة بعد . ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه ، وانتهى الامر الى أن تمكنوا من حمل الحاكم الرومانى على أن يصدر الامر بالقبض عليه ، والحكم عليه بالاعدام صلبا .

نهاية المسيح فى الدنيـــا :

١٥ — وهنا نجد القرآن الكريم يقرر ان الله لم يمكنهم من رقبته ، بل نجاه الله من ايديهم : « **فما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم** » ، وبعض الآثار تقـــول ان الله القى شـــبهه على يهوذا ، ويهوذا هنا هو يهوذا الاسخريوطى الذى تقول الاناجيل عنه انه هو الذى دس عليه ، ليرشد القابضين اليه ، اذ كانوا لا يعرفونه ، وقد كان احـــد تلاميذه المختارين فى زعمهـــم .

ولقد وافق هذا انجيل برنابا موافقة تامة ، ففيه : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع — سمع يسوع دنو جم غفـــير ، فلذلك انسحب الى البيت خائفا ، وكان الاحد عشر نياما ، فلما راى الله الخطر على عبده امر جبريل وميخائيل وروفائيل وادريل (١) ســـفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم فجاء الملائكة الاطهار ، واخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صـــحبة الملائكة التى تســـبح الله الى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التى اصـــعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فاتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه ، فصار شبيها بيسوع حتى أننا اعتقدنا انه يسوع ، اما هو فبعد أن استيقظ اخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا ، واجبنا أنت يا سيدى معلمنا ، أنسيتنا الآن .. الخ » .

والاناجيل المعتبرة عند المسيحيين لم تختلف فى شيء كاختلافهم فى قصة الصلب ، فلكل رواية بشأنها .

المســـيح بعـــد نجـــاته :

١٦ — لم يصلب المسيح بنص القرآن ، ولكن شبه على القوم ، لقوله تعالى : « **وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم** » وقوله تعالى : « **وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه** » واذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب ، فما هى حاله بعد ذلك ؟ اختلف فى هذا الشأن مفسرو القرآن ، فجلهم على ان الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه اليه ، وأخـــذوا

---

(١) يريد اسرافيـــل ، وعزرائيل .

بظاهر قوله تعالى فى مقـابل القتل ، بل رفعه الله اليه ، وببعض آثار قد وردت فى ذلك ، وفريق آخر من المفسرين ، وهم الأقل عددا ، قالوا : انه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى انبياءه ، ورفع روحه اليه كما ترفـع ارواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، واخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى : **« انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة »** ومن ظاهر قوله تعالى : **« فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شىء شـهيد »** ولكل من المختلفين وجهة هو موليها ، ولا نريد أن ندخل فى تفصـيل حجج الفريقين وترجيح احداهما على الأخرى ، فلذلك موضع ليس هذا مقامه .

١٧ — ويزعم بعض الناس ان المسيح عليه السـلام قد هاجر الى الهند ، وانه عاش فيها . حتى استوفى اجله ، ومات هنـاك ، وله قبر ، ولقد جاء فى تفسير المنار ما نصه : « وجد فى بلدة سرى نكرا مقبرة فيهـا مقام عظيم يقال انه مقام نبى جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ، ويسمى يوز آسف ويقال ان اسـمه الأصلى عيسى ، وانه نبى من بنى اسرائيل ، وانه ابن ملك ، وان هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم ، وتذكر فى كتبهم ، وان دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم الا أن قالوا ان ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله » هذا ما جاء فى تفسير المنار ، وقد ذكر أن نقله عن غلام احمد القديانى الهندى ، وهو راو يشك فى صدقه .

هذا . وان القرآن الكريم لم يبين ماذا كان من عيسى بين صـلب الشـبيه ووفاة عيسى أو رفعه على الخلاف فى ذلك ، ولا الى أين ذهب ، وليس عندنا مصدر صحيح يعتمد عليه ، فلنترك المسألة : ونكتفى باعتقادنا اعتقادا جازما أن المسيح لم يصلب ، ولكن شبه لهم .

موازنة بين المسيح فى القرآن الكريم والمسيح فى المسيحية الحاضرة :

١٨ — **« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون »** . وتلك ديانته كما جاء بها ، ودعا اليها ، فما الذى عرض لها من بعده ، وما الذى ادخل عليها بعد أن رفع الى ربه ؟ . . أول ما ادخل على هذه الديانة

هو ما يتعلق بشخص المسيح عليه السلام ، ولنسارع فى بيان اعتقادهم فى المسيح بايجاز ، ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التى مرت بتاريخ المسيحيين ، محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التى تتعلق بالمسيح ، ثم بقوانينهم الكنسية .

يعتقد المسيحيون ان الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة ، فأكل منها باغواء ابليس ، فاستحق هو وذريته العذاب ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسد كلمته ، وهى ابنه الأزلى تجسدا ظاهرا ، ورضى بموته على الصليب ، وهو غير مستحق لذلك ، لكى يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الانسان معا ، وكان ذلك الابن ، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله اليها ملاكه جبريل ، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها ، وان الروح القدس يحل فيها ، فتلد الكلمة الأزلية ، وتصير والدة الاله . وقد ولد ببيت لحم ، اذ كان قد ذهب اليها يوسف النجار خطيب مريم الذى لم يتركها بعد أن حملت : لرؤيا رآها فى منامه تمنعه من ذلك ، لأن بيت لحم بلده ، فذهب اليها ومعه مريم ليقيد اسمه فى الاحصاء العام الذى أمر به الرومان .

ولد المسيح فى خان قد نزل فيه يوسف ومريم ، ولفقرهما لم يجدا مأوى لهما فى الخان سوى مكان الدواب . ولقد قمطته واضجعته فى مذود البقر .

وفى ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم ، فرأوا بغتة جمهورا من الملائكة مسبحين قائلين « المجد لله فى الاعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » فترك الرعاة التطلعات ، وذهبوا الى المكان الذى دلهم عليه الملائكة ، فرأوا الطفل فى المذود ، وعادوا وهم يمجدون الله ، ويسبحونه على كل ما سمعوا ورأوا . كما قيل لهم .

وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته ، وسمى يسوع ، أى المخلص فى زعمهم كما سماه الملاك عند التبشير به .

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد الى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم ، قالوا انه لاح لهم فى السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من علمهم وما عندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد هو ملك اليهود المنبأ به فعزموا على الرحيل اليه ، ليسجدوا له ، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر . وكانوا فى مسيرهم يسيرون والنجم الذى رأوه يهديهم الى الطريق هم ومن معهم من خدم . حتى جاءوا الى المدينة ، وسألوا عن مكان الملك المولود ، فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم اليه ، واستطلع طلعهم ، وتعرف أمرهم فقصوا عليه قصصهم وما ابتعثهم الى الضرب فى الأرض . والمجىء الى أورشليم ، فسرى الى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد ، ثم دعا اليه كهنة اليهود وكتبتهم ، وسألهم اين يولد المسيح . فقالوا : فى بيت لحم اليهودية حسب النبوءات. فقال للمجوس . اذهبوا الى بيت لحم ، ومتى وجدتم الصبى فأخبرونى لأسجد له ، قال ذلك ، وأخفى فى نفسه أمرا لم يبده ، فذهبوا والنجم يتقدمهم ، ووجدوا الصبى يسوع وأمه ، فسجدوا له ، وقدموا هداياهم ، وفى هذا الوقت ظهر ملاك الرب فى الحلم ليوسف ، وقال له قم وخذ الصبى وامه ، واهرب الى مصر ، لأن هيرودس يطلب الصبى ليقتله ، ففعل كما أمر ، وخرجت الأسرة المقدسة الى مصر وسافر المجوس الى بلادهم من غير أن يعرجوا على هيرودس لأنهم نهوا عن العودة اليه بوحى أوحى اليهم فى حلم ، فأخذه الغيظ ، واندفع فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التى تجاوزه ممن لا تتجاوز سنه سنتين . زاعما أن يسوع لابد أن يكون أحدهم.

رحلت الأسرة المقدسة الى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق ، كما يعتقدون ، وبعد أن قاموا بضعة أشهر واعتزموا الرحيل ، لأن ملك الرب ظهر ليوسف فى الحلم ، وقال له : قم وخذ الصبى وامه وعد الى اليهودية ، لأن هيرودوس الذى كان يطلب نفس الصبى قد مات ، فقاموا واتجهوا الى فلسطين ، ومروا فى طريقهم بالمطرية ، واستظلوا بشجرة هناك تسمى شجرة العذراء . وفى بعض الآثار انه لما دخلت مريم وابنها ويوسف أرض مصر ، انكفأت أصنامها وتحطمت ، وكان ذلك اتماما لنبوة أشعياء القائلة ، « هو ذا الرب راكب على سحابة وقادم الى مصر ، فترتجف أوثان مصر من وجهه . ويذوب قلب مصر داخلها » سفر اشعياء — ١٩ : ١ .

ولما عادوا الى فلسطين اقاموا فى الناصرة . ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمد فى نهر الأردن ، عمده يوحنا المعمدان ، ثم صام أربعين يوما ، ولما شرع فى التبشير ظهر له الشيطان يجربه . وقال له : أعطيك هذه الدنيا ان خررت وسجدت لى : فاجابه يسوع وقال : اذهب يا شـيطان . ثم تركه ابليس ، واذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه ، وبعد هـذه التجربة صار فى طريق التبشير . فلازمه حواريوه الاثنا عشر ، واختار معهم سبعين ارسلهم مثنى الى قرى اليهود والجليل للتبشير . ثم اقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتى بالمعجزات المثبتة لألوهيته فى زعمهم ، يشفى المريض ويفتح اعين العميان ، ويخرج الأرواح النجسـة .. وينهر الرياح اذا ثارت ، والبحر اذا اصطخب بالأذى ، وقذف بالزبد ، فيهدآن .

ولما راى اليهـود ان الأمر يكاد يفلت من ايديهم تشـاوروا لـكى يصطادوه ، وتآمروا عليه ، وشكوه ظلما ، وكذبوا عليه ، ثم امسـكوا به واسلموه الى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان . فقضى عليه بالموت صـلبا ، فصلب فى زعمهم ودفن . وبعد ان مكث فى القبر ثلاثة أيام قام فى الفصح ، ومكث اربعين يوما ارتفع بعدها الى السـماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانته ، اذ قال لهم : « اذهبوا الى العالم ، وكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ، وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس » .

المسـيحية بعـد المسـيح

ما نزل بالمسيحين من اضطهاد :

١٩ ـ هذا هو المسـيح كما جاء فى كتبهم وتعاليمهم ، ولا نريد أن نخوض فى بيان خلافاتهم حوله ، ولا بيان اختلافهم فى تفسير هذه العقيدة ، ولا فى تفصيل مجملها قبل ان نبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسـيح ، ولكنا سارعنا الى بيان اعتقادهم الذى استقروا عليه فى المسيح ليوازن القارىء بين ما جاء فى القرآن الكريم ، وما جاء فى اناجيلهم وتعاليمهم .

ونعود بعد ذلك الى ما يوجبه البحث العلمى ؛ وهو تتبع العقيدة فى نموها ، وفى استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها ، وتمهيدا لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده ، لكى يستبين القارىء مقدار قوة السـند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث ، وليعرف الفلسفة التى عاصرت المسـيحية ومقدار اتصالهما .

اتفقت المصـادر شرقية وغربية ، دينيـة وغير دينية : على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث ، جعلتهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحيانا ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحيانا أخرى ، وهم فى كلتا الحالين لا شوكة لهم ، ولا قوة تحميهم ، وتحمى ديانتهم وكتبهم ، وانه فى وسط هذه الاضطهادات يذكرون انه دونت اناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها ، ودونت رسائلهم !!

واول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان فى عهد المسيح ، وانتهى بالخاتمة التى بيناها ، ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هـذا الابتداء . فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذى عاصر المسـيح ، كانا شديدين على تلاميذه ، وقتلا منهم قتلا ذريعـا ، وفى زمن ثانيهما دون متى انجيله بالعبرية . وترجمه يوحنا صاحب الانجيل الى اليونانية ، على رواية ابن البطريق كما سنتبين ، ولم يكن الاضطهاد فى عهد هذين القيصرين من الرومان فقط ، بل كان من اليهود ايضـا ، واذاهم أمكن ، وتنقبهم عن

العقيدة ادخل . لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشروهم ، فهم بداخلهم أعـــرف .

واشد ما نزل من اذى كان فى عهد نيرون (سنة ٦٤ م) وتراجان سنة ١٠٦ م وديسيون (٢٤٩ — ٢٥١ م) ودقلديانوس (سنة ٢٨٠ م) ، فنيرون هاج الشر عليهم ، وانزل البلاء والعذاب بهم . واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما ، فاخذهم بجريرتها . وكانت الســـــنوات الأربع الأخيرة عذابا اليما لهم . فقد تفنن هو واشياعه فى هذا العذاب ، حتى لقد كانوا يضـــعون بعضهم فى جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم ، وصلبوا بعضهم ، والبسوا بعضهم ثيابا مطلية بالقار ، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها ، وكان هو نفسه يسير فى ضوء تلك المشاعل الانسانية .

وفى عصر نيرون هذا دون انجيل مرقس سنة ٦١ على رواية ، وكان بمصر وقد كتبه عنه بطرس وهو بروما وكتب ايضا لوقا انجيله فى عهـــد هذا القيصر ، وفى ابتداء هذا الانجيل ينص على انه يراسل به تاوفيلس ، ليؤكد له صحة الكلام ، وتاوفيلس هذا رجل من عظماء الروم واشرافهم ، وفى عصر هذا القيصر او بعده دون يوحنا انجيله .

وفى عهد تراجان نزلت بهم آلام ، لانهم قد جرت عادتهم بالصلاة فى الخفاء وهربا من الاضطهاد ، وقد امر تراجان بمنع الاجتماعات السرية ، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك ، ولانهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر .

جاء فى كتاب تاريخ الحضارة « لقد كتب بلين — وكان واليا فى آسيا — الى الامبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التى كان بها المسيحيون ، قال : « جريت مع من اتهموا بانهم نصـــارى على الطريقة الآتية وهى انى اسالهم اذا كانوا مسيحيين فاذا اقروا اعيد عليهم السؤال ثانية وثالثا مهددا بالقتل ، فان اصروا انفذت عقوبة الاعدام فيهم ، مقتنعا بأن غلطهم الشنيع، وعنادهم الشديد ، يستحقان هذه العقوبة ، وقد وجهت التهمة الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها ، فانكروا انهم نصارى ، وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت اسماءهم امامهم ، وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأرباب ، بل انهم شتموا المسيح ، ويقال ان من الصعب اكراه النصارى الحقيقيين ، ومنهم من اعترفوا بانهم نصـــارى ،

ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم فى انهم اجتمعوا فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه رب ، وعلى انشاد الأناشيد اكراما له ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم ، بل على الا يسرقوا ، ولا يقتلوا ، ولا يزنوا ، وان يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى لمعرفة الحقيقة ان اعذب امراتين ذكروا انهما خادمتا الكنيسة ، بيد انى لم اقف على شىء سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها » .

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى فى عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب ، وتنقيب عن القلب وخبيئة النفس .

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان ، بل استمر ، وان اخذت الرافة بعض القياصرة ، خلف من بعده خلف ينزلون عذابا مرا يزيل اثر كل رحمة سابقة كانت نسبية حتى جاء ديسيوس فانزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان ، ولنترك القلم لبطريرك الاسكندرية ، يصف بعض ما عاين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه ، فهو يقول : « لم نكد نتنفس الصعداء ، حتى حلق بنا الخوف ، وحفنا الخطر ، عندما بدل ذلك الملك الذى كان أرق جانبا ، واقل شرا من غيره ، وجاء مكانه ملك آخر ، ربما لا يجلس على كرسى الملكة حتى يوجه انظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا . وقد تحقق حدسنا ، عندما اصدر امرا شديد الوطأة ، فعم الخوف الجميع ، وفر بعضهم ، وقد ابعد كل مسيحى من خدمة الدولة ، مهما يكن ذكاؤه ، وكل مسيحى يرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم الى هيكل الأوثان ، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم ، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة . بعد ان يجتهدوا فى حمله بالترهيب ... ومن ضعاف الايمان من انكر مسيحيته . واقتدى به البعض ، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار ، أو من زج به فى غيابات السجون » .

وهكذا يقص ذلك القسيس ما نزل بهم مما انتهى به الأمر الى فراره هو ، وقد كتب يعتذر (١) عن ذلك الى بعض من ابلوا بلاء حسنا ، ولم يلوذوا بالفرار .

---

(١) راجع فى هذا الكتاب تاريخ الأمة القبطية الجزء الأول ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

ولم يكن البلاء مقصورا على مصر ، بل كان يتتبع المسيحيين فى الدولة الرومانية حيثما ثقفوا ، واينما كانوا .

ولى بعد ديسيوس من اوقع البلاء وانزله بالمسيحيين ، ولكن كان اشد هؤلاء وابلغهم اذى وانكاهم بطشا — دقلديانوس الذى جاء اليهم ، بعد ان خف العذاب عنهم قليلا ، وقد رجوا فيه خيرا ، واملوا منه أن يكون عونا ، لأن مدير خاصته مسيحى ، ولكنه كان اشد من غيره على المسيحيين، وخصوصا المصريين ، وذلك لأن المصريين راوا انما تحللت من حكم الرومان، ونكوا اغلاله ، فاقتدوا بهم ، ونزعوا الى السير فى طريق الحرية والاستقلال ، وساروا فيه ، وعقدوا الامرة لواحد منهم ، فجاء دقلديانوس الى مصر ، وانزل بها البلاء ، وازال استقلالها ، واعاد فتحها ، وكانت كثرتها فى ذلك الابان مسيحية ، وقد أمر بهدم الكنائس ، واحراق الكتب ، واصدر امرا بالقبض على الاساقفة والرعاة ، وزجهم فى غيابات السجن ، وقهر المسيحيين وحملهم على انكار دينهم ، وقد استشهد فى هذا الوقت عدد كبير من الاقباط تجاوزت عدتهم اربعين ومائة الف ، وعدهم بعض المؤرخين ثلاثمائة الف ، ولكثرة ما استشهد من شهداء وما نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثا ذا خطر فى شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم ، وذلك فى سنة ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين ، يمنا وبركة على المسيحيين ، لا على المسيحية كما سنبين .

اثر الاضطهادات فى الديانة :

٢٠ — هذه هى الاضطهادات التى قارنت المسيحية فى نشأتها وفى تكونها وليدا وفى تدرجها ، وفى عصر تدوينها ورواية كتبها ، وهى مع اسباب أخرى جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب ، وجعلت بعض علماء المسيحيين انفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب فى الاناجيل بانها دونت فى عصور اضطهاد المسيحية الأولى ، بل ان مناظريهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سببا فى فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة . يقول الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه أظهار الحق : « طلبنا مرارا من علمائهم النحول السند المتصل فما قدروا عليه ، واعتذر بعض القسيسين

فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم ، فقال : ان سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين الى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة ، وتفحصنا كتب الاسناد لهم ، فما رأينا فيها شيئا غير الظن ، يقولون بالظن ، ويتمسكون ببعض القرائن . وقد قلت ان الظن فى هذا الباب لا يغنى شيئا ، فما داموا لم يأتوا بدليل شاف ، وسند متصل فمجرد المنع يكفينا . وايراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا ». وفى الحق أن تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به فى شئونهم الدينية — وخاصة ما كان متصلا ببيان الشريعة يقومون به سرا لا جهرا ، وفى خفية من العيون المتربصة ، والأعداء المترقبين ، والسرية يحدث فى ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن الى ما يحكى عما يحدث فيها ، فيتظنن فى كل ما يروى عنها ، ولا مانع من ان يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها ، وينقل عن أشخاصهم ما لم يقولوه ، ويتسامع الجمهور امورا ما حدثت فى تلك الاجتماعات ، ولا قالها حاضروها ، فاذا جرى الشك والريب فيما دون من كتب المسيحية التى فقدت سندها بسبب هذا الاضطهاد ، والتى كتبت فى ظلمة السرية ، يكون قد وقع حيث وجدت دواعيه ، وقامت شواهده .

الفلسفة الرومانية والمسيحية :

٢١ — ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم ، ومنهم من يظهر الوثنية ويبطن المسيحية ، ومنهم من دخل النصرانية وفى رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع منه ولم تزايله ، وان زايلها بعقله المدرك فعقله الباطن ما زال مستقرا لها ومكمنا تكمن فيه ، وأهؤلاء لا شك أثر تفكيرهم فى المسيحية التى لم يكن لها قوة تحميها ولا شكيمة تعقل النفوس الى حظيرتها .

وان التاريخ يروى لنا انه فى القرن الثانى ، والثالث ، والرابع الميلادى قد دخل الرومان والمصريون أفواجا أفواجا فى المسيحية . فمن حق العلم أن نحكى ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار ، وما كان يسود تفكيرها من منازع عقلية ودينية ، ولا نعتمد فى ذلك الا على ما اثبته تاريخ العلم والفلسفة ، وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكى التاريخ أن مدينة الرومان لم تكن متناسقة تناسقا اجتماعيا ، فلم يكن توزيع الثروة فيها توزيعا يتحقق معه العدل الاجتماعى ، فبينما

ترى ترفا ورخاء لمن افاءت عليهم الدولة بالفيء والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ، ترى الوف الالوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والسخط على الحياة، والتململ بها ، والناس لا يشقون لآلامهم وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت آلام سواد الرومان ، ولولا الايمان بحياة مستقبلة ، يستمتعون فيها بما حرموا منه فى هذه الحياة، لضاقت الصدور بما يجلجل فى القلوب ، ولانفجرت فى ثورة اجتماعية ، لكن توجهت هذه النفوس الى الايمان بعالم علوى ، واعترف الانسان بعجزه التام عن معرفة نفسه واسعادها ، اذا اعتمد على تفكيره فقط ، لذلك رجعوا الى الدين .

وفى هذا الوقت أراد الفلاسفة ان يحلوا فلسفتهم محل الأديان ، اذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها ، ولم يعد لها سلطان فى تصريف سلوك الانسان ، وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة ، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان ، كلاهما فيه قوة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى باليوم الآخر ، وملاذ الى حياة روحية ، والفلسفة — بما لها من سلطان العقل — لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها ، حينئذ التحمت الفلسفة بالشعور الدينى ، أو التقت الفلسفة والدين ، ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاما ، بل كان محبة وسلاما ، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما ، لا داعية افتراق .

قال فندلبند فى ذلك : « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها ولتقدم بالشعور الدينى اللجوج فكرة فى العالم تقنعه . فأوجدت نظما دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقا يختلف قلة وكثرة » .

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادىء الفلسفية، فما هذه الأديان المتضادة التى ألفت بينها الفلسفة ، وجعلت من نغماتها المختلفة نغمة واحدة مؤتلفة ؟

ان التاريخ يقص علينا ان الأديان التى كانت فى بلاد الرومان ثلاثة : الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة ، فهل عملت الفلسفة على ايجاد ديانة تجمع بين المسيحية واليهودية ، وفيها وثنية ؟ وهل المسيحية التى تؤمن بالتوراة التى عند اليهود على اختلاف هين ، وتؤمن بالتثليث والوهية المسيح وتقديس الصليب ، هى النظام الدينى الجامع بين الأديان الثلاثة !! لنترك ذلك الآن . وقد وضعنا امام القارىء المصباح الذى يرى به الطريق .

الأفلاطونية الحديثة واثرها فى النصرانية :

٢٢ — ولنتجاوز رومة الرومان ولنعبر البحر الأبيض ، ولنيمم شواطئه الجنوبية ، فهناك تجد مدينة الاسكندرية ومدرستها ، وفلسفتها التى كانت تشع على العالم كله بنور العلم ، وقد آوى اليها فلاسفة اليونان ، وتابعوا الفلسفة اليونانية ، والتى تراها تتجه اتجاها واضحا الى النواحى الدينية ، والبحث فى منشىء الكون .

كان شيخ هذه المدرسة امنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ، اعتنق فى صدر حياته الديانة المسيحية . ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين ، وجاء من بعده تلميذه افلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية اولا ، ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية، واطلع على تعاليم بوذا وديانته ، وبراهمة الهند وديانتهم . وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، والبراهمة فى كرشنة ، وقد عاد بعد ذلك الى الاسكندرية ، واخذ يلقى بآرائه على تلاميذه ، وجلها يتجه الى تعرف ما وراء الطبيعة ، ومنشىء الكون .

ويلخص اعتقاده فى منشىء الكون فى ثلاثة أمور :

(اولها) ان الكون قد صدر عن منشىء أزلى دائم لا تدركه الأبصار ، ولا تحده الأفكار ، ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام .

(ثانيها) ان جميع الأرواح شعب لروح واحد وتتصل بالمنشىء الأول بواسطة العقل .

(ثالثها) ان العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ، وهو تحت سلطانها ، فالله منشىء الأشياء وهو مصدر كل شىء ، واليه معاده لا يتصف

بوصف من اوصـــاف الحوادث . فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكرا كفكرنا .. ولا ارادة كارادتنا ولا وصف له ، الا أنـــه واجب الوجود ، يتصف بكل كمال يليق به ، يفيض على كل الأشــياء بنعمـــة الوجـــود ، ولا يحتاج هو الى موجود ، واول شيء صدر عن هذا المنشيء فى نظـــر أفلوطين هو العقل المصدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ، ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء .

٢٣ — هذه هى فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية عندما اريد تحويلها ، وترى أن فلسفة الرومان ترمى الى ايجاد الفة بين الوثنية واليهودية ومسيحية المسيح عليه السلام ، كما ترى أن فلسفة الاسكندرية ترجع العالم فى تكوينه وتدبيره الى ثلاثة عناصر او الى ثالوث مقدس هو المنشيء الأول ، والعقل الذى تولد منه كما يتولد الولد من أبيه ، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة . فاذا عبرنا عن المنشيء الأول بالآب ، وعن العقل المتولد عنه بالابن ، وعن الروح بروح القدس ، كما هو ثالوث النصارى الذى أخذ ببعضــــه مجمع نيقية ، وبكله المجامع التى جاءت من بعده ، لما خرجنا فى التسمية عن الصواب ، وما كان فيها أى تسامح ، فذلك الثالوث فى معناه هو ثالوث النصارى ، واذا لم يختلف المســـمى ، فلماذا يختلف الاســـم ؟ .

وهنـــا يرد على النفس سؤال : أيهما استقر ، وأيهما كان الينبوع ؟ هل أخذت الأفلاطونية الحديثة من النصرانية، أم النصرانية الحاضرة هى التى أخذت عن الفلسفة ؟ ان الجواب عن هذا يقتضى تعرف السابق منهما ، فالسابق بلا ريب أستاذ اللاحق ، والزمن هو الذى يحكم ويفصل ، وسنجد فيما يلى من البحث أن مجمع نيقية هو الذى سار فى تقرير هـــذا الثالوث ، ووضع الأساس لمن بعده ، أو بعبارة أدق قرر الوهية الابن ، وأن جوهره هو جوهر الآب ، وقد جاء فى قراره « ان الجامعـــة المقدسة ، والكنيســـة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيـــه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول أن الابن وجـــد

من مادة أو جوهر غير جوهر الآب ، ومثل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول انه قابل للتغيير (١) » .

(١) اطلع زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا على هذا الاستنباط التاريخى فقال : انه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين ، ثم ترجمه ، وتفضل فأرسل الينـا نص الترجمة وهاهى ذى، ننشرها مع بحثنا شاكرين له رحمه الله فضل تعاونه:

التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الاغريقية

١ — كانت المشكلة الفلسفية التى واجهت أولا الاغـريق هى : « ما مبدأ كل شيء ؟ » « وباجتهاد الفلسفة فى الاجابة عن هـذا السؤال اجابة محـدودة ومقنعـة شـيئا فشيئا كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التى تتابعت فى تاريخ الفلسفة الاغريقية . هذه فلسـفة بدات طبيعيـة مع الفلاسفة الأيونيين ، ثم أخـذت فكرة التوحيـد فى الظهور على أيدى سقراط ، وأفلاطون ، وارسطو ، بحيث راى هؤلاء أن المبدأ الذى صدر عنه العالم هو الله الواحد الذى لم يتغير ، على غموض فى تعيين هـذه الصفات ونحوها مما يصح أن يتصف بهـا .

ولكن بمقدار تبين هـذه المعـارف والمعلومات عن الله كانت تكبر الصعوبة الأساسية التى اصطدمت بها المذاهب التى سبقت سـقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن ان يخرج الكثير — اى العام — من الواحد ، والمتغير من الذى لا يتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيرورته روحيا ، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملا ، تتسع الهوة التى تفصله عن العالم وكثرته وتصير اكبر عمقا ، كما يصبح عسيرا فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه .

٢ — اذا كان الله واحـدا وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل فى ذاته كثرة بأى وجه من الوجوه ؟ واذا كان كماله المطلق يقتضى عـدم التغير ، كيف نفهم أنه فى وقت ما اوجد العالم دون ان يلحقه تغير ، مع أنه انتقل من حالة عدم العمل الى حالة العمل ؟ هنا تظهر عبقرية العقل الآرى ! الواحد البرىء من التغير لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة ، يجب اذن أن تتوسط بينهما وسـائط ازلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقى .

٣ — كان افلاطون أول من ادرك تلك المشكلة وأول من ادرك هذا الحل الذى وجب على العقل الاغريقى فيما بعد — بعد انضاجه طويلا — أن يجتمع نهائيا عليـه ، أعنى عقيدة ثلاثة اقانيم او عقيـدة التثليث — ص ٧٠ — ٧١ .

٤ — هذا المذهب او هذه العقيدة التى تمثلها عقل افلاطون ، وان ادركها ادراكا فيه نوع غموض ، ليس الا عقيـدة التثليث المشهورة =

وهذا المجمع كان فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد ، والمسيحيون قبله كانوا على اختلاف كبير جدا ، ويكفى للدلالة على هذا الاختلاف ان الذين حضروا المجمع نيف واربعون بعد الالفين ، وهم على آراء مختلفـــة ، ولم يجمع اعضاء هـــذا المجمع على نحلة واحـــدة ، اما عقيدتهم فى الابن وقولهم انه تولد عن المنشىء من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة ، وأنه من جوهر ابيه ، كما يقولون لم تسد الا بعد ذلك المجمع ، وسيأتى لذلك فضل بيان ان شاء الله تعالى ، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخرا عن افلوطين لأن أفلوطين توفى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما علمت ، والتثليث

= ومن السهل ادراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير ، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه خارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيـــه ، اى تتضمنهما ذاته — صادرين عنه ، دونه فى الكمال ، ويجعلانه ممكنا أن يصدر عن الله العـــالم الكبير المتغير. أول هذين الوسيطين العقل ، وثانيهما الروح الالهية — ص ٧٣ — ٧٤ .

٥ — وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الاغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج معها دينا ايضا ، أعنى المســـيحية التى تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الافلاطونية الحديثـــة (يريد فلسفة افلاطون التى كانت المعين الأصلى للفلسفة الأفلاطونيـــة الحديثة) ولذا نجد بينهما (أى اللاهوت المسيحى والأفلاطونية الحديثة) مشابهات كبيرة ، وان افترقا أحيانا فى بعض التفاصيل ، فانهما يرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة الأقانيم واحدة فيهما — ص ٩٣ .

٦ — أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال ، والذى يحوى فى وحدته كل الكمالات ، وهو الذى دعاه المسيحيون الآب . والثانى أو الابن هو الكلمة . والثالث هو دائما الروح القدس — ص ٩٢ — ٩٤ .

وعلى انه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحى عن الأفلاطونية الحديثة) أن الأقانيم الثلاثة ليست فى نظر هذا المـــذهب متساوية فى الجوهر والرتبة . بينما هى متساوية عند المسيحية . فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن أن يكون أدنى منه كمالا . والا صار من طبيعة الكامل ان يصدر اضطرارا عنه غير الكامل . وهذا حط من رتبته . وكذلك الروح القدس مساو للآب والابن — ص ٤٩ .

كل هذه النقول من كتاب : « مقدمة (او المدخل لدراسة) الفلسفة الاسلامية» تاليف المستشرق المعروف ليون جوتيه طبع باريس عام ١٩٢٣ .

لم يتكامل الا فى آخر القرن الرابع ، والمتقدم استاذ المتأخر كما يرجح العقل وكما يوجبه الظن الذى لا يعد من الاثم .

ولقد نرى ذلك الظن عنــد بعض علماء أوربا ، حتى شــك بعضهم فى حياة المسيح وقالوا انه شخص خرافى لم يوجــد ، اراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه ، ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة، وتسود الكافة ، وقد تم لهم ما ارادوا ، ولكنا نحن المسلمين لا نقر ذلك كله ، لما فيه من انكار وجود المسيح الذى نؤمن به ، ونزل بخبره الوحى الأمين وان كنا نصدق لبه .

مصادر المسيحية بعد عيسى

٢٤ — الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل ، ورسائل الرسل ، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد القديم ، وتسمى الأناجيل ، ورسائل الرسل كتب العهد الجديد ، فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم فى عصوره الأولى ، واجياله القديمة ، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية ، وتاريخ نشأتهم ، وحكوماتهم وحوادثهم ، والنبوات السابقة منذ هبوط الانسان على هذه الأرض ، والبشارات بالنبيين اللاحقين ، وبالمسيح ، وفيها يجدون أدعية متوارثة تعين على اداء العبادات ، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود ، ولنترك الكلام فى التوراة وأسفارها فلذلك موضعه من الدراسة للديانة اليهودية ، بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند اليهود مرفوضة عند المسيحيين ، لعدم اعتقادهم بصحة الوحى فيها .

الأناجيل :

٢٥ — أما كتب العهد الجديد فهى التى تعنينا فى هذا البحث ، ويهمنا أن نجلى أمرها ، ونعرف حقيقتها ، وأولها الأناجيل .

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا .

ومكان الأناجيل فى النصرانية مكان القطب والعماد ، واذا كانت شخصية المسيح وما حاطوها به من أفكار هى شعار المسيحية ، فان هذه الأناجيل هى المشتملة على أخبار تلك الشخصية ، من وقت الحمل الى وقت صلبه فى اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال ، ثم رفعه بعد أربعين ليلة ، وهى بهذا تشتمل على عقيدة الوهية المسيح فى زعمهم ، والصلب والفداء ، أى أنها تشتمل على لب المسيحية فى نظرهم بعد المسيح ومعناها .

وهذه الأناجيل الأربعة هى التى تعترف بها الكنائس ، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها ، ولكن التاريخ يروى لنا انه كانت فى العصور الغابرة أناجيل أخرى ، قد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كل فرقة الا انجيلها ، فعند كل من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديسان

انجيل يخالف بعضه هذه الاناجيل ، ولاصحاب مانى انجيل يخالف هـذه الأربعة ، وهو الصحيح فى زعمهم ، وهناك انجيل يقال له انجيل السبعين ينسب الى تلامس ، والنصارى ينكرونه ، وهنـاك انجيـل اشتهر باسم التذكرة ، وانجيل سرن تهس ، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، واجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم ارادت الكنيسـة فى آخر القرن الثـانى الميلادى ، او اوائل القـرن الرابع ان تحافظ على الأناجيـل الصـادقة — فى اعتقادها — فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجـة إبان ذلك . .

ولقد يذكر بعض المؤرخين انه لم توجد عبارة تشير الى وجود اناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث . واول من ذكر هذه الاناجيل الاربعـة ارينيوس فى سنة ٢٠٩ . ثم جاء من بعـده كليمنس اسكندريانوس فى سنة ٢١٦ ، واظهر ان هذه الاناجيل الاربعة واجبـة التسليم ، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الاناجيل الاربعة ، بل ارادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها ، ورفض غيرها ، وتم لها ما ارادت فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة دون سواها .

ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وادوارها فى التاريخ ان نعرف هـذه الأناجيـل التى اهملت ، وما كانت تشتمل عليه . مما كان سـببا فى رفضها ، وحمل الناس على تركها ، وخصوصا أنها كانت رائجـة . ويأخذ بها طوائف من المسيحيين ويتدينون هذه الديانة على مقتضـاها ، فان الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس فى المسيح ، وكيف كان ، خصوصا بين اولئك الذين قاربوا عصره ، وادركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه ، ونهلوا من مناهلهم ، واذ ضن التاريخ بحفظ نسـخ منها ، فقد كنا نود أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها ، وما كان من سبب رفضها ، وترينا حجة الرفض ، لتكون دليلا منيرا لها على أنها بهذا اتبعت ديانة المسيح ولم تغيرها ، ولكن ضن التاريخ علينا ، فطوى تلك الاناجيل ، وضنت الكنيسة فطوت تلك البيانات ، فلم يبق لنا الا ان نكتفى من الدراسة بما بين أيدينا ، لعل فيه غناء أن انعمنا النظر وامعنا فى الاستنباط ، وجعلنا لقضية العقل سلطانا ، ومن بدهياته برهانا .

الأناجيل لم يملها المسـيح ولم تنزل عليه :

٢٦ — وهذه الأناجيل الاربعة لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحى أوحى اليه، ولكنها كتبت من بعده — كما رأيت — وتشتمل على أخبار يحيى (يوحنا المعمدان) والمسـيح ، وما كان منه ، وما احـاط بولادته من عجائب وغرائب ، وما كان يحدث منه من أمور خارقة للعادة، ولا تحدث من سواه من البشر ، وما كان يحدث له من أحداث ، وما كان يجرى بينه وبين اليهود ، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث وأمثال ومواعظ ، وفيها قليل من الشرائع التى تتعلق بالزواج والطلاق ، ثم أخبار المؤامرة عليه ، واتهامه والقبض عليه ، ومحاكمته ، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود ، أم أمام الرومان ، ثم فيها الحكم عليه بالموت صلبا، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون ، وفيها أيضا قيامته من قبره ، ومكوثه أربعين يوما ، ثم رفعه الى السماء . وفى الجملة هى تشتمل على أخبار المسيح وصلواته. وأقواله وعجائبه ، من بدايته الى نهايته فى هذا العالم . وهذا — كما قلنا — لب المسيحية ومعناها ، لأن فيها النواة الأولى لألوهية المسيح ، وعقيـدة النصارى فيه ، ولنتكلم على كل انجيل من هذه الأناجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه ، وتعرف بمؤلفه ، ومكانته من المسيح .

انجيـل متى :

٢٧ — وقد كتبه متى، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر، ويسميهم المسيحيون رسلا ، وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب، وكانوا يسمون فى ذلك العهد عشارين ، ولقد كان جابيا للرومان فى كفر ناحـوم من أعمال الجليل بفلسطين ، وكان اليهود ينظرون للجباية نظر ازدراء ، لأنها تحمل صاحبها على الظلم ، أو على الأقل تحمله على العنف ، والعمل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التى تحكم البلاد بغير رضا أهلها ، ولكن السيد المسيح اختاره تلميذا من تلاميذه كما جاء فى انجيله . ففى الاصحاح التاسع منه : « وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى انسانا جالسا عند مكان الجباية ، واسمه متى ، فقال له : اتبعنى ، فقام وتبعه ، وبينما هو متكىء فى البيت اذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا ، واتكئوا مع يسوع وتلاميذه .

فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكلَ معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ما هو ، انى اريد رحمة لا ذبيحة ، لانى لم آت لأدعو ابرارا ، بل خطاة الى التوبة » .

ولما صعد المسيح الى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية فى بلاد كثيرة.

ومات فى سنة ٧٠ ببلاد الحبشة على اثر ضرب مبرح انزله به احد اعوان ملك الحبشة . وفى رواية أخرى انه طعن برمح فى سنة ٦٢ بالحبشة . بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعيا للمسيحية مبشرا بها ، فموطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هو الحبشة .

انجيل متى كتب بالعبرية ولم يعرف الا باليونانية وجهل المترجم :

٢٨ — وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب أنجيله بالعبرية أو السريانية، . كما اتفقوا على ان أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية، ولكن موضع الخلاف فى تاريخ تدوينه، ومن الذى ترجمه الى اليونانية، فمن المتفق عليه عند اكثرهم أن متى كتب انجيله بالعبرانية . وذلك لانه كتبه لليهود ببشر بالمسيحية بينهم ، وليقراه مؤمنوهم بها ، قال جيروم : « ان متى كتب الانجيل باللسان العبرى فى أرض يهودية للمؤمنين من اليهود » وقال غيره : « ان متى كتب الانجيل باللسان العبرى . وهو الذى انفرد باستعمال هذا فى تحرير العهد الجديد » .

واذا انتقلنا الى تاريخ تدوين هذا الانجيل وترجمته نرى ميدان الخلاف فسيحا ، فنجد ابن البطريق يذكر انه دون فى عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير ان يعين السنة التى كتب فيها .

ويذكر ان الذى ترجمه يوحنا ، فيقول فى ذلك : « فى عصر قلوديوس كتب متاوس (متى) انجيله بالعبرانية فى بيت المقدس، ونسره من العبرانية الى اليونانية يوحنا صاحب الانجيل » .

وهنا نجده لم يعين السنة التى كتب فيها الانجيل ، بل عين الملك الذى كتب فى عهده ، وهذا الملك لم يكن هو الذى عاصر المسيح ، ولا الذى يليه . بل الذى عاصر المسيح وصلب — على زعمهم — فى عهده طيباريوس،

وولى من بعده غابيوس ، وملك اربع سنين وثلاثة اشهر ، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك اربع عشرة سنة ، فيحتمل تدوين هذا الانجيل ان يكون فى آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح ، ويحتمل ان يكون فى اول او آخر العشرة الخامسة او اوائل السادسة . فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا ، وقال جرجس زوين اللبنانى فيما ترجمه عن الفرنسية : « ان متى كتب بشارته فى اورشليم فى سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب اليه القديس ايرنيموس ، والسبب فى ذلك على ماذهب اليه القديس ابيفانيوس انه كتبه اما اجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح ، او اجابة لأمر الرسل ، ولم يكتب انجيله باليونانية بل بالعبرانية على زعم اوسيبيوس فى تاريخه ، وقد وافق اسيبيوس القديس ايرنيموس ، اذ ان بانتيوس قد ذهب ليكرز بالايمان المسيحى فى الهند ، فوجد انجيلا لمتى الرسول مكتوبا بالعبرانية ، فجاء به الى الاسكندرية ، وبقى محفوظا فى مكتبة قيصرية الى ايامه ، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت ، وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية » أ هـ. وفى هذا يعين الكاتب تاريخ السنة الذى دون فيها الانجيل ، ولكن لا يعين المترجم . بل يذكر انه غير معروف ، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الانجيل المسمى باسمه .

ويقول بالنسبة لتاريخ التدوين صاحب كتاب (مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين) : « أن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب انجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا ، ومرقس ولوقا كتبا انجيلهما قبل خراب اورشليم . ولكن لا يمكن الجزم فى اية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص ، لانه ليس عندنا نص الهى على ذلك » .

وقال صاحب ذخيرة الألباب : « ان القديس متى كتب انجيله فى السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين ، وهى العبرانية او السيروكلدانية . . ثم ماعتم هذا الانجيل ان ترجم الى اليونانية . ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدى النساخ الأبونيين ومسخته بحيث اضحى ذلك الأصل خاملا ، بل فقيدا ، وذلك منذ القرن الحادى عشر » .

وقال الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس ، مخالفا جمهور المتقدمين فى انه كتب بالعبرانية او السريانية : « ان هنالك من يقول انه كتب

باليونانية ، ثم يرجح انه الف باليونانية مخالفا بذلك اجمـــاع مؤرخيهم . ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه : « ولا بد أن يكون هذا الانجيل قد كتب قبل خراب أورشليم» ويظن البعض «ان الانجيل الحالي كتب مابين سنة ٦٠ وسنة ٦٥ » . والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سده ، ولايمكن ترجيح رواية ، ولاجعل تاريخ اولى من تاريخ بالاتباع، وذلك يقول هورن : « الف الانجيل الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد » . ونقول نحن : « يجوز غير ذلك ، والجمهور على انه كتب بغير اليونانية » ولكن لم يعرف غيرها ، ولم يعـرف جمهـرة المؤرخين من يكون المترجم ، وفي أي عصر ترجم ، وقد علمت ان ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذي ترجمه الى اليونانية ، ولكن لا نجد أحدا من المؤرخين ايده، بل ان الكثيرين منهم يقولون : « انه لم يعرف المترجم » .

اثر جهـل تاريخ التـدوين والمترجم :

٢٩ — لاشك ان جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التي كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح او غيره ، وعلم بالدين واللغتين التي ترجم عنها والتي ترجم اليها ، كل هذا يؤدي الى فقد حلقات في البحث العلمي ، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التدوين ، وتاريخ الترجمة وملابساتها ، ليمنعنه العـلم من الاسترسال في التسامح ، حتى لا يرى أن المسلسلة تكون كاملة اذا لم يعرف الأصل الذي ترجم ، فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت الترجمـة طبق الأصل ، أم فيهـا انحراف ، ولنعرف افهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها ، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو باشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته ، ام بروح المؤلف وغرضه ، ومرماه الكلي من الكلام . ولكن عز علينا العلم بالاصل ، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم ، وانه ثبت ثقة أمين في النقل ، عالم لايتزيد على العلماء ، فقيه في المسيحية حجة فيها ، عارف للغتين فاهم لهما ، مجيد في التعبير بهما ، فعندئذ كنا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته ، ونسد الخلة بتلك الرواية ، ونرأب الثلمة بتلك النظرة، ولكن قد امتنع هذا ايضا ، فقال جمهرة علمائهم : ان المترجم لم يعرف ، فبقيت الثلمة من غير ما يرأبها .

انجيـــل مرقس :

٣٠ — يقول المؤرخون ان اسمه يوحنا ويلقب بمرقس ، ولم يكن من الحواريين الاثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح ، واختصهم بالزلفى اليه، واصله من اليهود ، وكانت أسرته بأورشليم فى وقت ظهور السيد المسيح، وهو من أوائل الذين اجابوا دعوته ، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس فى اعتقادهم من بعد رفعه، والهموا بالتبشير بالمسيحية، كما الهموا مبادئها. ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : «وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على ان الرب يسوع كان يتردد على بيتـه ، وانه فى هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه ، وفى احدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ » . وجاء فى سفر الأعمال : « ان الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون فى بيته » ولقـــد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) وبولس الرســول فى رحلتهما الى انطاكية وتبشيرهما بالمسيحية فيها ، ثم تركهما بعد ذلك ، وعاد الى أورشليم ، ثم التقى مرة أخرى بخاله ، واصطحبه الى قبرص، ثم افترقا ، فذهب الى شمال افريقية ودخل مصر فى منتصف القرن الاول ، فأقام بها وأخذ يدعو الى المسيحية التى كانت أخبارها قد سبقته اليها ، وقد وجد فى مصر أرضا خصبة لقبول دعوته ، فدخل فيها عدد كبير من المصريين ، وكان يسافر من مصر أحيانا الى رومة وأحيانا الى شمال افريقية ، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له، فاستمر بها الى أن أثتمر به الوثنيون ، فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه ، وكان ذلك سنة ٦٢ من الميلاد ، وقد جاء فى كتاب مروج الاخبار فى تراجم الابرار أن مرقس كان ينكر الوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحوارى ، وقد جاء فى ذلك الكتاب عن مرقس : « صنف انجيله بطلب من أهالى رومية، وكان ينكر الوهية المسيح » .

اللغة التى كتب بها انجيل مرقس وتاريخ تدوينه والاختــلاف فيه وفى الكاتب :

٣١ — وقد كتب هذا الانجيل باللغة اليونانية، ولم نر أحدا من كتاب المسيحيين ناقض ذلك ، وقد ذكر الدكتور بوست فى كتابه (قاموس الكتاب المقدس) انه كتب الانجيل باليونانية ، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية ، وأخذ من ذلك انه كتب فى رومة . ويجىء مثله فى تاريخ ابن البطـــريق ،

فيه : « وفى عصر تارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين انجيل مرقس عن مرقس فى مدينة رومية ، ونسبه الى مرقس » .

ونوجه نظر القارىء الى ماقاله ابن البطريق من ان الذىكتب الانجيل هو بطرس عن مرقس ، ونسبه اليه ، فكان بطرس راوى مرقس . مع أن الاول رئيس الحواريين — كما يقول ابن البطريق — والثانى من تلاميذه ، كما جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الابرار . واذا كان ذلك الانجيل خلاصة علمه بالمسيحية ، فاذا رواه عنه استاذه، فقد روى هذا عن مرقس ما القاه عليه وعلمه ، وان ذلك لغريب ، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : « قد زعم أن انجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته » . وقد ذكر الأمر بلفظ الزعم ، كأنه لا يصدقه، وانه لا يراه مقبولا ، كما نراه غريبا ، ولكن هكذا يذكر الرواة . وبجوار هؤلاء الذين يقولون او يزعمون ان انجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس ، وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم ارينيوس : « أن مرقس كتب انجيله بعد موت بطرس وبولس » .

وفى الحق أن ذلك الاختلاف ، وان كان زمنيا فى ظاهره ، هو فى معناه ولبه ، اختلاف فى شخص المحرر لهذا الانجيل . فابن البطريق ، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر أن الذى كتبه هو بطرس عن مرقس ، ونسبه اليه ، وأرينيوس يقرر أن الذى كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس ، لأنه كتبه بعد موته . فمن الكاتب اذن ؟ ليس بين أيدينا مانرجح به احدى الروايتين على الأخرى ! . ولنتجاوز هذا الى تاريخ كتابة ذلك الانجيل ، فنجدهم أيضا قد اختلفوا فى زمان تاليفه . وقدقال فىذلك هورن: « الف الانجيل الثانى سنة ٥٦ وما بعدها الى سنة ٦٥ والأغلب انه الف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ » ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين : انه كتب سنة ٦١ .

انجيل لوقا :

٣٢ — يقولون : ان لوقا ولد فى انطاكية ، ودرس الطب ، ونجح فى ممارسته ولم يكن من اصل يهودى، ولقد رافق بولس فى أسفاره واعماله،

وجاء فى رسـائل بولس ما يشـير الى هذه الرفقـة ، وتلك الملازمة . ففى الاصحاح الرابع من رسالته الى كولوسى يقول : « يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب » ، وفى الاصحاح الرابع من رسالته الثانيـة الى أهـل تيموثاوس يقول : « لوقا وحده معى » ، وفى رسالته الى أهل فليمون يقول: « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا العاملون معى » . من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو الأنطاكى ، الطبيب ، ومثل هذا جاء فى تاريخ ابن البطريق؛ ويستنبط القس ابراهيم سـعيد من كون لوقا طبيبا معـانى كثيرة تسمو بانجيله ، فيقول : « وكان لوقا طبيبا ، وهذه المهنة لهـا قيمتها الخاصة، لانها تلقى على حياة لوقا نورا ساطعا ، فترينا اياه الرجل العلمى العملى المدقق المحقق ، الرقيق الأسـلوب ، الجميل الديباجـة ، لأن الرومان لم يسمحوا فى وقتهم لأحـد أن يتعاطى مهنة الطب ، الا لمن جاز امتحانات عـدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطـورة » ، ثم يبين : « أن كونه طبيبـا قد سرد ولادة المسيح من غير أب سردا طبيعيا هادئا من غير محاولة التدليل على جوازه ، يؤخذ منه ان ذلك ليس ضد العـلم ، وان كان فوق متناول العـالم ، وليس ضـد الطبيعة ، وأنه فوق مجرى الطبيعـة » . ويرجـح — كما قال كثيرون — انه ولد بانطاكية ، ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن انطاكيا ، ويبين أن الذين يقولون انه انطاكى وهموا ذلك او ظنوه من اشتباهه بلوكيوس ، فيقول : ظن بعضهم انه (لوقا) مولود فى انطاكية الا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس . وزعم بوست انه كان رومانيا نشأ بايطاليا . ومهنة الطب التى نسب اليها ليست أيضا موضع اتفاق ، لأن بين المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصورا .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقينى بمولد وصـناعة كاتب هذا الأنجيل ، فمن قائل انه انطاكى ولد بانطاكية ، ومن قائل انه رومانى ولد بايطاليا ، ومن قائل انه كان طبيبا ، ومن قائل انه كان مصورا ، وكلهم يتفقون على انه من تلاميذ بولس ورفقائه ، ولم يكن من تلاميذ المسيح ، ولا من تلاميذ حوارييه . ولبولس هذا شأن خطير فى المسيحية كما سنبين .

من كتب لهم انجيل لوقا ، ولغته ، واختلافهم حوله :

ويختلفون أيضا فى القوم الذين كتب لهم اولا هذا الانجيل . فالقس ابراهيم سعيد يقول : « أنه كتب لليونان ، وانجيل متى كتب لليهود . وانجيل

مرقس يقول كتب للرومان ، وانجيل يوحنا كتب للكنيسة العامة » .
وانا نجد انجيل لوقا يبتدىء بهذه الجملة : « اذا كان كثيرون قد اخذوا بتأليف قصة فى الامور المتيقنة عندنا . كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، رأيت أيضا ، اذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق ان اكتب على التوالى اليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » . وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق انه من عظماء الروم ، فيقول فى ذلك : « وكتب لوقا انجيله الى رجل شريف من علماء الروم يقال له ثاوفيلا . وكتب اليه أيضا الابركسيس الذى هو اخبار التلاميذ » وهى الرسالة المسماة أعمال الرسل ، وهناك من يقول ان ثاوفيلس هذا كان مصريا ، لا يونانيا ، فهو قد كتب للمصريين لا لليونانيين .

ويقول الدكتور بوست فى تاريخه : « قد كتب هذا الانجيل قبل خراب اورشليم وقبل الاعمال ، ويرجح انه كتب فى قيصرية فى فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ — ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون انه كتب قبل ذلك » . ومن هذا يفهم أن بوست يرجح انه الفه وبولس حى فى الاسر ، ولكن يحقق العلامة لارون انه حرر انجيله بعد أن حرر مرقس انجيله ، وذلك بعد موت بطرس ، وبولس . والواقع ان باب الخلاف فى تاريخ تدوين هذا الانجيل أوسع من ذلك ، فقد قال هورن : الف الانجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ .

ولا نترك هذا الانجيل من غير أن نقول ان الباحثين قد اختلفوا فى شخصية كاتبه وفى صناعته ، وفى القوم الذين كتب لهم ، وفى تاريخ تأليفه ، ولم يتفقوا الا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه . والا على أنه كتب باليونانية .

انجيل يوحنا :

٣٣ — لهذا الانجيل خطر وشأن اكثر من غيره فى نظر الباحث ، لانه الانجيل الذى تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح ، فهذه الالوهية يعتبر هو نص اثباتها وركن الاستدلال فيها . ولذلك كان لابد من العناية به ، اذ كان التثليث هو شعار المسيحية ، وهو موضع مخالفتها لديانات التوحيد ، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات .

ويقول جمهور النصارى : ان كاتب هذا الانجيل هو يوحنا الحوارى ابن زبدى الصياد الذى كان يحبه السيد المسيح ، حتى أنه استودعه والدته وهو فوق الصليب ، كما يعتقدون ، وقد نفى فى أيام الاضطهاد الاولى ، ثم عاد الى افسس ، ولبث يبشر فيها ، حتى توفى شيخا هرما .

هذه خلاصة ما جاء بكتاب مرشد الطالبين ، ولكن بجوار هؤلاء من محققى المسيحيين من انكر ان يكون كاتب هذا الانجيل هو يوحنا الحوارى ، بل كتبه يوحنا آخر لا يمت الى الأول بصلة روحية ، وأن ذلك الانكار لم يكن من ثمرات هذه الاجيال ، بل ابتدأ فى القرن الثانى الميلادي ، فان العلماء بالمسيحية فى القرن الثانى الميلادى انكروا نسبة هذا الانجيل الى يوحنا الحوارى ، وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحوارى ، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة ، ولو كانت صحيحة لعلم بذلك حتما تلميذه بوليكارب ، ولاعلم هذا تلميذه ارينيوس ، ولأعلن هذا تلك النسبة عندما شاع انكارها . ولقد قال استادلين فى العصور المتأخرة : « ان كافة انجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية ، ولقد كانت فرقة الوجين فى القرن الثانى تنكر هذا الانجيل وجميع ما اسند الى يوحنا ، ولقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : « اما انجيل يوحنا فانه لا مرية ولا شك كتاب مزور اراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض . وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى متن الكتاب انه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا ، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت اليه ، وانا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ، ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفلسفى — الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى — بالحوارى يوحنا الصياد الجليل ، فان اعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى » .

هذا قول بعض الباحثين من كتابهم : « ومن البدهى ان يعد المتعصبون ذلك القول خروجا على وجه المسيحية ، ولذلك قال احد هؤلاء المتعصبين،

وهو الدكتور بوست زادا على هؤلاء : وقد انكر بعض الكفار قانونية هذا الانجيل ، لكراهتهم تعليمه الروحي ، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح ، غير أن الشهادة بصحته كافية ، فان بطرس يشير الى آية منه (٢ بط ١ : ١٤ قال يو ٢١ ، ١٨) ، واغناطيوس وبوليكرس يقتطفان من روحه ونحواه . وكذلك الرسالة الى ديو كنيتس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانياس ، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها الى منتصف القرن الثانى ، وبناء على هذه الشهادات ، وعلى نفس كتابه الذى يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بانه من قلمه ، والا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم ، وهذا الأمر يعسر تصديقه ، لأن الذى يقصد أن يغش العالم لا يكون روحيا ، ولا يتصل الى علم وعمق الأفكار والصلات الموجود فيه ، واذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بونا عظيما ، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادرا على تأليف كذا ، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه الا يوحنا ، ويوحنا ذاته لا يستطيع تأليفه بدون الهام من ربه » .

واذا نظرنا الى هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين ، قسم يعلن به الكاتب شدة ايمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه . وهو القسم الذى ذكره فى عجز قوله ، وهو انه لا يستطيع أحد من الآباء ، بل لا يستطيعه أحد من الحواريين ، بل لا يستطيعه الكاتب نفسه الا بالهام من ربه ، ويلحق بهذا الجزء ما سبقه مما يماثله ، فان من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجا ، فانه ليس فيه اية محاولة لها ، اما القسم الثانى فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر فى صدر قوله ، فانه يقرر الاتفاق بين نص جاء فيه ، ونص جاء فى رسالة بطرس الثانية ، فهو يقول : أن الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الأول ونصها مع الفقرة التى قبلها : « ١٣ — ولكنى احسبه حقا ما دمت فى هذا المسكن أن انهضكم بالتذكرة — ١٤ — عالما أن خلع مسكنى قريب ، كما اعلن ربنا يسوع المسيح أيضا » موافقة للفقرة الثامنة عشرة من الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل يوحنا ونصها : « الحق الحق اقول لك لما كنت اكثر حداثة كنت تنطق ذاتك ، وتمشى حيث تشاء ، ولكن متى شخت فانك تمد يدك ، وآخر يمنطقك ، ويحملك حيث لا تشاء » .

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لا فى اللفظ ولا فى المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة ، ولا جامع بينهما ، فظننـا أن هنـاك خطأ فيما كتبه الدكتور بوست ، وقلنـا لعـله يريد الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية ، فرجعنا الى الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الأول من الرسالة الأولى ، فوجدنا نصها هى وما قبلها هكذا : « لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين فالقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التى يؤتى بها اليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة، ولا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم» . وهنا نجد بعضا من الموافقة فى اللفظ ، والموافقة فى المعنى ، فرجحنا أنه اراد هذه الرسالة ، وسبق قلمه فدون الثانية بدل الأولى ، وعلى ذلك نناقش القول على اساسها ، وأساس المناقشة ما نعرفه من ان المتأخر ان وافق قوله من سبقه يكون قوله شهادة للسابق ، ولا يكون قول السابق شهادة له ، وأيهما اسبق تدوينا رسالة بطرس أم انجيل يوحنا ، وقد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتله نيرون ، ويقول فى ذلك ابن البطريق: « واخـذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكسا وقتله ، لأن بطرس قال له : ان أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكسا لئلا اتشبه بسيدى المسيح ، فانه صلب قائما » .. وعاش بطرس بعد السيد المسيح أثنتين وثلاثين سنة ، فكان بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥ ، لأن المسيح صلب فى اعتقادهم وله ثلاث وثلاثون سنة ، يضاف اليها اثنتان وثلاثون سنة عاشها بعده بطرس . ومن المؤكد ان أنجيل يوحنا كتب بعد ذلك ، فقد كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست ، فاذا وجدنا اتفاقا بين ما كتب فى هذا الانجيل ، وما جاء فى رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الانجيل شاهدا لبطرس ، لا ان بطرس شاهد له، وشهادة انجيل يوحنا لا قيمة لها، لانها شهادة انجيل فى نظر من انكروه مجهول غير معروف يحتاج الى دليل ، فلا حجة فى هذا الأمر ، وعلى ذلك يكون الأمر فى غيره من الشـهادات ، وسنبين عند مناقشة كتبهم كثيراً من أوجه النقد فيها .

تاريخ تدوين هـذا الإنجيل وسـبب تدوينه :

٤٣ — ولقد اختلف المسيحيون فى تاريخ تدوين هذا الانجيل أختلافا بينا . فالدكتور بوست يرجح انه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦ ، ويقول هورن فى تاريخ تدوين ذلك الانجيل : ألف الانجيـل الرابع سنة ٦٨

او سنة ٦٩ اوسنة ٧٠ اوسنة ٨٩ اوسنة ٩٨ من الميلاد » اذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الانجيل ، كما انه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه ، وقد علمت ما فى ذلك .

ولقد قالوا انه كتب لغرض خاص . وهو ان بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس الها ، وان كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة ، فطلب الى يوحنا ان يكتب انجيلا يتضمن بيان هذه الألوهية، فكتب هـذا الانجيل ، وقد قاله جرجس زوين اللبنـانى فيما ترجمه : « ان شيرينطوس وأبيسون وجماعتهما لماكانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس الا انسانا . وانه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك فى سنة ٩٦ اجتمع عموم اساقفة آســيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادي بانجيل مما لم يكتبه الانجيليون الآخرون ، وان يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح » قال يوسف الدبس الخورى فى مقدمة تفسيره : (من تحلة الجبل) أن يوحنا صنف إنجيله فى آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها ، والسبب إنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح، فطلبوا منه اثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ، ولوقا فى إناجيلهم ، وقال صاحب مرشد الطالبين : انه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التى فيها كتب يوحنا انجيله ، فان بعضهم يزعم إنه كتبه فى سنة ٦٥ قبل خــراب أورشليم ، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الاقدمين يرون بكتابته فى سنة ٩٨، وذلك بعد رجوعه من المنفى ، فالمقصد بكتابته ابقاء بعض مسامرات المسـيح الضرورية ذات التروى مما لم يذكره باقى الانجيليين. وافناء لبعض هرطقات مفسدة ، أشهرها معلمون كذبة فى شأن ناسوت المسيح وموته ، وخاصة ترسيخ النصارى الاوائل فى الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم ، وقد قيل أن يوحنا لم يؤلف انجيله الا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل ان يوحيه الروح القدس بذلك » .

ما يستنبط من ســبب كتابته :

٣٥ — من هذه النقول يستفاد ان كتاب النصارى يجمعون اويكادون على أن الانجيل المنسوب الى يوحنا كتب لاثبات الوهية المسيح التى اختلفوا فى شأنها ، لعدم وجود نص فى الاناجيل الثلاثة يعينها . وهنا لايسع القارىء لتلك النقول الا أن يستنبط امرين : (احدهما) صريح وهو أن الانجيل

الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على الوهية المسيح ، أوهى كانت كذلك قبل تدوين الانجيل الرابع على الاقل ، وهذه حقيقة يجب تسجيلها ، وهى أن النصارى مكثت اناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على الوهية المسيح ، (وثانيهما) ان الاساقفة اعتنقوا الوهية المسيح قبل وجود الانجيل الذى يدل عليها ، ويصرح بها ، ولما ارادوا أن يحتجوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم فى زعمهم لم يجدوا مناصا من ان يلتمسوا دليلا ناطقا يثبت ذلك ، فاتجهوا الى يوحنا ، فكتب كما يقولون انجيله الذى يشتمل على الحجة ، وبرهان القضية ، والبينة فيها على زعمهم ، وهـــذا ينبىء عن ان الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجـــود نص فى الكتب عليه ، والا مااضطروا اضطرارا الى انجيل جديد طلبوه افتقدوه ، فلما لم يجدوا طلبوا من يوحنا ان يكتبه . ولكن الواقع ان رسائل الرســـل التى كتبت فى قولهم قبل هذا الانجيل ، فيها ما ينبىء عن الوهية المسيح ، ويعلنها ، فلم تكن فيها حجة لا تجعلهم فى حاجة ماسة الى انجيل جديد ، وفيها غناء من البيان يغنيهم عن سواه أم لعل تلك الرسائل المشتملة على هذه الالوهية كتبت بعد هذا الانجيل ليؤيدوه بها ، وليثبت ما اتى به ، ويرسخ فى نفوس المسيحيين ، ثم نسبت الى السابقين .

هذا تنبيه مجمل اضطرنا سياق البحث لبيانه قبل أوانه ، وفى غير مكانه ، وله فى البحث موضع ، يغنى فيه الاجمال عن التفصيل .

هـــذه الاناجيـــل لم تنزل على عيسى عليه الســـلام :

٣٦ — هذه هى الأناجيل التى ذكرناها كما كتب النصارى ، لا كما يعتقد غيرهم ، وسنلقى عليها نظرة علمية بعد الكلام فى بقية الكتب ، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه الى ان هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام فى نظرهم ، وليست منسوبة له . ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمى اليهم ، وهى تشتمل على أخبار المسيح وقصصه ، ومحاوراته ، وخطبه ، وابتدائه ونهايته فى الدنيا كما يعتقدون هم .

انجيـــل عيسى :

ولكن هل هناك انجيل غيرها يعد انجيل عيسى ؟ وهل فى كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الانجيل ، وان كنا لا نجده ؟!

نجد فى هذه الاناجيل عبارات تذكر كلمة انجيل أو بشارة (وهى ترجمة لكلمة انجيل باليونانية) مضافة احيانا الى المسيح على انه ابن الله، واحيانا الى الله ، واحيانا الى ملكوت الله ، فنرى مثلا فى انجيل متى فى الاصحاح الرابع منه ما نصه : « وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفى كل مرض ، وكل ضعف فى الشعب » ، وبشارة الملكوت هى ترجمة كلمة انجيل باليونانية ، ونرى فى انجيل مرقس فى الاصحاح الأول منه : « وبعد ما اسلم يوحنا جاء يسوع الى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالانجيل » وجاء فى رسالة بولس الى اهل رومية فى الاصحاح الاول منها : « اولا اشكر الهى يسوع المسيح من جهة جميعكم ، ان ايمانكم ينادى به فى كل العالم، فان الله الذى اعبده بروحى فى انجيل ابنه شاهد لى كيف بلا انقطاع اذكركم ... » ويجىء فى رسالته الاولى الى اهل كورنثوس فى اصحاحها التاسع : « بصرت الضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شىء لاخلص على كل حال قوما ، وهذا انا افعله لاجل الانجيل ، لأكون شريكا فيه » ففى هذا كله نجد كلمة انجيل اوكلمة بشارة (وهى ترجمة كلمة انجيل باليونانية) مضافة الى ملكوت الله ، كما فى انجيل متى ومرقس، وانجيل الابن كما فى رسالة بولس الى اهل رومية ، وكلمة الانجيل من غير اضافة كما فى انجيل مرقس ، ورسالة بولس الى اهل كورنثوس الأولى ، ولا شك ان الانجيل المذكور فى كل هذا ليس واحدا من هذه الأناجيل لانها لا تضاف الا الى أصحابها باتفاق النصارى ، ولأن المسيح قد وعظ بهذا الانجيل ، كما جاء فى عبارة متى التى نقلناها ، ولم يكن واحد من هذه الاناجيل قد وجد فى عهده بالاتفاق ، وليس من المعقول أن يعظ بأقواله تلاميذه ، وهم بعد لا يزالون فى دور التعلم ، ولأن هذا الانجيل قد ذكر فى هذه الأناجيل على انه كان قائما فى عهد عيسى ، ولانه ذكر من غير نسبة كما فى انجيل مرقس ورسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس، وليس واحد من هذه الاربعة تنصرف اليه كلمة انجيل من غير نسبته الى صاحبه ، ولانه ذكر فى رسالة بولس الى اهل رومية منسوبا الى المسيح الابن . وليس واحد من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم . لهذا كله نقول : ليس هذا الانجيل واحدا منها كما تقضى بذلك طبيعة السياق ، وكما يقضى بذلك

العقل ، واذا كان الأمر كذلك ، فهل لنا أن نفهم أن هناك انجيلا أصيلا نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ . ويعتبر الأصل لهذه الديانة؟

أقوال علمـــاء النصرانية فى انجيـل عيسى :

ولقد يمهد لذلك الرأى ، ويرشحه — اننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الاحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم الا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بانه كانت فى القرن الاول رسالة تعتبر اصـــلا لهذه الاناجيل فيما جاء به المسيح ، وخلاصة احواله ، وهـــذا ترجمة ما قاله نارتن فى كتاب له : « قال اكهارن فى كتابه : انه كان فى ابتداء الملة المسيحية فى بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال انها هى الانجيل الاصلى ، والغالب أن هذا الانجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم، ولم يروا احواله باعينهم . وكان هذا الانجيل بمنزلة القلب ، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب » .

إذن فهؤلاء الاحرار يقررون انه كان هناك انجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب ، ولكنه غير موجود ، فهـــل لنا ان نقول أن ذلك الانجيـــل هو المشار اليه فى أقوال متى ، ومرقس ، وبولس السابقة ، وهو الذى نزل على عيسى ، أهو انجيله وانجيل الله ؟ ليت ، وهل ينفع شيئا ليت ، ليت هذا الانجيل كان قائما ، وحرصت الكنيسة على بقائه . وقامت بحياطته، ليكون فيصلا بين المختلفين ، وحكما بين الفرق والمفترقين، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التى حكمت حين الانشقاق، وليكون مصدرا علميا لمن يكتب فى المسيحية الأولى . ويتبعها فى مدارجها فى أحقـــاب الزمن ، وملابســـات التـــاريخ .

انجيـــل برنابا :

٣٧ — لقد كتبنا خلاصة ما بينه المسيحيون فى اناجيلهم الأربعـــة ، واستنبطنا من نصوصها ما يدل على وجود انجيل أصيل ، هى منه الفرع من الأصل ، على أن فى ذلك كلاما قد طـــويناه إلى موضعه من القول ، وقد ايدنا فى استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين ، واستنبطوا قرينـــا مما استنبطنا ، وقبل أن نغادر الكلام فى الأناجيل الى الكلام فى الرسائل يجدر بنا أن نتكلم فى انجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمى ، وقد حمل

من الامارات ما يدل على أنه فى نشأته يمتد الى أبعد أعماق التاريخ المسيحى، وأبعد أغواره ، وهو يشبه الاناجيل القائمة فى أنه قصة المسيح من ولادته الى اتهامه . ويحكى محاوراته ، ومناقشاته وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به وأنكرته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الامم الاوربيـــة ، وقد اتجهوا اليه بالبحث والعناية ، والاهتمام ، ولم يمنعهم من ذلك انكار الكنيسة له . ذلك الانجيل هو انجيل برنابا ، ومن الحق علينا أن ندرسه، ونعرف رأى المسيحيين فيه، ومايؤدى اليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولا تهجم، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من املاء عقيدة على القوم فى دينهم .

بـــــرنابا :

٣٨ — جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى ينسب تدوينها إلى لوقا . فقد جاء فى الاصحاح الرابع من تلك الرسالة : « ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ : وهو لاوى قبرصى الجنس، اذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ، ووضعها عند أرجل الرسل » ، وجاء فى الاصحاح التاسع عند الكلام عن ايمان شاول — وهذا هو الذى اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول — ان برنابا هو الذى شـــهد له بالايمان ، وهو نص ما جاء فيه : « ولما جاء شـــاول الى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ . وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره الى الرسل . وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق . وانه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع » ولقد ذكر ذلك السفر أيضا انه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية ، وفى الاصحاح الحادى عشر : « فسمع الخبر عنهم فى آذن الكنيسة التى فى أورشليم . فأرسلوا برنابا لكى يجتاز الى أنطاكية ، الذى لما أتى ، ورأى نعمة الله فرح ووعظ أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب . لانه كان رجلا صالحا ، وممتلئا من الروح القدس والايمان، فانضم الى الرب جمع غفير ثم خرج برنابا الى طرسوس ليطلب شاول ، ولما وجده جاء به الى أنطاكية ... » ، ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطـــاب هو وبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمـــين ، فقد جاء فى الاصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال : « وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون : برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ،

ولوكيوس القـــيروانى ، ومنابن الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع ، وشـــاول :

وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه ، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى ثم اطلقوهما ، فهذان ، اذ ارسلا من الروح القدس إنحدرا الى سلوكية، ومن هناك سافرا فى البحر الى قبرص. ولما سارا فى سلاميس ناديا بكلمة الله فى مجامع اليهود . وكان معهما يوحنا خادما » وقد استمر برنابا وبولس مصاحبين فى التبشير بالديانة المسيحية فى قبرص . وحدثت على أيديهما المعجزات ، حتى زعم الناس انهما الهان . وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما : فلما ســـمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما ، واندفعا الى الجمع صارخين وقائلين . « أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم.. نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل الى الاله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم ، مع انه لم يترك نفسه بلا شاهد » .

ومن هذا كله يتبين ان رسالة الاعمال تشهد أن برنابا كان من الرسل فى اعتقادهم ، الذين اخلصوا للدعوة الى المسيحية ، حتى باع كل مايملك ؟ والقى بثمنه بين أيدى الرسل يتصرفون به فى سبيل نشر الدعوة ، وينفقونه فى حاجات الجميع . وانه هو الذى شهد لبولس بالايمان ؛ وان الكنيسة ارسلتهما مبشرين بالمسيحية فى قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده الى انطاكية ، وان برنابا كان رجلا صالحا ممتلئا من الروح ، وان الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون .

وينص بولس فى رسالته الى اهل كولوسى فى اصـــحاحها الرابع على أن مرقس صاحب الإنجيل ابن أخت برنابا ، فيقول : « يسلم عليكم ارسترخس المأسور معى ، ومرقس ابن اخت برنابا الذى اخـــذتم لأجله ان آتى اليكم فاقبلوه » .

ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس فى ســـفرهما للدعاية والوعظ . ولقد افترقا بسبب ارادة برنابا ان يصحبهما ابن أخته فى الطوائف فى المدن التى سبقت اليها الدعاية ، ومخالفة بولس لذلك ، ولذلك جاء

فى رسالة الأعمال فى اصحاحها الخامس عشر ما نصه : « ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا : لنرجع ونعتقد اخواننا فى كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب، كيف هم ؟ فأشار برنابا أن يأخذ معهما ايضا يوحنا الذى يدعى مرقس ، وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية ، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما ، فحصل بينهما مشاجرة ، حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر الى قبرص، وأما بولس فاختار سيلا ، وخرج مستودعا من الاخوة الى نعمة الله » .

ولقد اشرنا الى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الانجيل عند الكلام فى انجيل مرقس ، ونقلنا من كتب المسيحيين ما يدل على أن مرقس هذا ، وهو حجة عندهم باتفاق ، كان ينكر الوهية المسيح ، هو وأستاذه بطرس، وقد نقلنا عن مروج الأخبار فى تراجم الابرار ما يدل على ذلك .

هل برنابا من الحـــواريين الاثنى عشر :

٣٩ — هذا هو برنابا . قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد انجيل باسمه يدل على انه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى اليه ، والتقرب منه ، وملازمته فى سرائه وضرائه، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الانجيل لاتعده من هؤلاء الحواريين وانكانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح، ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم ، فان برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملهمين فى اعتقادهم، فان صحت نسبة هذا الانجيل اليه كان مايشمله حجة عليهم ، يدعوهم الى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وماجاء فى غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب الى التصور والتصديق ، وأصح سندا ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحما .

فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

اتفق المؤرخون على ان اقدم نسخة عثروا عليها لهذا الانجيل، نسخة مكتوبة باللغة الايطالية ، عثر عليها كريمر احد مستشارى ملك بروسيا ، وذلك فى سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار

فى سنة ١٧٣٨ الى البلاط الملكى بفيينا . وكانت تلك النسخة هى الاصل لكل نسخ هذا الانجيل فى اللغات التى ترجم اليها .

ولكن فى اوائل القرن الثامن عشر، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الايطالية وجدت نسخة اسبانية ترجمها المستشرق سايل الى اللغة الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها الا شذرات أشار اليها الدكتور هوايت فى احدى الخطب، وتدقيل أن الذى ترجم النسخة الاسبانية الى تلك اللغة مسلم نقلها من الايطالية الى الأسبانية .

ولقد رجح المحققون أن النسخة الايطالية هى الأصل للنسخة الاسبانية ، وذلك إنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الايطالية التى كانت اصلا للنسخة الاسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وانه يقص قصصها ، فيقول : « انه عثر على رسائل لايريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول . ويسند تنديده الى انجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن انجيل برنابا . وقد وصل إلى مبتغاه لما صار احد المقربين الى البابا سكتس الخامس. فانه عثر على ذلك الانجيل فى مكتبة هذا البابا ، فأخفاه بين أردانه ، وطالعه ، فاعتنق الاسلام » ويظهر ان تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ .

ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم الانجيل الى العربية: «اذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر . وقد علمت مما مر بك بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه انما هو ورق ايطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ؛ والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الايطالية والتاريخ الذى يحدسه العلماء « من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر ، والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الايطالية هى عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على ما مرت الاشارة اليه » .

الكلام فى صحة تسمية هذا الانجيل :

٤٠ — اقدم نسخة معروفة أذن هى النسخة الايطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد الى منتصف القرن

الخامس عشر او اول القرن السادس عشر ، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم .

فاول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير . وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الايدى انتقلت الى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت الى البلاط الملكى بفيينا فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولميعرف بهذا الاسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود انجيل له امرا معروفا بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول انه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهدا على استنكاره بانجيل برنابا .

ويذكر التاريخ ان هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة — كما أشرنا من قبل ، ويقول الدكتور سعادة : « يذكر التاريخ أمرا أصدره البابا جلاسيوس الاول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميـــلادية يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها، وفى عدادها كتاب يسمى انجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين الى أن امر البابا جلاسيوس المنوه عنه انما هو برمته تزوير » .

ولكن التاريخ اصح واصـــدق من قول هؤلاء العلماء ، وان كانوا محققين ، فاقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة اناجيل كثيرة . فاذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة اسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلاف ، واذا صح ذلك الامر — كما يشـــهد التاريخ ، وكما تنبىء عنه المقدمات والنتائج ، فان انجيل برنابا كان معروفا متداولا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم باكثر من قرنين .

وزعم الدكتور سعادة بانه لو كان معروفا فى ذلك الابان لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به ، او اخـــذ منه — زعم باطل — لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان اميا لايقرأ ولايكتب ، ولم يقم فى البلاد التى سادتها المسيحية آمادا تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج اثره، فيخفى ماكان ذائعا ، ويدفن ما كان معلوما مشهورا فمائتان من الســـنين تكفى لطمس الموجود ، وتعفية آثار المفقـــــود .

وان المسيحيين يجدون فيما إشتمل عليه ذلك الانجيل اخبارا دقيقة من التوراة حتى لقد يقول الدكتور سعادة : « انك اذا اعملت النظر فى هذا الانجيل وجدت لكاتبه الماما عجيبا باسفار العهد القديم لاتكاد تجد لها مثيلا بين طوائف النصـــارى الا فى افراد قليلين من الأخصائيين الذين جعــلوا حياتهم وقفا على الدين ، كالمفسرين ، حتى انه ليندر أن يكون بين هؤلاء ايضا من له المام بالتوراة يقرب من المام كاتب انجيل برنابا » .

ترجيح صــــدق النســبة فى هــذا الانجيــل :

٤ — هذه بينــات شاهدة — وان لم تبلغ اليقين والجـــزم — بأن نسبة هذا الانجيل الى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة، لانه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص ، وكان معروفا قبل ذلك بقرون أن لبرنابا انجيلا، وهو يدل على ان كاتبه على المام تام بالتوراة التى لايعرفها الرجل المسيحى غير الاختصاصى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من المختصين ، وان برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل، فلابد أن تكون له رســــالة أو انجيــــل .

هذه بينات تشهد بأن الانجيل الذى كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئا يظن فى حملة اتهاما له . فيسند ملكيته الى غيره نفيا للتهمة عن نفسه . فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاما له ؟ وهل يقــر القضـــــاء ذلك النفى ؟ .

قد يقول قائل : ان هذه البينات كلها مرجحة وليست يقينية ، ونحن نقول ان اكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة ، فاذا كانت نسبة انجيل برنابا اليهظنية تقبل الاحتمال فانا نأخذ بذلك الظن، لانه المأخذ فى اكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذى لا ينشأ عن دليل لا يلتفت اليه ، بجوار الاحتمال الناشىء عن دليل ، ووجود ذلك الانجيل بلغــــة مسيحية وبين ظهرانى المسيحيين ، وفى مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه، ولذلك رجح جمهور المحققين انه ليس لهم يد فى انشائه.

ولكن زعم بعضهم ان اصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ، ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن اصله عربى بدليل انه وجد على النسخة الايطالية تعليقات عربية، وانه صرح فى التبشير باسم النبى، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الاول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها لانه مستقيم التعبير احيانا قليلة ، وسقيم العبارة فى احيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الاسلامى ، ولا يتخذ من صلبه الايطالى دليلا على أصله المسيحى .

اما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحا فيه وليس بتلميح فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح ، ولكن معنى ذلك نفى الصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح ، فالنص الايطالى الذى بين ايدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه فى لغته التلميح، فنطق بالتصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى .

ومن المؤكد ان ذلك الانجيل لم يكن معروفا عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور، ولم يعرف ان احدا احتج على مناظره المسيحى بهذا الانجيل . مع أنه فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم على المسيحى . فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الايطالية ، فوق انها لا دليل عليها مطلقا ، ولو بطريق الوهم هى تناقض اخبار التاريخ الاسلامى مناقضة تامة ، والا احتج المجادل عن الاسلام بها . ففيها اقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستنبطوها . وليعرفوا دخائلها ، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

قيمة انجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه :

٤٢ — وانجيل برنابا هــذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة ، والدقة البارعة ، والعبارة المحكمة ، والتناسق والتسجم، حتى انه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى ، لسمو العبارة وبراعة التصوير .

ولماذا انكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى كتبهم الاربعة كما ذكرنا ، أن لم تكن أقوى؟ الجواب عن ذلك ان المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة .

ولقد كنا نظن ان ظهور ذلك الانجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين ، لتعرف أى الكتب اقرب نسبا بالمسيحية الأولى، أذلك الانجيل بما خالف ، أم الرســـائل والأناجيل التى توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا الى الرفض والانكار . كما سبق أسلافهم الى انكاره من قبل .

مخالفة انجيل برنابا لما عليه المسيحيون :

والأمور التى خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى اربعة أمور :

اولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره ألها ، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : « أيها الاعزاء ان الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الايام بنبيه يسوع المسيح برحمـــة عظيمة للتعليم ، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شـــديد الكفر . داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم ايضا بولس الذى لا اتكلم عنه الا مع الأسى وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته » .

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن أن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله ، فاضطررت بسبب الشعب الى أن آتى الى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجو من كل قلبنا أن ترضى بازالة الفتنة التى ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول انك الله . وآخر يقول انك ابن الله ، ويقول فريق أنك نبى . اجابه

يسوع :. « وأنت يا رئيس الكهنة . لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جننت انت ايضا ، وهل امست النبوات ، وشريعة الله نسيا منسيا ، ايتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان » ولما قال يسوع هذا عاد فقال : « انى اشهد امام السماء ، واشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امراة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام » .

ويقول فى الفصل السبعين : « أجاب يسوع : وما قولكم انتم فى ؟ اجاب بطرس : انك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان ، وتريد أن تسىء الى » .

(الأمر الثانى) : أن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو اسماعيل ، وليس باسحق ، كما هو مذكور فى التوراة ، وكما يعتقد المسيحيون . هذا نص ماجاء فى انجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق اقول لكم انكم اذا امعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلموا خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : « يا ابراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله . حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . اجاب ابراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله ، فكلم الله حينئذ ابراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » . فكيف يكون اسحق البكر ، وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين .

(الأمر الثالث) : هو كما يقول الدكتور سعادة « بك » : أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد . وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول ، وقال أنه رسول الله ، وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور « **لا اله الا الله محمد رسول الله** » ولقد قال المسيح كما جاء فى انجيل برنابا : « ان الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر انى اتكلم بما يريد الله ، ولست احسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى لست أهلا لأن احل رباطات ، أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى . وسيأتى بعدى بكلام الحق . ولا يكون لدينه نهاية » وانك لتجد فى الفصلين الثالث

والأربعين والرابع والأربعين كلاما وافيا فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام ان يصرح لهم به . فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ما له من شأن .

(الأمر الرابع) : ان هذا الانجيل يبين ان المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم . فالقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطى ، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق اقول ان صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة انه يسوع ، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا ، وانما الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال انه لا يموت الى وشك انقضاء العالم ، لانه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » .

ثم يبين ان يسوع طلب الى الله ان ينزل الى الأرض بعد رفعه ليرى امه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة ايام .

ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا انه مات » وتكلم قائلا : « اتحسبوننى انا والله كاذبون ، لأن الله وهبنى أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، الحق اقول لكم انى لم أمت ، بل يهوذا الخائن ، احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده ان يخدعكم ، ولكن كونوا شهودى فى كل اسرائيل ، وفى العالم كله ، لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

٤٣ — هذا هو انجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفى الحق انه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها فان تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح والوهيته ، وكان هذا شعارها الذى بها تعرف ، وعلامتها التى بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ، واذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة — وهو ينسب الى قديس من قديسيهم — فقد كان من الحق اذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحيين وفى مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقارا — رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، ما دام قد اتى بما لا يعرفونه هم ،

ولا يعنون انفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها الى نقضه جملة ، أو قبوله جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل ان فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند اقوى من سنده ، ومتنهـــا اقرب الى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دابهم التنقيب والبحث عكفوا على دراســـته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والاناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وانتهت دراســـة جلهم بانه بعيـــد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ،و مما هو مشهور عند المسلمين .

وان اجل خدمة تسدى الى الأديان والانسانية ، ان تعنى الكنيسة بدراسته ، ونقضه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء فى رسائل بولس ، ليعرف القارىء والباحث ايهما أهدى سبيلا ، واقرب الى الحق ، واوثق به اتصالا .

رسـائل رسـلهم

٤٤ ـــ انتهينا فى كلامنا السابق الى ذكر الأناجيل وعرضها ، كما يقول المسيحيون ، وكنا فى ذلك ناقلين ، ولم نعن فى ذلك بالنقـد ، فان لذلك موضعه .

والآن ننتقل الى القسم الثالث من مصادر المسيحية ، وهو رسائل رسلهم ، ويسموئها ـ ما عدا رسالة أعمال الرسل ـــ الأسفار التعليمية ، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسـفار التاريخية ، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله ، وبعض أقواله ومواعظـه ، أما الرسائل فانها تعنى بالناحيـة التعليمية التى تبين بها الديانة . .

عدد الرسائل وكاتبوها :

والرسائل اثنتان وعشرون رسالة : الأولى ، وتسمى أعمال الرسل ، وتنسب الى لوقا صاحب الأنجيل ، وأربع عشرة كتبها بولس ، وهى رسالة أهل رومية وكورنثوس الأولى والثانية ، وغلاطية ، وافسس ، وفيليبى ، وكولوسى ، وتسالونيكى الأولى والثانية ، وتيموثاوس الأولى وتيموثاوس الثانية ، وتيطس ، وفيلمون والعبرانيين ، ورسالة كتبها يعقـوب ، ورسالتان كتبهما بطرس ، وثلاث رسائل كتبها يوحنا ، ورسالة كتبهـا يهـوذا .

وهناك غير الاثنتين والعشرين رسالة أخرى يسمونها السفر النبوى وهى رؤيا يوحنا ، وهـذه الرسالة فى منحاها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة ، فبينما الرسائل السابقة وعظية وتعليمية فى جملتها ، وتتعرض كثيرا لذكر بنوة المسيح ، وتخليصه للعـالم من خطيئته ، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتى ، تعنى ببيان الوهية المسيح وسلطانه فى السماء وعلمه بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده ، وهى تارة تصور الاله فى عليائه كشيخ أشيب يشبه المسيح متمنطقا عند ثدييه بمنطقة من ذهب ،

وعيناه كلهب نار ، وفى يده سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فيه ، (راجع الاصحاح الأول من الرؤيا) .

وتارة تصور المسيح خروفا قائما كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين ، (راجع الاصحاح الخامس) .

وتبين أن الناس يعرضون أمام الاله والمسيح « ويخرون ساجدين ، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا ... » .

فهى رسالة تشرح سلطان المسيح فى الملكوت وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح ولله .

٤٥ — وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل، وقد كتبت جميعها باليونانية ، كما يقول مؤرخوهم ، وللباحثين كلام كثير فى شأن الرسائل ، وقوة سندها ، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين، ولكنا نرجىء القول فى ذلك الى الكلام فى نقد مصادر المسيحية نقدا علميا ، ونكتفى الآن بعرضها وذكرها ، محوطة بهالة من تقديسهم ، ومكلوءة بتقديرهم .

وقد ذكرنا موجزا لتاريخ يوحنا ، وعرفنا القارىء به ، وهو صاحب الرؤيا ، وثلاث رسائل ، وبينا لوقا ، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل ، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القارىء ببطرس صاحب الرسالتين ، ويعقوب ويهوذا ، ولكل رسالة ، وبولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

فبطرس من حواريى المسيح ، وكان اسمه الأصلى سمعان ، وكان صياد سمك وقد جال بعد المسيح للتبشير ، فذهب الى انطاكية وغيرها ، ثم ذهب الى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج فى السجن ، وحكم عليه بالموت صلبا فى زمن نيرون على ما نوهنا . وقد طلب أن يصلبوه منكسا حتى لا يتشبه بالمسيح .

وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار يخبر ان بطرس وتلميذه مرقص صاحب الانجيل الذى كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر ألوهية المسيح .

ترجمة يعقوب صاحب الرسالة :

٤٦ — ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدى الصياد ، أخو يوحنا ، وكان حواريا كأخيه ، ويقولون : انه أول أسقف لكرسى أورشليم ، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : « كان لشهرته بالطهارة يعرف بيعقوب البار ؛ وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود ، فحكموا عليه بالموت فى مجمعهم ؛ فمات رجما سنة ٦٢ وكان قد كتب رسالته سنة ٦١ م » .

ترجمة يهوذا :

٤٧ — واما يهوذا ، وهو حوارى ، ويقولون انه يدعى لباوس ، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذى ذكر فى انجيل متى ، ولكن انجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا الاسخريوطى الذى شهد على المسيح وخانه ، وغير تداوس ، ويقولون : انه أخو يعقوب الصغير ، وعلى هذا يكون لزبدى الصياد ثلاثة من الحواريين ، ولكن متى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر امامهما انهما ولدا زبدى الصياد ، ولم يذكر أمام تداوس !! وعلى اية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة اليه ، وقد قالوا انه مات شهيدا ببلاد العجم .

ترجمة بولس :

٤٨ — بولس : ولننتقل الآن الى الكلام فى بولس والتعريف به ، وان لبولس هذا لشأنا فى المسيحية ، فهى تنسب اليه أكثر مما تنسب لأحد سواه ، فرسالته هى التى شرحتها ، وقد كان بنشاطه الجم ، وتطوافه فى الأقاليم مشرقا ومغربا ، لا يستقر فى مكان على نية الاقامة فيه ، بل على قصد فى الرحيل الى غيره — أشد دعاتها ، وقد تأثر المسيحيون خطاه ، وتعرفوا أخباره واقواله ، ما دونه منها فى رسائله ، وما القاه فى الجموع وتناقلوه ، وان لم يدونه هو وتأثروا اعماله فاحتذوا حذوه ، وسلكوا مسلكه ، واعتبروه القدوة الأولى ، فلا بد اذن من العناية بتاريخه لنتعرف أكانت منزلته فى المسيحية الأولى كمنزلته فى المسيحية الحاضرة ، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما ، وناقل الأولى الى أهل الثانية ، ولنتبين انه صادق النقل ، حتى تكون الأولى والثانية شيئا واحدا ، وليستا شيئين مختلفين .

وانا فى حكاية بدايته ونهايته نعتمد على المصادر المسيحية وحدها ، كسنتنا فيما أسلفنا من القول ، حتى لانتزيد عليهم ، ولكى نعرض الرجل كما هو عندهم .

فى سـفر اعمال الرسل تفصيل لحيـاة بولس ، وقد اخذت اعماله من ذلك السفر الشطر الاكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان فى طرسوس ، وتربى فى أورشليم ، واسمه الأصلى شاول . وهذا نص الفقرة الثالثة من الاصحاح الثانى والعشرين حكاية عنـه : « انا رجـل يهودى ولدت فى طرسوس كيليكة ، ولكن ربيت فى هذه المدينة » (أورشليم) .

ولقد جاء انه من الفريسيين الذين يقولون أن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح فى الدنيا ، فقـد جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين : « ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون ، والآخرون فريسيون » صرح فى المجمع : « أيها الرجال الاخوة ، أنا فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات . انا احاكم » .

ونجد كتاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود، ولكن جاء فى سفر اعمال الرسل ايضا ما يدل على أنه رومانى ، ففى آخر الاصحاح الثانى والعشرين منه مانصه: « فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف : ايجوز لكم أن تجلدوا انسانا رومانيا غير مقضى عليه ، فاذ سمع قائد المائة ذهب الى الامير واخبره قائلا: انظر ما انت مزمع أن تفعل ، لان هذا الرجل رومانى . فجاء وقال له : قل لى انت رومانى ؟ فقال نعم. فاجاب الأمير : اما انا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية ، فقال بولس : اما انا فقد ولدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه ، واختشى الأمير لما علم انه رومانى ، لانه قيده » .

وهذان بلا ريب نصان متعارضان ، لعل أرجحهما انه يهـودى ، لانه ذكر أنه رومانى عندما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط. فاعمل الحيلة عساه يجد مخرجا ، فادعى أنه رومانى لينجو جلده ، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التى احتالها فى انتسابه ، واصر عليها عندما روجع فيها .

ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلا على كذب ادعائه الرومانية،

وانه قالها خلاصا واجتيالا لورد مثل ذلك عندما قال انه يهودى ، لأنه كان يخاطب جمعا يهوديا عمل للقبض عليه .

ولقــد صرح فى ســفر الأعمــال انه قال انه فريسى ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين ، فقد جاء فيه عند ذكر اقراره بانه فريسى. ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون ، الخ . فهو ما صرح بهذا التصريح الا ليوقع الفرقة بينهم ، وينجو من كيدهم بتدبير فــــريق منهم .

وقد تم له بعض ما أراد، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد كما دلت على ذلك الفقرات التى ذكرت من بعد فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الاعمال ، واذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمئن اليـــه النفس .

٤٩ — ومهما يكن من أمر جنسه ، فقد كان بولس هذا فى صدر حياته من اشد أعداء المسيحية ، وأبلغهم كيدا لها ، وأكثرهم امعانا فى أذى معتنقيها ، كما يدل على ذلك ماجاء فى سفر الأعمال فى مواضع كثيرة منه.

ففى الاصحاح الثامن منه : « وحدث فى ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم ، فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل ، وحمل رجال اتقياء استفانوس ، وعملوا عليه مناحـــة عظيمة ، وأما شــاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخــل البيوت ، ويجر رجالا ونساء ، ويسلمهم الى السجن » .

وجاء فى أول الاصحاح التاسع : « أما شاول فكان لميزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم الى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل الى دمشق الى الجماعات حتى اذا وجد اناسا فى الطريق رجالا أو نســـاء يسوقهم موثقين الى أورشـــليم » .

ويجىء فى ذلك السفر أيضا اعترافه الصريح بذلك الماضى فى مواضع متعـــددة أيضـــا .

فمنها ما جاء فى الاصحاح الثانى والعشرين مخاطبا اليهود : « كنت

غيورا لله ، كما أنتم جميعكم اليوم ، واضطهدت هذا الطريق ، حتى الموت ، مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء ، كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين اذا أخذت منهم رسائل للاخوة الى دمشق ، ذهبت لآتى بالذين هناك الى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا » .

ولكن سفر الأعمال يقول أن ذلك الرجل الذى كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك الايذاء ، قد انتقل من الجبت والطاغوت الى المسيحية فجاة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال ، ولا تمهيدات مهدت له .

فيقول فى الاصحاح التاسع : « وفى ذهابه حدث انه اقترب الى دمشق ، فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض ، وسمع صوتا قائلا له : شاول . شاول . لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من انت يا سيدى ؟ فقال : أنا يسوع الذى أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس مناخس ، فقال وهو مرتعد متحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل » .

دخل بولس او شاول فى المسيحية ، وحاول ان يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة ، ولم يصدقوا ايمانه ، ولكن شهد له برنابا الذى حدثناك عنه بالايمان ، وما حدث له فى الطريق .

فقد جاء فى الاصحاح التاسع أيضا من السفر المذكور : « ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين ، فأخذه برنابا ، وأحضره الى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب ، وأنه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع » .

ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة ، والحركة الدائبة فى الدعاية للمسيحية ، كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال ، وقد اصطحب فى رحلاته برنابا ، حتى اختلفا كما ذكرنا فى الكلام على برنابا — فلما اختلفا افترقا ، وهناك نجد حلقة مفقودة ، فلم يبين لنا سفر الاعمال على من تلقى مبادىء المسيحية التى أخذ يبشر بها ، والتى دونها فى رسائله الأربع عشرة ، والتى يضيف اليها بعض الكتاب سفر الأعمال ، وينسبه اليه بدل نسبته الى لوقا ؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادىء

المسيحية ؟ ولعلهم يعتقدون انه ليس فى حاجة الى التلقى ، لانه انتقـــل من مرتبة الكافر المناوىء الى مرتبة الرسل فى المسيحية ، وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم ، فلم يكن فى حاجة الى التعلم والدراسة ، لأن الوحى كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس فى التطواف فى الأقاليم ينشىء الكنائس، ويقوم بالدعاية ويلقى الخطب ، وينشىء الرسائل ، حتى كانت رسائله هى الرســـائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادىء فى الاعتقاد، وبعض الشرائع العملية، وقد قالوا انه قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف فى ذلك .

صـــــفات بولس :

٥٠ — ان الذى يستخلص من أحـــوال واقوال بولس التى دونت فى رسائله واعماله التى ذكرها ســـــفر أعمال الرسل ، يتبين له انه امتاز بثلاث صفات جعلته فى الذروة من الدعاة الى المبادىء والعقائد :

الصفة الأولى : انه كان نشيطا دائم الحركة ذا قوى لاتكل، وذا نفس لا تمـــل .

الصفة الثانية : انه كان ألمعيا شديد الذكاء بارع الحيلة، قوى الفكر يدبر الأمور لما يريد بدهاء الألمعى ، وذكاء الأروعى ، يسدد السهام لغاياته ومآربه فيصـــيبها .

الصفة الثالثة : انه كان شـــديد التأثير فى نفوس الجماهير ، قوى السيطرة على اهوائهم ، قديرا على انتزاع الثقة به ممن يتحدث اليه .

وبهذه الصفات الممتازة ، وبهذه القدرة البارعة استطاع ان يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية ، وقطبهم ، وأن يفـــرض ما ارتآه على المسيحيين ، فيعتنقوه دينا ، ويتخذوا قوله حجة زاعمين انه رسالة أرسل بها ، وبهذه الصفات الباهرة استطاع انيحمل صديقه برنابا على أن يصدقه فى رؤيته المسيح ، واستطاع ان يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ، وقد كان بلاؤهم ، وكيد الشيطان لهم . وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه ، وأن يندغموا فى شخصه حتى يصـــير هو كل شىء ،

وهم لا يستطيعون رد قوله فى الجماهير ، وحتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه، منسوبة اليه، ولقديعجب الذين درسوا الديانات وعرفوا أحوال رجالها ، وادوارهم ، فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة الى اعتقاد شديد بها طفرة ، من غير سابق تمهيد، ولكن ذلك العجب يزول ان كان الانتقال مقصورا على مجرد الانتقال من الكفر الى الايمان ، فان لذلك نظائر وأشباها، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين الى الرسالة فى الدين الذى كفر به ، وناواه وعاداه، فان ذلك ليس له نظير وليس له مشابه ، ولم يعهد ذلك فى أنبياء ورسل قط ، وهذه توراة اليهود واسفار العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون كما رووها ، وكما قالوها ليذكروا لنا رسولا بعث من غير أن يكون فى حياته الأولى استعداد لتلقى الوحى ، وصفاء نفس يجعله أهلا للالهام ؟ ولايجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته ، وانه اذا لم يكن للرسالة ارهاصات قبل تلقيها ، لا يكون على الاقل قبلها ما ينافيها ويناقضها . ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب فى عصره ، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده ، وان يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون اقواله وآراءه وتعاليمه .

بيد ان العقل يخترق بنوره الحجب ، ويزيل بضوئه كل أسداف الظلم ، ولو قاوم فى سبيل ذلك براعة بولس وذكاءه ، ولذا وجد فى العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية حول اقوال بولس منكرين لها مبطلين ، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الاحد: « ان بولس يبجل ويعظم رجلا اسمه عيسى اميت ومات . وحيى فقط ، وان خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد تحمل اسم الرسول المشار اليه ، فلا محل للحيرة اذا قلت ان المؤسس الحقيقى للمسيحية الحاضرة هو بولس ، فان شاول الشاب الطرسوسى من سبط بنيامين . ومن مذهب الفريسيين وتلميذ احد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمانيل ... الذى كان يجتهد فى محو اسم عيسى واتباعه من الارض ، والذى راى عدوه الناصرى فى السماء لامعا داخل الانوار وقت الظهر أمام دمشق . اهتدى وسمى باسم بولس . وهو الذى وضع اساس العيسوية » . والقسم الأعظم من اعمال الرسل يبحث من سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه ،

فهل هو صادق فى النقل عن المسيح ، والاخبار عنه ؟ للاجابة عن هــذا السؤال موضعها عند الكلام فى الالهام الذى نحلوه لرسلهم ، ونقد الكتب نقــدا علميـــا .

كتب العهد القديم والاناجيل والرسائل كتبت بالهام فى إعتقــادهم :

٥١ — الى هنا قد بينا الكتب ، وذكرنا طرفا من حياة منشئيها ، واحوالهم ومقدار الاختلاف فى نسبة الكتب الى اصحابها ، وقبل أن ننتقل الى نقد هذه الكتب نقدا علميا فى متنها واسنادها ، نقول : ان المسيحيين يقولون ان هذه الكتب كلها ، كتبت بالالهام أى بالوحى عن طريق الالهام ، وانها لذلك لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهى حق وصدق ، لانه موحى بها ، وسواء فى ذلك كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، سواء اكانت اناجيل ام رسائل تعليمية أم رســـالة النبوة .

ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الامة القبطية فى شأن الكتاب المقدس : « الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التى كتبها رجال الله القديسون بالهام الروح القدس فى أوقات مختلفة ، وفيها أعلن الله مشيئته ووصــــاياه ، وما قطعه من المواعيد ، وما فرضه من المثوبة ، وما فيه ارشاد للنـــاس وخيرهم وخلاصهم وما اتمه من عمل الفداء ». وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلماؤهم نفهم أن الالهام عندهم ، هو الهـــام فى المضمون الرئيسى . ولذا يقول هورن : « اذا قيل أن الكتب المقدسة أوحى بها من عند الله . لا يراد أن كل الالفاظ والعبارات من الهـــام الله ، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا ، على حسب طبائعهم وعاداتهم وفهومهم واستعمل علم الالهـــام على طريقة استعمال العلوم الرسمية ، ولا يتخيل انهم كانوا يلهمون فى كل أمر يبينونه ، وفى كل حكم كانوا يحكمـــــون به » . . .

اذن لم تكن كل الكتب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيــــان ، ومن حيث التصرف فى التعبير ، ومن حيث كل ما تشتمل عليه من معان ، بل موضع الالهام فقط المعانى الرئيسية أو الرسمية ، وبقية الأفكار والمعانى على حسب الطبائع والافهام والعادات .

نظــــرة فاحصــــة

٥٢ ــ عرضنا على القارىء كلام القوم فى كتبهم ، وحاولنا أن نكون حاكين ولم نعلق عليها ولم ننقدها ، ولم ننبه الى وهنها ، الا اذا كان ذلك التنبيه قد سبق اليه علماؤهم ، والباحثون منهم ، ووجهوا هم النقد اليه ، او كان الأمر من الوضوح بحيث يكون المرور عليه من غير تنبيه الى موضع الضعف يجعل البحث غير متسق ، وبعيدا عن الانسجام الفكرى .

والآن نريد أن ننتقل من النظرة الحاكية المتغاضية الى النظرة الفاحصة الكاشفة ، ولسنا نريد أن نحصى كل أوجه النقد التى وجهت ، فان ذلك يحتاج بيانه الى مجلدات ضخام لكثرتها ، وتعدد نواحيها ، وكثرة دواعيها ، ولكنا نكتفى بايراد بعضها ، ونترك الباقى للاطلاع عليه فى مصــــادره المسيحية وغير المســــيحية :

ما يجب أن يكون فى الكتاب الدينى من صفــــات ليكون حجــة :

لأجل ان يكون الكتاب الدينى حجة ــ يجب الأخذ به على انه شريعة الله ودينه ، ومجموع أوامره ونواهيه ، ومصدر الاعتقاد ، وأساس الملة ــ يجب ان يتوافر فى هذا الكتاب أمور :

احدها : ان يكون الرسول الذى نسب اليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك ، وان يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة ، اى بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين المكذبين ، وأن يشتهر أمر ذلك التحدى وهذا الاعجاز ، ويتوارثه الناس خلفا عن سلف ، ويتواتر بينهم تواترا لايكون للانسان مجال لتكذيبــــه .

ثانيها : الا يكون ذلك الكتاب متناقضا مضطربا يهدم بعضه بعضا ، فلا تتعارض تعليماته ، ولا تتناقض أخباره ، بل يكون كل جزء منه متمما للآخر ومكملا له ، لأن ما يكون عن الله لا يختلف ، ولا يفترق ، ولا يتناقض ، بل ان العقـــلاء فى اقوالهم ، وفى كتبهم ، يتحرون الا يتناقض قولهم ، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : ان يدعى ذلك الرسول أنه أوحى اليه به ، ويدعم ذلك الإدعاء

بالبينات الثابتة ، وهى المعجزات التى بعث بها الرسول ، ودعا الى كتابه على اساسها ، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر، اويثبت بالكتاب نفسه.

رابعها : ان تكون نسبة الكتاب الى الرسول الذى نسب اليه ثابتة بالطريق القطعى ، بان يثبت نسبة الكتاب الى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف ، جيلا بعد جيل من غير أى مظنة للانتحال .

واساس ذلك التواتر أن يروى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، حتى تصل الى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوى عن الجمع الذى سبقه ، والذى سبقه كذلك ، حتى يصل الى الرسول الذى اسند اليه الكتاب ، ونسب اليه ، ونزل به الوحى عليه .

تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى :

٥٣ — ان الكتب فى الدين هى اساسه، فان لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان الى صحتها كاملا ، وتطرق اليها الريب والظن من كل جانب ، وبذلك يتهدم الدين من اساسه ، ويؤتى من قواعده ، ولا يكون شيئا مذكورا فى الأديان ، بل يكون طائفة من اساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس ، وادعوها دينا ، ونسبوها لشخص معترف به ، لتروج عند العامة ، وتدخل فى أوهامهم ، ويعتمدون على الزمان فى تمكينها فى نفوسهم وقلوبهم .

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء اكانت من كتب العهد القديم أم العهد الجديد مستوفية هذه الشروط ، فتكون ملزمة للكافة ؟ .

لا يزعم النصارى ان هذه الكتب كتبها المسيح نفسه ، حتى ننظر فى قوة نسبتها اليه ، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها ، يبشرون الناس بما فيها ، فنبحث ، هل هؤلاء رسل حقا وصدقا قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه ؟ .

لقد قلنا أن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على ايديهم، ويتحدوا الناس ليدفعوهم الى الاذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم .

اننا نبحث فى مراجعهم فلا نجد مرجعا صحيحا قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة ، ودعوا الناس الى الايمان بها ، ومعهم البرهان عليها، والدليل القائم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم قد نجد فى رسالة اعمال الرسل ذكرا لاخبار تلاميذ المسيح ، وان روح القدس تجلى عليهم ، وانهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعــادة ، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلا، ففيها يذكر انعدد الاصحاب بعد المسيح احد عشر ، وهم : بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ، واندراوس ، وفيلبس ، وتوما ، وبرثولماس ، ومتى ، ويعقوب بن حلفى ، وسمعان الغيور، ويهوذا اخو يعقوب ، وان بطرس وقف والقى فيوسط التلاميذ — الذين بلغوا نحو عشرين ومائة — خطبة وانهم امتلئوا جميعا بروح القدس ، وتكلموا بالسنة غير السنتهم .

ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه ، ومات من كــذب عليه ، بعد أن كشف كذبه واختلاسه ، هو وامرأته .

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب اتى بها بولس فى زعمه فى آخر ذلك السفر ايضا .

وكذلك نجد فى انجيل لوقا انه يذكر أن المسيح ارسل سبعين رجــلا ليبشروا باسمه ، وانهم عادوا يقولون له : « حتى الشياطين تخضع لنا باسمك ، فقال لهم : رأيت الشيطان ساقطا مثل البرق من السماء ، وهأنذا اعطيكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب ، وكل قوة العدو ، فلا يضركم شيء ، ولكن لا تفرحوا بهذا لأن الارواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى ان أسماءكم كتبت فى السموات » .

مناقشة ادعــاء الالهـــام فى ســفر الأعمال :

٥٤ — ونريد اننناقش سفر اعمال الرسل وانجيل لوقا فىهذا المقام لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل ، لم يذكر سفر الاعمال اسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس ، نعم انه ذكر اسماء الحواريين الاحد عشر ، وليس منهم من ينسب اليه كتب أو رسائل ، سوى متى وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا .

، وقد علمت بعض ما في نسبة انجيل متى ويوحنا اليهما . وأما بطرس والباقون فلهم رسائل ، ولم يكن معترفا بصحتها هى ورسائل يوحنا الى سنة ٣٦٤ حتى أن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها الى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

واذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة ، ولم يذكر كذلك انجيل لوقا أسماء ، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماؤهم ؟ نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص ، ويوصفون بأنهم رسل ، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة ، أم ليسوا منهم ، ومن المؤكد أن بولس لم يكن في العدد الذى ذكر في الأعمال ، ولا في العدد الذى ذكر في انجيل لوقا .

اذن لا مقنع فيما جاء في سفر الأعمال ، ولا في انجيل لوقا ، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالإسم . ثم من هو مؤلف سفر الأعمال ؟ قالوا انه لوقا صاحب الانجيل . اذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين ، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل انه مصور ، أو هو طبيب مصور . فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه ؟ لم يثبت شىء من ذلك ، وكل ماثبت من صلته برجال المسيحية انه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس ، واذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعاين ، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح ، أو تلاميذ المسيح .

الرسل غير معروفين :

٥٥ — لم تعرف اذن حقيقة هؤلاء الرسل ، ومن هم بسند صحيح ، فضلا عن أن يكون السند قطعيا ، واذا كنا لا نعرف من هم ، فكيف نؤمن لهم بمعجزات ؟ ان المصدر الذى ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذى ذكر الرسل من غير أن يبين من هم ، وهو راو لم يعاين ولم يشاهد . وعلى ذلك يكون الكلام في الالهام ، وانهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه ، والاطمئنان اليه ، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه .

ولكنا لا نكاد ننتهى الى النتيجة حتى نجد من مجادلى القوم ، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه ، صاحب سفر الأعمال ، وصاحب الانجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج الى سند ، لأن كل كلامه من الروح القدس الذى ملأه كما ملأ اخوانه الرسل ، ولكن أين

معجزته التى تثبت الهامه حتى نصدق كل ما جاء فى كتابيه ، ويؤمن مؤمن (يحترم الايمان) بكل ما اشتملا عليه ؟ لم يرد عنــدهم أى شىء يدل على الهام لوقا ، وانه كان من العشرين والمائة الذين القى فيهم بطرس خطبته، وامتلئوا بروح القدس فى زعمه ، ولم يكن من السبعين الذين ارســلهم المسيح (كما ذكر فى انجيله) واخضعوا الأرواح واخبرهم ان اســماءهم كتبت فى السماء .

ولسنا فى ذلك الا مطالبين بأن يثبتوا الهام لوقا ، لنصــدق باخباره عن الرسل وأعمالهم ومن الهامهم ، وامتلائهم بالروح القدس ، واعجازهم. لا يوجد أمامنا أى دليل يثبتون به الهــام لوقا فيما كتب ، حتى كنا نصدقه فى كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس ، وامتلئوا به ، وان كنا لا نعرف اشخاصهم ، ولا شيئا عن أسمائهم وأعمالهم .

بل لقد وجــدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين ، وان انجيله لم يكن الهاميا ، وبالأولى رسالته لم تكن بالهام ، فقد قال من المحدثين ، واطسن فى المجلد الرابع من كتابه الالهام ما ترجمته : « ان عدم كون تحرير لوقا الهاميا يظهر مما كتب فى ديباجة انجيله ونصها :

اذا كان كثيرون قــد اخذوا بتاليف قصة فى الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، وخداما للكلمة ، رايت أنا ايضا اذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن اكتب على التوالى اليك ايها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » .

ويمثل هــذا القول من ان ما كتب لوقا ليس بالهامى قال العلمــاء الاقدمون من المسيحيين ، فيقول ارينوس : « ان الاشياء تعلمها من بلغها الينــا » .

لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهما :

٥٦ — لم يكن اذن لوقا ملهما ، لأنه لا يوجــد دليل يثبت الهامه ، ولأن مقدمة انجيله كمقدمة رسالته تدل على انه لم يكن ملهما ، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون انه لم يكن ملهما فيما كتب ، بل كتب ما تعلم ، ولقن ، لا ما أوحى اليه به والهم .

واذا كانت رسالة الأعمال هى المصدر المثبت لالهام الرسل وامتلائهم

بالروح القدس ، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه ، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح ، ولأن لوقا لم يكن ملهما . وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند الى لوقا ، وفى تلك النسخة كلام سلثبته فى موضعه من بحثنا ان شاء الله .

ليس عندنا اذن دليل نقلى عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا ، ويثبت معهم انهم كتبوا بالإلهام ، حتى يعتبر كلامهم وحيا أوحى به ، ويجب تصديقه وقبوله ، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها ، بل ان راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدعون لأنفسهم انهم رسل ، ولا من تلاميذه العشرين والمائة ، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا .

وقد رأينا بطرس فى رسالتيه يقدمهما بانه رسول يسوع المسيح ، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة من الله . ولا نجد فى عباراتهم ما يدل على انهم كتبوا ما كتبوا بالالهام ، الا رسائل بولس ، فهو الذى يذكر فى رسالته انه يتكلم عن الله ، واحيانا يقول انه يتكلم من نفسه .

واذن فلنا أن نقول ان اصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والالهام الا بولس الذى كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم ، وليس فى كتبها ما يشهد له بالرسالة والالهام ، بله الايمان الا سفر الأعمال، وقد علمت قوة الاستدلال به، والاعتماد عليه فى الاحتجاج والاثبات .

دعوى الالهام ليست محل اجماع المسيحيين :

٥٧ — وفى الحق ان دعوى الهام الرسل فى كل ما كتبوا لم تكن محل اجماع من كتاب المسيحيين فى القديم والحديث ، فطائفة من علماء انجلترا قالوا فى مؤلف كتبوه (١) ان الذين قالوا ان كل قول مندرج فى الكتب المقدسة الهامى لا يقدرون ان يثبتوا دعواهم بسهولة ، ثم قالوا : « ان سألنا احد على سبيل التحقيق اى جزء تعتبرون من العهد الجديد الهاميا ، قلنا المسائل ، والأحكام ، والأخبار بالحوادث الاتية التى هى اصل الملة المسيحية — لا ينفك الالهام عنها . وأما الحالات الأخرى فكان حفظ الحواريين كافيا لبيانها » .

---

(١) اليسائى كلوبيديا برتنيكا .

وترى من هـذا ان بعض العلماء لا يرون ان كل ما فى كتب العهـد الجديد الهامى ، بل منه الالهامى وغير الالهامى .

ولكن هناك من يقول : انه يشك فى أصل الالهام فيها ، فهـذا عالم مسيحى يقال له ريس يقول ناقلا حاكيا بعض اقوال المتقدمين : « ان الناس قد تكلموا فى كون الكتب المقدسة الهامية ، وقالوا انه يوجد فى افعال مؤلفى هذه الكتب واقوالهم أغلاط ، واختلافات ، فمثلا اذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الاصحاح العاشر من متى وا ١١ من الاصحاح الثالث عشر من انجيـل مرقس اذا قوبلت هـذه الآيات بالآيات الست التى فى سـفر الأعمـال فى اصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختـلاف جليـا . وقيل أيضا ان الحواريين ما كان يرى بعضهم بعضا صاحب وحى ، كمـا يظهر هذا من مباحثهم فى محفل اورشليم ، ومن الزام بولس لبطرس ، وقيل ايضـا أن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزهين من الخطأ ، لانهم فى بعض الأوقات تعرضوا له » .

ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الالهام فى شىء فانجيل متى على قول القدماء من المسيحيين ، وقـول جمهـور المتأخرين الذين قالوا انه كتب باللســان العبرانى كما اسلفنا من القول ، قد قالوا ان اصله فقد ، وترجمته ليست بالالهام .

ويقول استادلن وغيره ان انجيل يوحنا ليس بالهام ، وجميع رسائل يوحنا ليست بالهام على رأى فرقة لوجين ، وكذلك الرســالة الثانية لبطرس ، ورسالة يهوذا ، ورسالة يعقوب ، والرسالة الثانيـة والثالثة ليوحنا ، ورؤياه النبوى — كل ذلك عند الأكثرين ليس بالهام ، وكان كذلك الى سنة ٣٩٣ ميلادية » .

دعوى الالهـام باطلة ممن يدعيها :

٥٨ — ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها ، وطريق الالهام ، فادعاء الالهام على فرض اتفاقهم عليه ليس له من البينات ما يثبته ، ولا من الأدلة ما يقيم ادعاءه ، ونحن نطالبهم بالدليل .

وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعا مجردا ، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه ، ولكن تتميما للبحث وتعريفا للحقائق نثبت أن دعوى الالهام

باطلة من أساسها ، ليس لعدم اقامة الدليل عليها ، بل لأن البينات قائمة ضدها ، ذلك لأنها لو كانت بالهـــام من الله كما يقولون لكانت صادقة في كل ما أخبرت به ، وما وجد الباطل منفذا ينفذ منه اليها ، ولم يكن ثمـة محل لتكذيبها ، ولكانت متفقة غـير مختلفة ، ولم تكن متضاربة بأى نوع من أنواع التضارب ، وذلك لوحدة من صدرت عنه ، لأنها جميعا صادرة عن واحد ، وان اختلف الناطقون بها ، ولكنا وجدنا بينها اختـلافات من أوجه عدة ، ووجدنا فيها أخبارا تناقض ما علم فى التاريخ وكان مشـهورا فيه ، ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .

التضارب بين كتب العهد الجديد :

(أ) أول ما يلقـاك من أوجه اختـلاف الأناجيل فى الأمر الواحـد الذى لا يقبـل الا حقيقة واحدة . اختـلاف انجيل متى عن انجيـل لوقا فى نسب المسيح ، فان من يقابل بين نسب يوسف النجـار متبنى المسيح فى الأناجيل يجـد الاختلاف من ستة أوجه ذكرها الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه اظهار الحق فقال :

١ — فى متى أن يوسف بن يعقوب ، وفى لوقا أنه ابن هالى .

٢ — يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام ، ومن لوقا انه من أولاد ناثان بن داود .

٣ — يعـلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود الى جـلاء بابل سلاطين مشـهورون ، ومن لوقا أنهم ليسـوا بسلاطين ولا مشـهورين غير داود وناثان .

٤ — يعـلم من متى أن سلتائيل بن يكنيا ، ومن لوقا أن سـلتائيل ابن نيرى .

٥ — يعـلم من متى أن اسـم ابن زربابل أبيهـود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا .

والعجب أن أسماء بنى زربابل مكتوبة فى البـاب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام من كتب العهد القديم . وليس فيها أبيهود ولا ريسا فكل منهما غلط .

٦ — من داود الى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلا على ما بين متى ، وواحد وأربعون جيلا على ما ذكر لوقا .

هذه أوجه اختلاف ستة فى نسب المسيح عليه السلام وهو نسب يوسف النجار ، الذى كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف الذى يعترف به المسيحيون ، ولا يجدون مناصا من الاقرار به يدل على أمرين :

احدهما : ان احد الانجيلين لم يكن بالهام بيقين ، اذا فرضنا أن احدهما صادق والآخر كاذب ، فالكاذب لا شك لم يكن بالهام ، والا كان الاله الذى أوحى به كاذبا ، وذلك لا يليق بحسب بداهة العقل ، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين ، حتى يثبت الصحيح ، ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر ، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة الهاما ، لأن الشك ان اعترى الأصل زال الاعتقاد .

ثانيهما : ان انجيل متى لم يكن معروفا للوقا ، اى انه لم يكن متدارسة معروفا لدى العلماء فى المسيحية . مع أن تدوين انجيل متى يسبق تدوين انجيل لوقا بأكثر من عشرين سنة على ما عليه جمهورهم ، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه ، وما وقع فى الخطأ الذى وقع فيه ، أو على الأقل ما خالفه، واذا لم يكن معروفا لدى علماء المسيحية ، وحوارييها ورسلها ، فلابد انه لم يكن معروفا قط ، أو بعبارة اصرح ، ربما لم يكن موجودا قط .

ولا مناص من هذا الا ان نقول أن لوقا كان يعرفه ، واطلع على حديث النسب فيه ، وخالفه على بينة منه ، لانه لم يصدقه ، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفا برسالة متى ، والايحاء اليه ، وان ما كتبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والا ما خالفه مع علمه .

وخلاصة القول فى ذلك أن تلك المخالفة تنتج احدى اثنتين : أما الا يكون انجيل متى معروفا للرسول لوقا ، وذلك يقتضى الا يكون موجودا . واما أن يكون موجودا يعرفه لوقا ، ولكن لا يعترف به مصدرا صادق الرواية . واحدى القضيتين لازمة حتما ، ولكن لا يعترفه المسيحيون بكلتيهما .

(ب) ونجد فى الاصحاح الخامس عشر من انجيل متى أنه بعدمناقشة الفريسيين تقدمت اليــه امرأة ، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شــفاءها ، ونص الخبر كما جاء فى ذلك الاصحاح : « ثم خرج يسوع من هنــاك ، وانصرف الى نواحى صور صيداء . واذا امرأة كنعانية خارجــة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيدى يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا » . وتجىء هذه القصة فى الاصحاح الثامن من انجيل مرقص بالنص الآتى : « ثم قام من هناك ، ومضى الى تخوم صور وصيداء ، ودخل بيتا وهو يريد الا يعلم به احد ، فلم يقدر ان يختفى لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به ، فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أممية وفى جنسيتها فينيقية سورية » .

ففى هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية ، وأنها أممية ليست من اليهود ، وفى الأولى توصف بأنهــا كنعانية أى ليست فينيقية ، فأيهما الأحرى بالقبول ؟ لا شك انه لا يمكن ان تكون الروايتــان صادقتين معا ، بل لا بد أن تكون احــداهما كاذبة وليست بالهام من الله ، لأن الله لا يكذب ، واذا كانت احداهما ليست صادقة بيقين ، وكاذبة بيقين ، ولم يدر أيتهما الكاذبة المفتراة ، فالشك اذن ملازم الاثنتين لا ينفصل عنهما ، حتى نتبين الصــدق من الكذب ، ولا سبيل الى ذلك ، ولا يمكن أن نثبت لأيهما الهاما مع هذا الشك الملازم الذى لا سبيل الى ازالته .

(جـ) وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته فى متى عن يوحنا ، ففى متى جاء فى ذلك بالاصحاح السادس والعشرين ما نصه : وفيما هــو يتكلم ، واذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ، ومعه جمع كثير بسيوفه وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا : « الذى اقبله هو امسكوه فللوقت تقــدم الى يسوع ؟ وقال السلام ياسيدى وقبله ، فقال يسوع يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا ، والقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه » هذا ما جاء فى متى ، وجاء فى يوحنا فى هذا المقام ما نصه : « فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع ، وهو عالم بكل ما يأتى ، وقال لهم : من تطلبون ؟ اجابوه : يسوع الناصرى ،

قال لهم : انى أنا هو ، وكان يهوذا مسلمه ايضا واقفا معهم ، فلما قال لهم انى أنا هو رجعــوا الى الوراء وسقطوا على الأرض ، فسألهم ايضـــا من تطلبون ؟ فقالوا يسوع الناصرى ، اجاب يسوع قد قلت لكم : انى أنا هو ، فان كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبــون ليتم القــول الذى قاله : ان الذين أعطيتنى لم اهلك احدا » .

وترى هنا اختلافا بينا بين الروايتين ، فمتى يقول : ان يهوذا هــو الذى اعلمهم بالمسيح بالعلامـــة التى اتفق معهم عليها ، وهى تقبيله ، ويوحنا يقول : ان المسيح هو الذى قدم نفسه وكفى يهوذا مئونة التعريف، ولا شك ان ذلك الاختلاف البين فى رواية حادثة واحدة يجعل احـــدى الروايتين كاذبة والثانية صـــادقة ، والكاذبة ليست بالهـــام ، فاحداهما ليست بالهام ، ولا سبيل الى معرفتها فيثبت الشك فى الروايتين .

وفى الحق ان من يراجع الاناجيل فى خبرها عن القبض على المسيح وحبسه ، ثم محاكمته وصلبه فى زعم النصارى ، ثم قيامته من قبره ، يجد الاختلاف فى اخبارها اختلافا بينا ، ولو كان بعض هذا الاختلاف فى شهادة اثنين يشهدان فى درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى ، ولا انتصر بها حق .

ولتراجع الاناجيل فى هـــذا المقام لتعرف مقدار الصحة فى خبرها ، ولتعرف مقدار ما فى دعوى الالهام لكاتبيها عند كتابتها من حق ، فلا شـــك أن ذلك الاختلاف الذى لا يمكن التوفيق بين متناقضه يؤدى الى ان تلك الاناجيل يأتيها الشك من كل جانب ، يأتيها من بين يديها ، ومن خلفهـــا ، فلا يمكن أن تكون الهاما من حكيم حميد .

وان ذلك الاختلاف فيما أحاط بمسألة الصلب — فوق أنه يفقـــد الثقة بالأناجيل ، هو ايضا يجعل خبر الصلب عند القارىء الخالى الذهن الذى لم يكن فى ذهنه قبل القراءة ما ينفيه أو يثبته موضع الشـــك الذى يرجح فيه الرد على القبول ، والتكذيب على التصديق .

(د) وفى موت يهوذا الذى خان المسيح على زعمهم ، اختلفت رواية متى عن رواية لوقا فى سفر اعمال الرســـل . فمتى يقول : انه خنق نفسه ومات ، كما جاء فى الاصحاح السابع والعشرين .

ولوقا يقول فى سفر الأعمال : انه خر على وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت احشاؤه كلها ومات .

ولا شك ان بين الروايتين اختلافا ، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن ، ولا بد أن تكون احداهما على الاقل كاذبة . ولكنها غير معلومة ، فيتطرق الشك الى الأخرى فيردان معا ، ولا يمكن أن تكونا بالهام او لا يمكن مع ذلك الشك الايمان بان كتبهما بالهام .

(هـ) قد اشتمل بعض هذه الكتب على اخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة فى التاريخ يعرفها الخاص والعام ، ولدونتها كتب التاريخ على انها حوادث مفردة عجيبة فى الدهر . ولكن لم يرد لها ذكر فى التاريخ ، ولم يعرف الناس امرها الا من تلك الكتب .

هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم واسلم الروح ، واذا حجاب الهيكل قد انشق الى اثنين من فوق الى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من اجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين . وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة ، وما كان ، خافوا جدا ، وقالوا : حقا كان هذا ابن الله » .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذى لم يشر الى المسيح بكلمة ، ولو صحت ايضاً لآمن الرومان واليهود ، الصخور تتشقق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينشرون ، ويسيرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ، ويبقى بعد ذلك مساغ لانكار ، ولكن لم ترد اخبار بايمان أحد من اليهود على اثر تلك البينات الباهرات .

ولقد جزم العلامة المسيحى نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال فى تكذيبها : « هذه الحكاية كاذبة والغالب أن امثال هذه الحكاية كانت رائجة فى اليهود بعد خراب اورشليم ، فلعل احدا كتب هذه الحكاية فى النسخة العبرانية ، وادخلها الكتاب فى المتن ، وهذا المتن فى يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيرا مما فى المتن أصله فى الحاشية ثم نقل خطأ فى المتن ، واذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدرا

لاعتقاد جازم ، وايمان بدين ، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأصيل ، هو بالهام من الله العلى القدير ؟ ! ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك .

بيد أنه من الانصاف لهذه العقول ان نقول : انهم يقيمون غواشى تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيهـــا فهى لا تقبله على نور وبينة ، وسلطان مبين .

٥٩ — هـــذه بعض المتناقضات بين هـــذه الكتب بعضها مع بعض وبعض مناقضتها للعقل والمدون فى التاريخ ، وانا نحيل القارىء فى هـــذا المقام الى كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى : فقـــد اتى باكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب ، وجبه بها مناظريه ، فلم يحيروا جوابا، ولم يستطيعوا خطابا ، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها منه فليرجع القارىء اليه ، فسيجد الغريب .

التناقض بينهـــا مبطـــل لادعاء الالهـــام وبيـــان انكارهم لبعضها ثم اعترافهم به:

واذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها فى جملتها واجزائها عند مناقشتها فهى اذن ليست بالهام ، ويكفى هذا بطلانا لمدعاهم فى الالهـــام .

وأن نسبة هذه الكتب الى من نسبت اليهم على ما فيها ، وعلى انها فى ذاتها ليست حجة ، هى موضع شك كثير ، فانه ليس لهم ســـند متصل يصـــل هذه الكتب فى اقدم العصور التى عرفت فيها — بالكاتبين لهـــا ، فهى لم تعرف معرفة كاملة قبل مجمع نيقيـــة الذى كان فى ســـنة ٣٢٥ ، ولم يجىء ذكر لها قبـــل ذلك الا على لسان ارينيوس سنة ٢٠٠ وكليمنس سنة ٢١٦ .

بل ان مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها ، فان ذلك المجمع لم يعترف بما يأتى :

١ — برسالة بولس الى العبرانيين .

٢ — ورسالة بطرس الثانية .

٣ ، ٤ — ورسالة يوحنا الثانية والثالثة .

٥ — ورسالة يعقوب .

٦ — ورسالة يهوذا .

٧ — ورؤيا يوحنا التى نسمى « الكتاب النبوى » ولم يحكم بصحة هذه الكتب الا فى مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤ .

انقطاع السند فى نسبتها لكاتبيها :

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع ، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة او مختصة بذلك التقديس . وآخر كتاب من هـذه الكتب كتب فى القرن الأول ، فبين آخر كتبهم تدوينا فى زعمهم ، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سـنة ومائتين لا راوى يرويها ، وقد وقع بهم من الأحداث فى هـذه المدة ما يذهب باللب ويضيع الرشـد ، وينسى المرء معـه كل شىء ، وان الكتب نفسـها لم تسـلم من الاضطهاد . فقد اصدر احد اباطرة الروم سنة ٣٠٣ أمرا بهدم الكنائس واحراق الكتب ، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم ، فنفـذ الولاة الأمر ، فهدموا الكنائس ، وحرقوا الكتب ، وأتوا على كل ما للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب ، هـدما وتحريقا ، ومن سبق الى ظنهم انه أخفى كتابا عذبوه عذابا شديدا ، حتى يعلنه فيحرق .

ومن قبـل ومن بعد انزلوا البلاء بعلمائهم ، فما تركوا عالمـا منهم بالديانة الا قتلوه ، وكان الولاة يتفننون فى طرق ابادة المسيحية من الوجود ، ابادوا العلماء حتى لا يوجد من يرشد اليها ، ويتوارث العلم بها . وابادوا الكتب حتى لا تحفظ تلك الديانة فى الصدور او السطور .

ولا شك أن ذلك الاضطهاد الذى دام الى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التى رويت قبل ذلك موضع شك فى نسبتها الى قائليها ، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة ، ولم يقيموا اى دليل ، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب اليهم ، والحبـل بينهم وبينها غـير متصل بأوهى أنواع الاتصال ، لأن السند المتصـل الذى يطمئن معه القارىء لكتاب ، فيغلب على ظنه انه صادق النسبة لمن نسب اليه ، هو أن يروى ثقة عن ثقة مثله حتى يصل السند الى من لقى المؤلف فيقول : سمعته منه ، أو تلقيته عنه ،

أو قرأته عليه كما ترى فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويكون كل راو من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلا ثقة ، ضابطا حافظا ، واذا كان السند غير متصل بين ذيوع هذه الكتب واشتهارها ، وبين قائليها ، فقد ذاعت بعد سنة ٣٦٤ ، ومن نسبت اليهم كتابتها كانوا فى وسط وآخر القرن الأول ، فالعقل يتشكك فى هذه النسبة ، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة .

هذه كتبهم ، اعتقدوا انها كتبت بالهام من كتابها ، ولم يقيموا اى دليل على دعوى الالهام ، وبدراستها يتبين التناقض بينها ، مما يثبت انها ليست بالهام من الله ، وبدراسة تاريخها يثبت انها منقطعة السند عمن نسبت اليهم .

موازنة قس بين احاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية :

٦٠ — ولقد جرؤ قس اسمه ابراهيم سعيد فى شرحه لانجيل لوقا ، فعقد موازنة بين روايته ، ورواية احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ان الذى يطالع ديباجة بشارة لوقا يستعيد الى ذاكرته ديباجة الأحاديث فى الاسلام ، غير انه اذا تشابهت الديباجتان فى بعض الأوجه ، فان أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه ، فمن أوجه الشبه :

(أ) ان بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة ، واقوال مؤسس لدين واسع الانتشار .

(ب) ان الذين كتبوها أخذوها من اقوال مسلمة اليهم .

الى هنا فقط تنتهى أوجه الشبه ، او تبتدىء زاوية الانفراج تتسع الى أن تختفى خطوطها مع رسوم الأبد .

(أ) فالأحاديث النبوية كتبها اناس اخذوها من اناس آخرين ، وهؤلاء الآخرون اخذوها عن التابعين ، وهؤلاء اخذوها من الصحابة ، والتبر متى تنقل بين الأيدى الكثيرة امتزج بكثير من التراب ، ان لم يتحول ترابا ، ولكن لوقا اخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح ، وخدموا انجيله .

(ب) نقلت الأحاديث النبوية من رواة ، وما آفة الأخبار الا رواتها ، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

(جـ) كانت مهمة كتبة سيرة نبى الاسلام جمع الأحاديث وتكنيسها ، لكى يظفروا باكبر عدد ممكن ، وكانت مهمة لوقا التمحيص العلمى ، اذ كان هو طبيبا عمليا ، علميا دقيقا .

بيــان ما فى كلامه من زيف :

٦١ — هذا نص ما كتبه ذلك القس فى الموازنة بين احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وانجيل لوقا ، ونحن نقره فى أن أوجه الاختــــلاف تنفرج زاويتها ، حتى لا يتلاقى المتشــابهان بعــدها ، وان شئت الحق الخالص من كل تمويه ، والصدق الخالى من كل تزوير فقل انه لا تشابه بينهما ، كخطين متوازيين لم يتلاقيا ، ولن يتلاقيا قط .

ولكن أذلك الاختلاف يعلى الأحاديث أم يعلى البشارة المنســوبة للوقا ؟ هنا نختلف مع القس . فهو يزعم ان ذلك الاختلاف يعلى بشــارة لوقا ، ويفقــد الثقة احاديث الرسول ، وهــو لكى يؤيد هذا الزعم يأتى بالمحاسن فيسميها مساوىء ، ويعرض لما يوجب الثقة ، فيزعمه دليــل نقيضها ، وهو فى هذا كمن يزعم قبح الشمس فى نورها الرائع ، وضوئها الســاطع ، وقبح القمر فى صفائه ، وانبلاجــه فى ظلمة الليل البهيم ، ثم يستعين فى تقبيح المحاسن الى التشــبيهات والأخيلة والرمــوز ، كشأن الموهين دائما ، عندما يحاولون طمس المعقول ورد المقبول . ومعارضة ما تنتجه بدائه العقول ، والمنطق المستقيم .

يقول أن الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا الى التابعين فالصحابة ، وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا ، ويرى أن رواية بشارة لوقا هى المثلى ، ورواية الأحاديث ليست المثلى . ويســـتدل على ذلك بأن التبر متى تنقــل بين الأيدى امتزج بالتراب أو تحــول الى تراب ، فأى دليــل هــذا ؟ ومن اى ابواب الأقيسة المنطقية ، ومن اى اشكالها ؟ ان ذلك ليس من المنطق فى شىء ، ولا يمت اليه بنسب ، بل لا نستطيع أن نقول ان ذلك قياس خطابى ، لأن الأقيسة الخطابية ، وان كانت ظنية لا تناقض العقــل ، ولا تكذب على البــداهة ، ولكنا مــع ذلك نناقش ذلك الاستدلال .

ان احاديث الرسول رويت بسند متصل ، وذلك عيبها فى زعم هذا الكاتب ، وبشارة لوقا لم ترو بسند متصل ، وذلك حسنها ، واذا قال لك

قائل : اين ما تثبت به انه روى عن شهود عاينوا ، ومن هم هؤلاء الذين عاينوا واخبروه ؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين ، وهم اولى بذلك ، وكلامهم احرى بالتصديق ؟ فلا جواب عنده بلا ريب .

فايتها العقول المستقيمة ، اى الخبرين احرى بالقبول ، خبر من ذكر انه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق والتقوى ، وعينه ، وعدالته مشهورة ، وصدقه معروف . أم خبر من ذكر لك انه روى عمن عاين ولم يبين من هو ، ولم يخبر عنه ؟ فلم نعرف أهو ثقة متبول الرواية أم هو غير ثقة كيهوذا الاسخريوطى ؟ ان اقصى ما يقال هو ان لوقا نقل عن بولس ، لانه كان رفيقا له فى بعض أسفاره ، ولكن بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا بل كان فى صدر حياته حربا عليهم والبا ، اذاقهم البلاء أكؤسا ، والشر الوانا ، فهو راو يحتاج الى من يوثقه ، ان ادعى أن لوقا روى عنه ، وذلك ما لم يقله حضرة القس .

ولننتقل الى مناقشة تشبيه الذى ذكره دليلا : ان التبر اذا انتقل الى أيد تستطيع صيانته وحياطته — تحفظه من التراب ، وتصونه من الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخالط جوهره ، فيزداد بهذا الحفظ بريقا وصفاء ، ان إحاديث الرسول نقلها ثقات صانوها وحفظوها ، ولكن يظهر أن القس يأبى فى مناقشته الا أن يخالف كل معقول ، حتى يكون كل كلامه متفقا مع الباعث عليه والداعى اليه ، فيزعم أن التبر قد يتحول الى تراب اذا تناقلته الأيدى .

فأيها الناس ، ويأيها العرب والعجم ، ويايها الشرق ، ويايها الغرب هل علمتم أن الذهب يتحول الى تراب ، ولكن القس المرشد الرشيد يقول ذلك فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة .

ثم من الذى روى لنا تلك البشارة عن لوقا ؟ ان السند يجب أن يكون معروفا حتى لوقا ، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح ، ان بشارة لوقا كتبت كما يزعم النصارى فى العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعيينا دقيقا ، ولكن لم يرد فى التاريخ ، ولا على ألسنة الرؤساء والقسيسين اى ذكر لها الى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الاربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ الى سنة ٣٢٥ ، ولم نعرف أهذه الاناجيل المدونة المسطورة الآن هى التى جاء ذكرها على لسان

عالمين من علمائهم فى فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون ســـــنة وثلاثمائة ، وهى فترة طويلة .

ولكن مع كل هذا يستحسن القس ابراهيم سعيد تلك الحال ، فقد زينت له فرآها الأمر الحسن الجدير بالثقة ، ورأى غيرها الأمر القبيح الجدير بالرد . وهـل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه فى ضـــوء الشمس ، أو نطالب من فقــد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر ، وعرف الطيب ، أو نطالب من ايفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور .

٦٢ — ولننتقل الى الفرق الثانى الذى ذكره معليا لبشارته ، ومنزلا بأحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : نقلت الأحاديث عن طريق رواة ، وما آفة الأخبار الا رواتها ، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنــة عندهم .

هذا ما ذكره بنصه تقريبا ، وهو يبين ارجحية اخبار اناجيله عن سيرة المسيح بأنها رواها التاريخ ، أما عن السنة فرواية رواة ، وآفـــة الأخبار رواتها ، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامية التافهة « آفة الأخبار رواتها » فانها لا تصلح مقدمة لدليل علمى ، ولو أن طالبا ممن تلقوا العلم علينا قالها لعركنا اذنه ولسررنا اليه أن رواة الأخبار الذين هم آفاتها انما هم الكاذبون . أما الصادقـــون العادلون ، فليســـوا آفاتها بل حملتها ، والا ما صحت شهادة ، ولا قبل القضاء بينات ، ولا ثبتت حقوق ، ولا أدين متهم ، ولا برىء برىء .

ثم يقول ان اناجيله سجلها مؤرخون محققـــون ، فكيف نسميهم ؟ أرواة رووا عن غيرهم ؟ ان كانوا كذلك ، فقــد سجل على سيرته ما عده قبيحا عند غيره ، وان كانوا مؤرخين لم يتعرفوه بطـــريق الرواية ، بل بالنقش على الأحجار ، أو فيما استبطنته بطون الآثار ، فأى اثر هـــذا وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه ، ومدونة فيه ، واثبت التحقيق العلمى أنها ترجع الى عصر المسيح ، وانه هو الذى القاها ، أو ان تلاميذه دونوها عنـــه ؟ .

ان اخبار التاريخ تثبت باحد أمرين ، أما بالرواة يروون ، أو بالآثار ينقبون فيها ، ويتعرفونها منها ، لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين ، فليست ثمة رواية لها ولا رواة ، وهم ينزهونها عن ذلك ، ولا آثار تنطق

بها ، وتعلن خبرها فهى اذن يرفضـــها التاريخ ، ولا يمكن ان يســـجلها مؤرخون محققون قط ، وان التاريخ لا يعرف لها ذكرا الا من مجمع نيقية أو بعده . فهى مسندة الى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا فى نيقية ، وليست محققة النسبة لغيرهم بل بعضها ليس محقق النسبة عندهم ، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة !! وبعــد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم ، وان اغضب ذلك حضرة القس ، وان ذلك المجمع لنا فيه كلام ، سنقوله فى موضعه .

٦٣ — ولننتقل الى مناقشة الفرق الثالث الذى ظنه رافعا مؤرخيه الى مرتبة الثقة ، يقول : كما كانت مهمة كتبة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم الجمع ، ليظفروا باكبر عدد من الاحاديث . اما مهمة لوقا ، فقدكانت التحقيق والتمحيص ، وهنا نرى القس اخذ يجد بعد الهزل ، ويقول بعد الهذر ، ولكنه اذ ابتدا يجد قد كذب واعظم الفرية على احاديث نبينـــا ، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها ، فاى تحقيق علمى فيهـــا ، واى تمحيص اشتملت عليه ؟ انها لا تفترق عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة ، واشياء عجيبة ، ولم يبين لنا رايه فيها ، بل كان قاصا ككل القصاص ، ولا يرفعها انه كان طبيبا ، لان نسبتها اليه موضع شك كبير ، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا ، ولم يتفقوا على انه كان طبيبا ، بل منهم من قال إنه كان مصورا ، وعلى ذلك تكون دعواه التمحيص فى بشارة لوقا لا تؤيدها ما دون فيها ، ولا تؤيدها نسبتها الى لوقا .

ولننتقل بعد ذلك الى رد افترائه ، وكذبه على احاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فان المطلع على أخبار رواتها العـــدول ، وما كتب فى صحاحهم يتبين له انهم ما كان همهم الجمع ، بل كان همهم التنقيب والبحث فانهم ما كانوا يروون كل ما يتلقون ، بل يختارون الصادق مما يتلقون ، وان الذى يرفضون كان اضعاف ما يقبلون وينقلون ، لانهم كانوا يتحرون الصدق ليتميز الخبيث من الطيب ، وان الصحابة كانوا يتهمون من يكثر من الرواية خشية ان يخبر عن الرسول بغير ما راى وشاهد ، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم ، أو محرفا الكلم عن مواضـــعه : « ان رواة الأحاديث كان همهم الجمع » ، كلا انهم كانوا ينقدون ما يروون ، ينقدون السند أولا ، فلا يقبلون الا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم

لما يحملون ويروون ، وينقدون متن الحديث : فيعرضونه على الكتاب وما اشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار ، وما علم من هذا الدين بالضرورة فان لم يخالفها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولا ، والا كان مردودا ، ونريد ان نهمس فى اذن حضرة القس الرشيد بأن من اسباب ردهم لبعض الاحاديث ورفض نسبتها الى الرسول عليه الصلاة والسلام — عدم موافقتها للعقل ، فهل له أن يطبق ذلك النقد على اناجيله ورسائله ؟ انا ننصح له ان يفعل ، لانا نريد له الهدى ، لا الضلال ، والرشد لا الغى ، وهى نية نحتسبها عند الله .

نظرة فى الوحى فى الاسلام والوحى فى المسيحية :

٦٤ — نريد ان نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها: وهى التفرقة بين الوحى فى الاسلام والوحى فى المسيحية. فيقول عن الوحى فى الاسلام : « ان الوحى فى الاسلام هو التجرد عن كل شىء انسانى ، وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ ، ولكن الوحى فى المسيحية يجمع بين العنصر البشرى والعنصر الالهى ، اى الملهمات الالهية تتجسد فى لباس لغوى بشرى ، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ اليهم ، فالكلمة المعلنة المكتوبة فى الانجيل هى رمز لكلمة الله ، الوحى المعلن لنا حق الله .

من اجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحى بالروح القدس لا يحرم على الموحى اليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد ، والتحقيق والتدقيق ، هذا بخلاف الاعلانات المحتوى عليها كتاب الوحى التى لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية ، بل هى من الله أولا وآخرا ، كالنبوات المتفرقة فى كل أجزاء الكتاب المقدس ، وسفر الرؤيا » .

معنى الوحى :

هـــذه كلمته ، ونريد قبل أن نتعرف من تلك الكلمة معنى الوحى فى كتبهم أن نسارع الى بيان وحى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الاسلام فنقول : ان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قسمان : قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته ، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله جلت قدرته ، وذلك كما فى القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين .

القسم الثانى ، الأمور الشرعية التى كان يوحى الله بها الى النبى صلى الله عليه وسلم ليبينها للناس ، فالمعنى فيها يوحى من الله تعـالى والعبارة فيها للنبى صلى الله عليه وسلم .

واذن فكلامه من الوحى فى الاسـلام لم يكن صحيحا فى عمومه ، وكان عليه ان يتحرى قبل أن يكتب ، ولكنه لم يفعل .

ولننتقل الى الوحى بالكتب عندهم ، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به عنه ، وعساه يهدينا الى ما نعرف به محض الحق المبين .

هو يقول ان كلمات الانجيل ليست هى كلمـات الروح القـدس التى ألهمها رسلهم ، سواء فى ذلك كل كتبهم ، فالعبارة فيها للكاتب ، وليست للروح القدس الذى يلهم رسـلهم بما يكتبون فيما يزعمون ، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك الى قسمين : قسم هو وحى لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأى نوع من انواع التصرف، وهو ما يسمى بالنبوات عندهم . والقسم الثانى تتصرف فيه مواهب الكاتب ، وفى هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجبه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد .

ونظرة فاحصة الى هذا القول ترينا أن الالهام قد اخذ يضؤل امره ، ويتواضع دعواه ، خصوصا بالنسبة للاناجيل ، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا ، ولم يتخللها كلام الله ، كما يفعل بولس فى رسائله ، اذ كان يزعم احيانا انه يتكلم عن الله ، وأحيانا يقول أنه يتكلم من عنده ، فالاناجيـل ليست فيها اذن تلك النبوات ، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل فى كتابتها ، ويتحملون تبعة الاجتهاد فيهـا والتدقيق والتمحيص ؛ ومن يتحمل تبعةعمل ينسب اليه . وعلى ذلك قديتوارد الخطأ علىاجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم ، فيكون من أخبارهم ماصادف التحقيق فيه الصواب، وما عرض له الخطأ ، وكيف تكون بعد ذلك بالهام أو وحى ؟ وكيف تكون مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ واذن فقد أتوا على دعوى الالهام بالنقض فلا الهام فى الأناجيل اذن .

هذه كلمتنا فى كتبهم تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون ، ونوجه من النقد ما وجهوا ، وذلك لكى ننصف القوم .

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة ، ونجمع

بين الاقوال المتضاربة ، ونشير الى حكم العقل المستقيم عليها، أهى صالحة لأن تكون مصـــدر دين يتدين به الوف الالوف من البشر واهل العــلم ، أم غير صالحة ؟ .

ان كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأســـــاس ، فاذا كان غير صحيح السند ، أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر ، بل انه انهار ، وفقد اصله ، ولم يعد شيئا فى الأديان مذكورا .

ولننتقل بعد ذلك الى عقيدة المسيحيين ، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التى علمت أمرها .

النصرانية كما هي عند النصارى وفي كتبهم

العقيـــدة :

٦٥ — جاء في كتاب سوسنة سليمان، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني أن « عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهي أصل الدستور الذي بينه المجمع النيقاوي هي الايمان باله واحد أب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله . اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات في اليـــوم الثالث على ما في الكتب . وصعد الى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه ، والايمان بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب ، الذي هو مع الإبن يسجد له ، ويمجـــد ، الناطق بالأنبيـــــاء » .

هذا هو جوهر العقيدة ولبها الذي لا اختلاف فيه ، وفي هذا الكلام ابهام يحتاج الى فضل بيان ، وانا مستعينون في توضيحه بما كتبوه هم ، حتى لا نتزيد عليهم بقول ، ولانفرض عليهم فهما ، ولكي نكون صادقي الحكاية لكل أقوالهم من غير اي تحريف ، والذي يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الاول : التثليث والايمان بثلاثة اقانيم .

والعنصر الثاني : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره ، ورفعـــــه .

والعنصر الثالث : أنه يدين الأحياء والأموات .

ولنتكلم عن كل واحد من هذه العناصر .

عقيــــدة التثليث :

٦٦ ــ قال الدكتور بوست فى تاريخ الكتاب المقدس : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة اقانيم متســــاوية : الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن ، والى الابن الفــداء ، والى الروح القدس التطهير » .

ويفهم من هذا ان الاقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق .

التـــــوراة والتثليث :

وقد فسر هذا المعنى القس بوطر فى رسالة صغيرة ، سماها الأصول والفروع ، واليك ما جاء فيها : « بعد ما خلق الله العالم ، وتوج خليقته بالانسان لبث حينا من الدهر لا يعلن له ســــوى ما يختص بوحدانيته ، كما يتبين ذلك من التوراة ، على انه لا يزال المحقق يرى بين ســـــطورها اشارات وراء الوحدانية ، لانك اذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات :

«كلمة الله ، أو حكمة الله ، او روح القدس» ولم يعلم من نزلت عليهم التوراة ماتكنه هذه الكلمات من المعانى ، لانه لم يكن قد اتى الوقت المعين الذى قصد الله فيه ايضاحها على وجه الكمال والتفصيل ، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الانجيل يقف على المعنى المراد ، اذ يجدها تشير الى اقانيم فى اللاهوت . « ثم لما جاء المسيح الى العالم ارانا بتعاليمه وأعماله المدونة فى الانجيل ان له نسبة سرية ازلية الى الله ، تفوق الادراك ، ونراه مسمى فى أسفار اليهود : « كلمة الله » وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة ، ثم لما صعد الى السماء ارسل روحا ، ليسكن بين المؤمنين ، وقد تبين ان لهذا الروح ايضا نسبة ازلية الى الله فائقة ، كما للابن ، ويسمى الروح القدس ، وهو ذات العبارة المعلنة فى التوراة كما ذكرنا ، ومما تقدم نعلم بجــلاء ان المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصــوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران فى الانجيل ، فما لمحت اليه التوراة صرح به الانجيل كل التصريح ، وان وحدة الجوهر لايناقضها تعدد الأقانيم ، وكل من انار الله ذهنه وفتح قلبه فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله او قول مفرد ، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية ، بل لابد له ان يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة اقانيم متساوين فى الكمالات الالهية ، ومتازين

في الاسم والعمل ، والكلمة والروح القدس اثنان منهم ، ويدعى الأقنوم الأول الآب ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعهـــا ، وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية ، ويمثـل للافهام محبته الفائقة ، وحكمته الرائعة ، ويدعى الأقنوم الثاني الكلمة ، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية ، وانه وسيط المخابرة بين الله والناس ، ويدعى أيضا الابن ، لانه يمثل العقل نسبة المحبة ، والوحدة بينه وبين أبيـه ، وطاعته الكاملة لمشيئته ، والتمييز بين نسبته هو الى أبيه ، ونسبة كل الاشياء اليه ، ويدعى الاقنوم الثالث الروح القدس ، الدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن ، وعلى عمله في تنوير أرواح البشر ، وحثهم على طاعتـــه » .

الابن لا يعني به الولادة البشرية :

وبناء على ما تقدم يظهر جليا أن عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ الى ولادة بشرية ، ولكنها تصف سرية فائقة بين أقنوم وآخـــر في اللاهوت الواحد ، واذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة في الذات ، والأمانة للمشورة الالهية ، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها ، لاجـل هـــذه الايضاحات علم خدام الدين المسيحي واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الالهية أن في اللاهوت ثلاثة اقانيم ، حسب نص الكلمة الأزلية ، ولكل منهم عمل خاص في البشر أ . هـ . بنصه تقريبا .

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات :

أولاها : اثبات أن التوراة وجد فيها أصـــل التثليث ، لوحت به ولم تصرح ، وأشارت اليه ، ولم توضح .

وثانيها : ان في اللاهوت ثلاثة اقانيم ، وهي في شعبها متغـــايرة وان كانت في جوهرها غير متغايرة .

وثالثها : ان العلاقة بين الآب والابن ليست ولادة بشرية ، بل هي علاقة المحبة والاتحاد في الجوهر .

ولقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان فيقول القس ابراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا ، فقد جاء فيه في تفسير معنى كلمة ابن العلي

التى جاءت فى انجيل لوقا ما نصه : « يليق أن نوضح بكلمات موجـــزة المعنى المراد » « بابن العلى » أو « ابن الله » علم يقصد بها ولادة طبيعية دانية من الله والا لقيل ولد الله ، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعا أنهم أبناء الله ، لان نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله ، ولم يقصد بها تفرقة فى المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا فى الجوهر ، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله ، وهى محبة متبادلة ، وما المحبة التى بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها ، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها ، ويراد بها اظهار المسيح لنا انه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله ، وأطاع وصاياه ، فقبل الموت موت الصليب ، لذلك يقول الله فيه : « هـــذا ابنى الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا » وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لانه تمم ارادة الله فى الفداء ، ويراد بها اظهـــار التشابه والتماثل فى الذات ، وفى الصفات وفى الجوهر ، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين ، فقيل عن المسيح انه بهاء مجد الله ، ورسم جوهره ، وقال هو عن نفسه : من رآنى فقد رأى الآب ، انا والآب واحد ، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شىء الذى منه وبه له كل الأشياء ، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون ادراكها العقل » .

الثالوث اشخاص متغايرة ، وان كان وجودها متلازما :

٦٧ — وفى هذا التفسير ، والتفســـير الذى سبقه يبدو بجـــلاء أن شخصية الابن غير الآب ، وكذلك روح القـــدس ، ولكن هل يدخـــل فى الأقنوم الثانى جسده وروحه ؟ جاء فى كتاب خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر : « كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت ايمانهـــا من كيرلس وديسقوروس . ومعها الكنائس : الحبشـــية ، والارمنية والسريانيـــة والأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الاقانيم . أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس ، وأن الاقنوم الثانى أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، مصيرا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة ، بريئـــة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشـــيئة واحـــدة » .

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثانى طبيعتين ومشيئتين ، ومن هذا نرى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث ، وهذا هو موضع اتفاق . ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الالهى فى المسيح ، أهو الجسد الذى تكون من الروح القدس ومن مريم العذراء الذى باختلاطه بالعنصر الالهى صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة أم أن الأقنوم الثانى له طبيعتان ومشيئتان ؟.

٦٨ — ومن هذا كله يفهم أن المسيحيين على اختلافهم يعتقدون ان فى اللاهوت ثلاثة يعبدون ، وعباراتهم نفيد بمقتضاها انهم متغايرون وان اتحدوا فى الجوهر والقدم ، والصفات ، والتشابه بينهم كامل ، ولكن كتابهم يحاولون ان يجعلوهم جميعا أقانيم لشىء واحد ، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية ، ولكن عند هذه المحاولة تستغلق فكرة التثليث ، وتصير بعيدة عن التصور ، كما هى فى ذاتها مستحيلة التصديق ، وان كتابهم أنفسهم يعتقدون انها بعيدة التصور عند هذه المحاولة ، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث .

فنرى صاحب رسالة الأصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث ، يقول : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل ، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الارض ، واما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية » أى أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها الا يوم تتجلى كل الاشياء لها يوم القيامة ، وذلك حق ، فانهم لا يعلمون حقيقتها الا يوم يحاسبهم الله عليها .

لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث :

ولماذا شغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث ، او على الاقل يجتهد بعضهم فى بيان أنه لا منافاة بينهما ؟ لعل الذى يدفعهم الى ذلك هو اعتبارهم التوراة كتابا مقدسا عندهم ، وهى تصرح بالتوحيد ، وتدعو اليه ، وتحث عليه ، وتنهى عن الشرك بكل شعبه . وكل أحواله ، بل تدعو الى البراءة من المشركين أينما كانوا ، وحيثما ثقفوا .

فهم يجتهدون أولاً أن يستنبطوا من نصوصها مايحملونه على الاشارة الى التثليث ، كعبارة « كلمة الله » أو عبارة « روح القدس » .

وثانيا : يحاولون ان يرجعوا التثليث إلى الوحدانية ، لتلتقى التوراة مع الانجيل فيقربوا التوراة اليهم بتحميل عباراتها ما لا تحتمل ، ويقربوا عقائدهم من التوراة بتضمين ثالوثهم معنى التوحيد ، وان كان هو أيضـا لا يحتمل ذلك ، ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التى كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام، ووثنية الرومان ، وتوراة اليهود بماتحمل من وحدانية ظاهرة لا شبهة فيها ، الا التجسيد ، أو ما يوهمه فى بعض عباراتهـا .

٦٩ — ولقد يجتهد كتاب المسيحية فى اثبات ان عقيدة التثليث والوهية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة ، ويسندونها الى آياتها ، سواء أكانت من كتب العهد القديم ، أم من كتب العهد الجديد، فيقـول صاحب كتاب الاصول والفروع : « أما لآيات الالهية التى تثبت لاهـوت المسيح فهى كثيرة جدا ، ولضيق المقام نكتفى باقتبـاس شىء يسـير ، فمن اقواله تعالى بلسان اشعياء النبى : « ها العذراء تحبل ، وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانوئيل (اى الله معنا) » وقوله: « كأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه : ويدعى اسمه عجيبا ، مشيرا الها قديرا، أبا أبديا رئيس السلام » : اشعيا ٧ : ١٤ و ٩ : ٦ — .

وعند عماده وتجليه على الجبل شهدله الله من السماء بصوت مسموع قائلا : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت» متى ٣ : ١٨ و ١٧ : ص٥.

ويشهد له يوحنا الرسول قائلا : فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . كل شىء به كان. وبغيره لم يكن شىء ، والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجدا ، كما للوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا . يوحنا ١ : ١ و ٣ و ١٤ .

وقال المسيح نفسه : انا والآب واحد، يوحنا ١٠ : ٣٠؛ وقال له احد تلاميذه : « ربى والهى » يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود. ولم يوبخه على دعوته الها ؛ ولما سأله رئيس الكهنة، وقال له: استحلفك بالله الحى ان تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ أجابه المسيح على الحلف: « انا هو » قال

متى ٢٦ : ٦٣ بمرقس ١٤ : ٦٢ ، وحينما ركب بحر الجليل اظهر طبيعتى لاهوته وناسوته الكليتين، وذلك بينما كان نائما هاجت الرياح، واضطربت الأمواج ، فقام من النوم واسكتها . فصار هدوء عظيم ، متى ٨ : ٢٣ — ٢٧ فبنومه أظهر ناسوته ، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته » .

ويقول صاحب ذلك الكتاب فى اقنوم روح القدس : « ومن حيث اقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله ، لأن اشعياء يقول : « ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه ، فتحول لهم عدوا ، وهو حاربهم » ، اشعياء ٦٣ : ١٠ .

ويقول الرسول بولس : لا تحزنوا روح الله القدس ، ومن المعلوم انه ان كان للروح قوة ، أو صفة ، أو شيء من الأشياء غير العاقلة لا يمكن ان يحزن ، أو يفرح أبدا : فلابد ان يكون اقنوما .

ثم نقرأ فى سفر الأعمال ان الروح قال للرسول : « افرزوا الى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه » .

وهكذا يسترسل فى أمثال هذا الاستدلال الى ان يقول : « وقيل عن اعمال الله انها اعمال الروح هو الذى خلق العالم ، ويجدد النفوس ، والمولود منا مولود من الله ، ويحيى اجسادنا الميتة ، وهو على كل شيء قدير » .

وفضلا عما ذكر نجد فى الكتاب ان الحقوق والصفات الالهية تنسب على سواء الى كل من الآب والابن والروح القدس .

ولكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون ، كما نرى فى دستورية المعمودية : « عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس » . متى ١٨ : ١٩ ، « والبركة الرسولية نعمة ربنا يسوع المسيح ، ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم » .

٧٠ — هذه هى استدلالاتهم من كتبهم لاثبات عقيدة التثليث ، والابراء عليها ، واثبات سندها من تلك الكتب ، قد اطلنا فى نقلها عنهم ، واقتطعناها من عباراتهم بنصها ، ولم نتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرف فى البيان خشية التزيد عليهم، وخشية ان يؤدى التصرف فى التعبير الى التغيير فى الفكرة ، وترى أنهم لم يعتمدوا فى اثبات تلك العقيدة على

اى دليل عقلى ، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحملونه من أثقال المعانى ما تنوء به العبارات ، ولا تحتمله أبعد الاشارات ، وأنهم اذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها فى تصوره ، ويحسون أن العقل لا يكاد يستسيغ ذلك التصور ، وقد نقلنا لك من عباراتهم ما يفيد ذلك ، فارجع اليه .

واذا كانت محاولاتهم تصور القضية قد أجهدتهم ، وكلفتهم ما لا يطيقون ، فكيف يستطيعون أن يجعلوا من بدائه العقل ما يحمله على تصديق ما يدعون والاقتناع بما يقولون ، لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا الى العقل لاثبات قضيتهم من بدهياته ، فان ذلك ليس فى قدرة أحد ، اذ ليس فى قدرة أحد من البشر جمع النقيضين فى قرن ، والتوفيق بين الأضداد ، وقضيتهم والبدهيات العقلية نقيضان لا يجتمعان .

ونرى أن اعتمادهم على النقل لا يغنى من الحق شيئا ، لأن شروط الانتاج فى استدلالهم غير مستوفاة ، اذ ترى أن تلك العبارات التى عثروا عليها فى كتبهم لا تفيد على وجه القطع ما يريدون ، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات ، أو باحتمال قريب ، ومن المعلوم فى قواعد الاستدلال أن الاحتمال اذا دخل الاستدلال أبطله ، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال اليها من كل جانب . هذا وان الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها وهى ذاتها يعروها النقد العلمى فى سندها ، وفى متنها من كل ناحية ، فهى فى ذاتها فى حاجة الى دفاع طويل لاثباتها ، وقد بينا ذلك كله فى موضعه من بحثنا .

صلب المسيح فداء عن الخليقة :

٧١ — ولنترك الآن الحديث فى عقيدة التثليث ، ولكن يجب قبل تركها مؤقتا أن نشير الى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية ، بل تورد عليها شيئا فشيئا ، الى أن أعلن نهائيا عند غالبيتهم فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، وسنبين ذلك كله فضل بيان فى تاريخ المجامع المسيحية ، وأسباب انعقادها ، وقراراتها ، ومداها فى موضعه من هذا البحث ، ولنتكلم الآن فى العنصر الثانى من عناصر العقيدة المسيحية ، وهو صلب المسيح فداء عن الخليقة ، وقد أشرنا اليه اجمالا من قبل .

يقولون فى هذا : ان الله من صفاته المحبة ، حتى لقد جاء فى الكتب

المقدسة عندهم : « الله محبة » ومحبة الله ظهرت فى تدبيره طريق الخلاص للعالم ، لأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه الى الدنيا ، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة ، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمته رأى أن يقربه اليه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد الى العالم ، ليخلص العالم ، وقد جاء فى انجيل لوقا : « وان ابن الانسان قد جاء لكى يطلب ، ويخلص ما قد هلك » فبمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص ، لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، اذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف ابوهم ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصلب ، لهذا صلب ، ورضى الله عن صلبه ، وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ، ويقولون انه كان قد انبأ بذلك قبل صلبه .

جاء فى انجيل متى فى الفقرة التى بعد بيان الصلب : « اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس قائلين : يا سيد ، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى : انى بعد ثلاثة أيام اقوم ، فمر بضبط القبر الى اليوم الثالث ، لئلا يأتى تلاميذه ليلا ، ويسرقوه ، ويقولوا للشعب انه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى ، فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، اذهبوا ، واضبطوه كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بيد أن ظهوره كان بين تلاميذه .

وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت اناجيلهم ، ولكنها اختلفت فى تفصيل القيام ، فمتى ذكر انه ظهر فى الجليل ، ولوقا ذكر انه ظهر فى أورشليم ، ويوحنا ذكر انه ظهر فى اليهودية والجليل معا ، ومرقس بين أن ظهوره بين تلاميذه .

وقد ذكر القس ابراهيم سعيد توفيقا بين هذا الاختلاف فقال : « اجمع البشيرون الأربعة على تقرير هذه الحقيقة . ليس المسيح فى القبر ، لأنه قام كما قال ، لكن كلا منهم كتب عن القيامة وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة ، متى كتب من ظهور المسيح فى الجليل ، لأنه كتب

من المسيح الملك ، ولوقا كتب عن ظهوره فى أورشليم ، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئا من أورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره فى اليهودية والجليل لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدى صخر الدهر ، ومرقس كتب عن ظهور المسيح للتلاميذ فى فترات منقطعة ، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التى تنتظرهم ، لأنه كتب عن المسيح الذى جاء ليخدم البشرية ، ويرفعها الى مستوى الكمال . كل هذا لكى يوقع البشيرون الأربعة نغمة مشعبة متنوعة العناصر لانشودة القيامة المجيدة فلئن تنوعت رواياتهم الا أنها لا تتناقض » .

وهذا أشبه بالتعلات التى لا تناقش ، ولا تقوى أمام النظر المنطقى المستقيم ، ولكنها تقبل فى الخطابيات ، فهى كالزهرة ترى وتشم ، ولكن لا تعرك ، وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين :

احداهما : أن كل انجيل كتب لغرض معين لا يشمل فى عمومه ماكتب له الانجيل الآخر .

وثانيهما : ان كلا ذكر المكان الذى يتفق مع غرضه ، واذن فلا اختلاف فى الخبر .

وهذا الكلام فيه نظر فى مقدمته ونتيجته ، وذلك لانه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك ، ولوقا عن المسيح المخلص ، وهكذا لكان كل انجيل مغايرا للأناجيل الأخرى تمام المغايرة ، مباينا له تمام المباينة ، لأنه يكتب فى موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر ، وان كان الشخص واحدا ، كأن يكتب كتاب عن شخص بارز فى السياسة والقانون . فكاتب يكتب عنه سياسيا ، وآخر يكتب قانونيا فالموضوع يختلف ، وأن كان الشخص متحدا ، ولكنا لا نجد فى الاناجيل فى مجموعها ذلك التغاير ، وعلى فرض تسليم تلك القضية لا نستطيع أن نسلم القضية الثانية ، وهى أن الجليل يناسب المسيح الملك ، وأورشليم تناسب المسيح المخلص ، وهكذا . فلماذا اختصت هذه بالملك وتلك بالخلاص ؟ ان ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق ، وعلى فرض صحة المقدمتين ، فان النتيجة لا تنبنى عليهما ، لأن النتيجة اختلاف ذكر الأمكنة فى حادثة معينة والشهادة بها ، فأحد الشهود يقول : انه رآه فى الجليل ، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ فى فترات متقطعة ، وثالث يشهد بوجوده فى أورشليم ، واذا اختلف الشهود

فى مكان حادثة معينة كان اختلافهم سببا للظنة فى الشهادة واتهام الشهود فيها ، ولئن قيل أن المسيح ظهر فى الأمكنة التى ذكرت ، بيد ان كلا ذكر ما رأى ، ولم يكن رآه فيها جميعا كان الكلام مستقيما ، ولكن يكون معناه ان كل انجيل لم يذكر حال المسيح كاملة ، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكروها كاملة على هذا الأساس ، ويكونوا قد نسوا حظا مما ذكروا به .

المسيح يدين ويحاسب :

٧٢ — لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التى يعتقدها المسيحيون الا اربعين يوما ، ثم ارتفع بعدها الى السماء وجلس بجوار الرب فى زعمهم ، وسيأتى ليدين الناس يوم القيامة ، يحاسب كل انسان على ما عمل وقال : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . وله بهذا الملك الابدى ، فلا فناء لملكه ، فهم يقولون : ان الله قد اقام يوما سيدين فيه سكان هذه الأرض بيسوع المسيح ، لأن الآب فى زعمهم لا يدين أحدا ، بل قد اعطى ذلك للابن ، فاعطاه سلطان ان يدين الانسان ، لأنه ابن الانسان ايضا ، ولا بد ان يظهر الناس جميعا امام كرسى المسيح ، لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع ، خيرا أو شرا ، هذه عقيدتهم .

فقد جاء فى انجيل يوحنا : « الحق اقول لكم ، انه تأتى ساعة ، وهى الآن ، حين يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ، لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته ، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة فى ذاته ، واعطاه سلطانا أن يدين أيضا ، لأنه ابن الانسان ، لا تعجبوا من هذا فانه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة ، انا لا اقدر أن افعل من نفسى شيئا ، كما اسمع أدين ، ودينونتى عادلة لأنى لا اطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى » . راجع الاصحاح الخامس .

وجاء فى رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثوس : « لا بد أننا جميعا نظهر أمام كرسى المسيح ، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد ، بحسب ما صنع ، خيرا كان أم شرا » (راجع الاصحاح الخامس من هذه الرسالة) .

وجاء فى رسالة بولس الى اهل تسالونيكى : « ان الذين يضايقونكم

يجازيهم ضيقا ، واياكم الذين تتضايقون — راحة معنا ، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته ، فى نار لهيب معطيا نقمته للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون انجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب ، ومن مجد قوته . متى جاء ليتمجد فى قديسيه ، ويتعجب منه فى جميع المؤمنين » .

فهذه النصوص جميعها تبين بجلاء أن الذى سيحاسب الناس ، ويجازيهم بما فعلوا ، الخير بمثله والشر كذلك . انما هو المسيح فى نظرهم .

تقديس الصليب :

مقام الصليب فى المسيحية :

٧٣ — لا يرتفع تقديس الصليب الى مرتبة العقائد السابقة ، لأن تلك العقائد اساس المسيحية . اما الصليب فليس له ذلك الحظ . وان كان شعارهم ، وموضع تقديس الاكثرين . ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح .

جاء فى انجيل لوقا : « وقال للجميع ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى » .

وحمل الصليب كما يقول كتابهم ، اشعار بانكار النفس ، واقتفاء أثر المسيح فى هذا الانكار ، والسير وراء مخلصهم ، وفاديهم .

جاء فى شرح بشارة لوقا للقس ابراهيم سعيد : « ان آثار قدمى المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لانه وان كان المسيح قد صلب عنا وقال فى صلبه : « قد اكمل » لكنا قد اصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعى لأن نكون شركاء المسيح المتألم ، ان شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغى أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه ، ان صلب المسيح معناه مات عنا ، ولكن صليب كل مؤمن معناه : « موت النفس عن الانانية وحب الذات » وخلاصة هذه الذات هى النفس الامارة بالسوء ، هى تلك الارادة المتمردة التى ينبغى ان نخضعها ، ونستأسرها لطاعة المسيح ، فتقول كل واحد ليس ما أريد انا بل ما تريد أنت يا رب ، انه من أوجب واجبات كل مسيحى ان يحمل صليبه مختارا طائعا لأن التعبير بحمل صليبه

مستعار من العادة التى قضت بها الانظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب ان يحمله كل يوم ، وهذه العبارة انفرد لوقا بذكرها ، فهو صليب يتجدد كل يوم ، كما تجددت الآمال والالام فى الحياة اليومية العملية ، فلابد اذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه ، وخطوة تعقبه ، أما الخطوة السابقة له فهى أنكار النفس ، بمعنى ان يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمارة بالسوء ، لا ، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافا الى الم الموت ، وهذا عمل يستلزم انكار النفس ، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط ، بل فزعوا من ظله . كذلك كان شعور اليهود بأن حمل الصليب هو حمل اللعنة ، لأنه مكتوب فى ناموسهم : « ملعون كل من علق خشبة » ، والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هى اقتفاء آثار المسيح كقوله : « ويتبعنى » ، اذن ليس حمل صليبنا غاية لكنه وسيلة لهذه الغاية ، وهى أتباع المسيح حيث « يمضى » أ . هـ .

فحمل الصليب اذن عندهم ليس غاية ، وليس مقصودا لذاته ، ولكنه مقصود لغاية اخرى أسمى عندهم ، وهى اقتفاء خطوات المسيح فى انكار الذات ، والرضا بالفداء فى زعمهم وأتباع تعاليمه .

عباداتهم :

٧٤ — عند النصارى عبادتان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فانهم يقولون ان شرعه عليهم اختيارى لا اجبارى ، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق ، فلنتركه الى الكلام فى الفرق والكنائس ان كان للقول متسع ، ولنتكلم الآن فى صلاتهم .

والصلاة عندهم ركن من اركان الدين ، وهى فى زعمهم تقربهم الى الله عن طريق المسيح .

ولقد جاء فى كتاب الأصول والفروع : « ان الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادى ، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب ، يعبر بها عما يخالجه من الاشواق والعواطف ، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له ، وبالنسبة لاقتناعه بجوده واحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد ، وبالنسبة لوقوعنا فى الخطيئة، تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار ، وبالنسبة للاحتياج اليه تعالى تكون الصلاة طلبا ودعاء » .

والصلاة عندهم لها شرطان اساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمنزلة الدعامة :

الشرط الأول : ان تتقدم باسم المسيح ، فقد جاء فى الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا : « الحق اقول لكم ان كل ما طلبتم من الآب باسمى يعطيكم ، الى الآن لم تطلبوا شيئا باسمى ، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا » .

ويعللون ذلك بأن الانسان بسبب خطاياه ابعد من رضا الله ، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد ، واصبح قريبا اليه .

فقد جاء فى رسالة بولس الى أهل افسس فى الاصحاح الثانى منها : « لكن الآن فى المسيح يسوع انتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحدا ، ونقض حائط السياج المتوسط » .

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك ، وهو ان الاسم يمثل دائما المسمى . فتكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا ، بحيث تكون طلباتنا طلباته . وصلاحنا صلاحه ، وحياتنا حياته ، وبالجملة كانه يحيا فينا ولأجلنا » .

الشرط الثانى : ان يسبق الصلاة الايمان الكامل بما عندهم ، فقد جاء فى الاصحاح الحادى عشر من انجيل مرقس ما نصه : « لذلك اقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا ان تنالوه ، فيكون لكم » .

وجاء فى رسالة يعقوب : « وليكن الطلب بايمان غير مرتاب البتة ، لأن المرتاب يشبه موجا من البحر تخبطه الريح وتدفعه ، فلا يظن ذلك الانسان انه ينال شيئا من الرب » .

وليست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب ان يتلوها ، بل ترك لهم أن يتلوا العبارات التى يختارونها بشرط الا تخرج عن قاعدة الصلاة التى علمهم اياها المسيح لكى يصلوا على منوالها ، وهى المسماة بالصلاة الربانية ، وهى التى جاءت فى صدر الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ففيه عن المسيح : « واذ كان يصلى فى موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يارب علمنا ان نصلى ، كما علم يوحنا أيضا تلاميذه،

فقال لهم : متى صليتم ، فقولوا ابانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتكما فى السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا اعطنا كل يوم ، واغفر لناخطايانا ، لأننا نحن ايضاً نغفر لكل من يذنب الينا . ولا تدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشر ، ولديهم امثلة كثيرة للصلوات يختارون منها ما يسهل عليهم : واشهر الاسفار المشتملة على نماذج للادعية والصلوات سفر المزامير .

ويقول صاحب كتاب الاصول والفروع : « انه خزانة ذهبية لصلوات داود النبى وغيره من الانبياء صلوا بها فى احوالهم الخاصة ، مسوقين من الروح القدس ، وكثيراً ما يعرض علينا ذات احوالهم ، فنقتبس من اقوالهم ما يطابق حالنا واحتياجنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملمات الأمور ، كما اذا كنا فى حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس فى صلاتنا من مزمار — ٥١ — لأنه يشتمل على اشد العبارات تأثيرا بصدد التوبة والاعتراف ، والاستغفار من الله ، وكما اذا كنا فى حال الشعور برحمة الله علينا ونعمته نقتبس من مزمار — ١٠٣ — للتعبير عن شكر قلوبنا ، وشعورها بالمحبة والنعمة » انتهى بتصرف .

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم ، كما انه ليس لها مواقيت معلومة ، بل كل ذلك قد وكل الى نشاط المصلين ، ورغبتهم فى العبادة ولكن لأن اليهود كانوا يعبدون الله فى هياكلهم فى صباح كل يوم ومسائه استنبطوا انه تلزم الصلاة مرتين ، احداهما فى الصباح ، والأخرى فى المساء .

ويقولون فى حكمة ذلك فى الصباح : « نطلب بركة الرب علينا سحابة اليوم ، وان يهدينا الى عمل ما فيه رضاؤه ، وان يحفظنا من السوء ، وفى المساء نشكره على احسانه علينا كما اننا نعترف بما فرط منا فى اليوم من الزلات ، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا وفوق ذلك لا ننفك نذكر فضله ونشعر بجميله دائما » .

واذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم ، فالمستحسن الاكثار ، ويخالفون اليهود فى زعمهم ان الاكثار من الصلاة يجعل الله يمل .

جاء فى انجيل لوقا فى صدر الاصحاح الثامن عشر ما نصه : « قال لهم مثلا فى انه ينبغى أن يصلى كل حين ، ولا يمل قائلا : كان فى مدينة قاض

لا يخاف الله ولا يهاب انسانا ، وكان فى تلك المدينة ارملة ، وكانت تأتى قائلة انصفنى من خصمى وكان لا يشاء الى زمان ، ولكن بعد ذلك قال فى نفسه : وان كنت لا اخاف الله ولا اهاب انسانا ، فانى لأجل أن هذه الأرملة تزعجنى انصفها لئلا تأتى دائما فتقمعنى . وقال الرب اسمعوا ما يقـول قاضى الظلم ، افلا ينصف الله مختاريه الصارخين اليه نهارا وليلا وهـو متمهل عليهم ، اقول لكم انه ينصفهم » .

يقول القس ابراهيم سعيد فى شرح الجمل فى انجيل لوقا : « ينبغى ان يصلى كل حين ولا يمل » من هنـا ترى أن صلاة المثابرة واللجاجـة ليست من الأمور الممكنة فقط ، ولكنها من الأمور الواجبة ، فهى فرض عين لا فرض كفاية ، وهذا عن خلاف ما علم به التلمود ، محظور على الانسان أن يصلى اكثر من ثلاث مرات فى النهار ، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة ، ولقد اوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح تعب على الجسد ، سيما اذا تأخرت الاجابة ، فالروح نشيط والجسد ضعيف » .

وجاء فى آخر رسالة بولس الى اهـل تسالونيكى : « صلوا بلا انقطاع ».

ويبين معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول : « معنى هذا ان نستحضر فى اذهاننا روح الصلاة على الدوام ، وكلما خطر على البال ذكر الله ومحبته نرفع قلوبنا اليه ، سواء اكان بالقول أو بالتوجهات القلبية بدون كلام ، والله يعلم ما فى القلوب .

من شـعائر المسـيحية :

٧٥ — للمسيحية شعائر يجب القيـام بها ، لا يصح التخلى عنها ، ويقولون فيها انها فرائض مقدسة وضعها المسيح ، وهى اعمال جليـلة تشـير الى بركات روحية غير منظورة عندهم ، ومن الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الربانى .

التعميد والعشاء الربانى :

وقد جاء فى انجيل متى عن التعميد : « تقدم يسوع وكلمهم قائلا دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمـدوهم باسم الآب والابن وروح القـدس ، وعلمـوهم جميع ما اوصيكم به » .

وجاء بالنسبة للعشاء الربانى فى رسالة بولس لأهـــل كورنثوس ما نصه : « ان الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها نفسه اخذ خبزا ، وشكر ، فكسر وقال : خذوا وكلوا ، هـــذا هو جسدى المكسور لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكرى » .

كذلك ذكر الكاس أيضـــا بعـــد ما تعشوا قائلا : « هذه الكاس هى العهد الجديد بدمى ، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى ، فانكم كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكاس تخبرون بموت الرب الى أن يجىء » .

بهذه النصوص ثبت التعميد ، والعشاء الربانى ، والتعميد يقـــول فيه صاحب كتاب الأصول والفروع : فريضة مقدسة يشار فيها الغســـل بالماء باسم الآب والابن والروح القدس الى تطهير النفس من ادران الخطيئة بدم يسوع المسيح ، وهى ختم عهد النعمة كما كان الختان فى الشريعـــة الموسوية ، والمعمودية تدل على اعترافهم العلنى بايمانهم وطاعتهم للآب والابن والروح القدس كالههم ومعبودهم الوحيد ، ولا يجوز أن يعمدوا الا اذا اعترفوا بايمانهم جهارا امام كنيسة الله » ويقول فى العشاء الربانى: « وهو فريضة رسمها المسيح فى الليلة التى أسلم فيها الجسد ، ويستعمل فى هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر ، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز ، وقليلا من الخمر على المثال الذى رسمه المسيح تذكارا لموته ، فالخبز يشير الى جسده المكسور ، والخمر الى دمه المسفوك ، فالمؤمنون الذين يشتركون فى هذا العشاء يقبلون المسيح بالايمان كالخبز الذى نزل من السماء وكل من يأكل منه لا يجوع ، ولكنهم لا يقبلونه طعاما جسديا بل طعاما روحيا لحياة روحية لأجل النمو فى النعمة والايمان » ويقول ايضا : « ويشير العشاء الربانى الى مجىء المسيح الثانى ، كما يشير الى موته فيكون تذكارا للماضى والمستقبل » .

من تنظيم الأسرة :

٧٦ — فى الأناجيل ورسائل من يعتقدون انهم الرسل فى المسيحية ذكر للزواج والطلاق ، ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة ، وخلاصة ما جاء فى كتبهم المعتبرة أن الزواج قد سن للانســـان وشرع له ، بل ان الزواج شرعه الله للانسان وهو فى جنة عدن ، فخلق لآدم من ضلعه حواء،

لانه كما فى سفر التكوين : « ليس جيدا ان يكون آدم وحده ، فأصبح له معينا نظيره » .

على أن المسيح فى انجيل متى قد اجاز العزوبة فى حال عـدم القدرة التناسلية ، وذلك بدهى .

وجاء فى رسالة بولس لاهل كورنثوس انه تجوز العزوبة اذا استطاع الرجل أو المرأة ان يضبط نفسه ، ويتوقى الزنى ، فقد جاء فى الاصحاح السابع من هذه الرسالة : « ولكنى اقول لغير المتزوجين ، وللأرامل : انه حسن لهم اذا لبثوا كما انا ، ولكن اذا لم يضبطوا انفسهم فيتزوجوا ، لأن التزوج اصلح من الحرق » .

وشريعة الزواج عندهم لا تحل للرجل أن يتزوج بأكثر من واحـدة وان لم يوجد نص فى ذلك ، ولا يطلق ، وقد فهموا تحريم الطلاق من انجيل متى ، ففى الاصحاح التاسع عشر منه : « قال له تلاميذه : ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال : ليس الجميع يقبلون هـذا الكلام ، بل الذى أعطى لهم ، ولا يفترق الزوجان الا بالموت ، وبعد موت احدهما يحل للحى أن يتزوج غيره » .

وهذا نص ما جاء فى رسالة بولس لاهل رومية : « ان الناموس يسود على الانسان ما دام حيا ، فان المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى ، ولكن ان مات الرجل ، فقـد تحررت من ناموس الرجل ، فاذا ما دام الرجل تدعى زانية ان صـارت لرجل آخر وقبل موت احدهما لا يحل لهما الطلاق » .

وهذا نص ما جاء فى متى فى الاصحاح التاسع عشر منه : « جاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحـل للرجل ان يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى ؟ وقال : من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ، ويلتصق بامرأته ، ويكـون الاثنان جسدا واحدا ، اذ ليس بعد اثنين ، بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان . قالوا : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق ، فتطلق ؟ قال لهم : ان موسى من اجل قساوة قلوبكم اذن لـكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا ، واقـول لكم ان من طلق امرأته الا بسبب الزنى ، وتزوج بأخرى يزنى ، والذى يتزوج بمطلقة يزنى .

الطلاق اذن لا يجوز ولا يقع ، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق :

الحال الاولى : حال زنى احد الزوجين ، فللآخر ان يطلب التفريق ، ويجاب فى هذه الحال ان ثبت الزنى .

الثانى : اذا كان أحد الزوجين غير مسيحى فيصبح التفريق عند تهاجرهما وعدم وجود الألفة بينهما ، ولذا جاء فى رسالة بولس الى أهل كورنثوس : « والمرأة التى لها رجل غير مؤمن ، وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه ، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة ، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل ، والا فأولادكم نجسون ، وأما الآن فهم مقدسون ، ولكن ان فارق غير المؤمن فليفارق » .

ولقد أمرت المسيحية فى وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم ، فقد جاء فى احدى رسائل بولس : « أيها الرجال احبوا نساءكم كما أحب المسيح ايضا الكنيسة ، وأسلم نفسه لأجلها » وفيها ايضا : « واما انتم ايها الافراد فليحب كل واحد امرأته ، هكذا كنفسه ، واما المرأة فلتحب رجلها » .

شرائع التوراة والمسيحية :

منزلة شرائع التوراة فى المسيحية :

٧٧ — ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتبا مقدسة تسميها كتب العهد القديم ، أن تأخذ بكل الشرائع التى نصت عليها التوراة الا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه ، ويظهر ان المسيحيين استمروا على ذلك نحوا من اثنتين وعشرين سنة من بعد المسيح ، وهم فى هذا كانوا يسيرون على المنهاج الذى سنه والطريق الذى بينه . ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضى اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم ، وخطب يعقوب فيهم ، مقترحا عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم فى أربعة ، وهى : الزنى ، واكل المخنوق والدم ، وما ذبح للأوثان ، وكان ذلك لانهم وجدوا ان الختان يشق على بعض من يدعونهم الى النصرانية فينفرون منها بسببه .

وهذا نص ما جاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بصدد

بيان خلاف التلاميذ بشان الختان ، واجتماعهم لأجل الفصل فى شأنه حينئذ رأى الرسل والمشايخ ان يختاروا رجلين منهم ، فيرسلوهما الى انطاكية مع بولس وبرنابا ، وهما يهوذا الملقب برسابا ، وسيلا ، رجلين متقدمين فى الأخوة ، وكتبوا بأيديهم هكذا : الرسل والمشايخ يهدون سلاما الى الاخوة الذين هم من الأمم فى انطاكية وسورية وكيليكية ، اذ قد سمعنا ان اناسا خارجين من عندنا ازعجوكم بأقوال مقلبين انفسكم ، وقائلين ان تختتنوا وتحفظوا الناموس ، من الذين نحن لم نأمرهم . وقد صرنا بنفس واحدة ان نختار رجلين ، ونرسلهما اليكم مع حبيبنا برنابا ، وبولس ، رجلين قد بذلا انفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح ، فقد ارسلنا يهوذا وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها ، لانه قد رأى الروح القدس ونحن — الا نضع عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، والمخنوق ، والزنى التى ان حفظتم انفسكم منها ، فنعما تفعلون ، كونوا معافين » .

فى هذا الخطاب يتبين ان المشايخ والتلاميذ يحللون للنـاس كل ما حرمه الناموس ، أى التوراة وكتب النبيين السابقين ، ولا يجعلون محرما عليهم الا اربعة أمور ، والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط . وبذلك حل لهم كل شيء حرمته التوراة ، حـل لهم الخمر والخنزير ، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمته . وبأى شيء اعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحريم ؟ قد قالوا ان ذلك بالهام من روح القدس وتجليه .

وقد ذكر صاحب سفر الأعمال عن لسان بطرس ، انه قال فى افتتاح ذلك الاجتماع الذى أصدر ذلك القرار ما نصه : « أيها الرجال الاخوة انتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا انه بفمى يسمع الأمم كلمة الانجيل ويؤمنون . والله العارف للقلوب شهد لهم معطيا لهم روح القدس ، كما لنا ايضا ، ولم يميز بيننا وبينهم بشيء ، اذ طهر بالايمان قلوبهم ، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص ، كما أولئك ايضا» .

فمن هذا النص يستفاد ان الذى سوغ لهؤلاء أن ينصرفوا جهرا عما كانوا عليه ، وعما تركهم المسيح عليه ، هو أنهم ينزل عليهم الروح القدس ، كما كان ينزل على النبيين والصديقين ، وذلك فى اعتقاد كتاب المسيحية ، وقد بينا حقيقة ذلك فى موضعه من كلامنا عن الكتب .

تحليـل لحم الخنزير مع تحريمه فى التوراة :

ولقد احلوا فيما احلوا من محرمات التـوراة لحم الخنزير وكان المعروف انه حرام فى النصرانية التى تاخذ بكتب العهـد القديم ، وعلى راسها التوراة .

ويروى ابن البطريق فى هذا المقام ان اليهود لما دخلوا فى النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى فى ايمانهم ، فاشار بطريرك القسطنطينية على قسطنطين ان يخبرهم بحملهم على اكل لحم الخنزير وقال له : « ان الخنزير فى التوراة حرام ، واليهود لا ياكلونه، فتأمر أن تذبح الخنازير ، وتطبخ لحومها ويطعمون منها هـذه الطائفة ، فمن لم ياكل علمت انه مقيم على اليهودية » منذئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، اذ نصت على التحريم التوراة المقدسة فى نظر النصارى ، كما هى مقدسة فى نظر اليهود ، وقال : « ان الخنزير فى التوراة محرم فكيف يجوز لنا ان ناكل لحمه ، ونطعمه للناس » ولكن البطريرك ما زال به حتى حمله على الاعتقاد بانه حلال ، فقد قال له : « ان سيدنا المسيح قد ابطل سائر ما فى التوراة ، وجاء بتوراة جديدة هى الانجيل ، وقال فى انجيـله المقدس ان كل ما يدخل الفم ليس ينجس الانسان ، انما ينجس الانسان كل ما يخرجه من فيه » يعنى السفه والكفر ، وغير ذلك مما يجرى مجراه . ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس راى رؤيا تفيد التحليل ، وبذلك يحللون الخنزير .

المجـــامع المسيحيـــة

تاريخهـــا — واســـبابها — وقراراتهـــا

٧٨ — قد شرحنا فيما اسلفنا من القول العقائد المسيحية ، كمـــا هى فى كتبهم ولم نتجه الى الآن لدراستها دراسة نقدية لاننا نجـــدهم يجتهدون فى تصويرها ويشعرون بعظم المشقة فى ذلك ، حتى اذا يئسوا قالوا انها فوق العقل، وأن العقل لايستطيع تصويرها تصويرا كاملا ، وانها ستنجلى يوم القيامة ، ولذلك نجد من الظلم لانفسنا ان نناقشها ، لأن العقل لا يستسيغها باعترافهم فكيف نناقشها ؟ وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا فى تصورها وتصديقها ، لا فى البرهنة لها واثباتهـــا ، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل ، ونحيل القارىء الكريم على ما كتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء ، ونخص بالاشارة كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى ، وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق ، والقول الصحيح لابن تيمية ، بلل الله ثراهم ، فان هؤلاء لم يتركوا مقالا لقائل .

ويهمنا الآن فى بحثنا التاريخى ان نبين الأدوار التى مرت عليها هـــذه العقيدة ، فانه من المقرر فى تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذى يعتقده جماهير المسيحيين ، أو الكثرة الغالبة فيهم ، لم يعلن للناس دفعة واحدة ، بل فى ازمان متفاوتة مختلفة ، وكان باعلان المجامع التى كانت تعقد من الأساقفة ، وفيها يقرر المجمع رأيا معينا ، ولا يهمنا مما كانت تقرره تلك المجامع الا ما يتعلق بالعقيدة وان كنا سنعرض احيانا لما كان يجىء فى ثنايا قراراتها من بعض النظم .

كيف وجدت فكرة جمع المجامع :

والمجامع فى المسيحية هى كما يقول علماؤهم جماعات شـــورية فى المسيحية ، قد رسم رسلهم نظامها فى حياتهم . حيث عقـــدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة ، وقرر ذلك المجمع، كما علمت قريبا ، عدم التمسك بمسألة الختان ، بل زاد فقرر عدم التمسك بشرائع التوراة ، وما وليها من سائر اسفار العهد القديم المقدس عندهم،

فيما يتعلق بالتحريم ، الا تحريم الزنى ، واكل المخنوق ، واكل الدم واكل ذبائح الأوثان ، فقد قالوا أن التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذى بينه سفر الاعمال فى اصحاحه الخامس عشر قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة .

المجامع العامة والمجامع الخاصة :

والمجامع عندهم قسمان : مجامع عامة او على حد تعبيرهم مجامع مسكونية ، اى تجمع رجال الكنائس المسيحية فى كل انحاء المعمورة ، والمجامع المكانية وهى التى تعقدها كنائس مذهب او امة فى دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها ، أما لاقرار عقيدة ، او لرفض عقائد أخرى .

ويقسم المجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان الى ثلاثة اقسام فيقول : « وهذه المجامع تنقسم بالنظر الى عدد اربابها ودرجاتهم وشوكتهم الى ثلاثة اقسام وهى : مجامع عامة ، ويقال لها مسكونية ، ومجامع ملية، أى خاصة بطائفة دون غيرها ، ومجامع اقليمية ، اى خاصة باقليم مخصوص . لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج الا الى ذكر المجامع التى تعتبر عامة ، سواء صادق عليها الجميع أو انكرها بعضهم على بعض ، لما فى ذلك من معرفة النتائج التى تولدت منها » .

هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحى ، واذا كان هو لا يعنى فى تاريخ ديانته الا بالمجامع العامة ، فنحن كذلك لا نعنى الا بها ، وقد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية الى سنة ١٨٦٩ فكانت عدتها عشرين مجمعا ، وقد ذكرها جميعا بالاجمال ، وذكر قراراتها بالاشارة وسنحذو حذوه فى بعضها ، وسنترك الاجمال الى بعض التفصيل فى بعضها الآخر ، وخصوصا فى المجامع التى كانت فى القرون الأولى للمسيحية لأنها هى التى حددت للاخلاق حدود العقيدة المسيحية فى نظر مقربها ، وهى التى رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة فى الكنائس أو بعضها الكثير الى الآن ، وهى التى فلحت الأرض لتبذر بذور هذه المسيحية التى سادت افكار المسيحيين فى الأجيال من بعد .

ونبدأ باعظم هذه المجامع ، وأبعدها اثرا ، واكبرها شأنا ، واولها وجودا واعظمها ذكرا وهو مجمع نيقية .

١ — مجمـع نيقية سنة ٣٢٥

سبب انعقاده العلم الاختلاف بينهم فى شخص المسيح :

٧٩ — اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى ، وتباعدت مسافات الخلف تباعدا شديدا ، لا يمكن أن يكون معه وفاق ، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح ، اهو رسول من عند الله فقط ، من غير ان تكون له منزلة اكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه ، أم له بالله صـلة خاصة اكبر من رسول ، فهو من الله بمنزلة الابن ، لأنه خلق من غير أب ، ولكن ذلك لا يمنع انه مخلوق لله ، لأنه هو كلمته ، ومن قائل انه ابن الله له صفة القدم ، كما لله تلك الصفة ، وهكذا تباينت نحلهم ، واختلفت ، وكل يزعم أن نحلته هى المسيحية الصحيحة التى جاء بها المسيح عليه السلام ، ودعا اليها تلاميذه من بعده ، ويظهر ان ذلك الاختلاف ، وتلك النحـل المتباينة المتضاربة المتنازعة ، وقد ظهرت بعد ان دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان ، واليونان ، والمصريين ، فتكون فى المسيحية مزيج غير تام التكوين ، غير تام الاتحاد والامتزاج ، وكل قد بقى عنده عن عقائده الأولى ما اثر فى تفكيره فى دينه الجديد ، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير ان يشعر او يريد .

ومن دخل فى ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية ارادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديدا على ضوئها ، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها .

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهادات الرومانية ، لأنهم شغلوا بدفع الأذى ، ورد البلاء واستقبال المحن والكوارث ، وكانوا يستسرون بدينهم ولا يظهرونه ، ويخفون عقائدهم ، ولا يعلنونها ، حتى اذا رزقوا الأمان ، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة ، واذا هـم لم يكونوا متفقين الا فى التعلق باسم المسـيح ، والاستمساك بالانتساب اليه ، من غير أن يتفقوا على شىء فى حقيقته ، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه ، واعتزم الدخول فى النصرانية ، ووجد هـذا الاختلاف الشديد ، أمر بعقد مجمع نيقية .

الاختلاف الخاص الذى انعقد المجمع بعده :

٨٠ — هذا هو السبب فى عقد مجمع نيقية بشكل عام ، لكن له سببا خاصا يتعلق بنوع من هذه الخلافات ، وهــو ما يسمونه فى تاريخهم بدعة اريوس ، كان هذا الرجل فى مصر داعية قوى الدعاية ، جريئا فيها ، واسع الحيــلة ، بالغ الأدب ، قد اخذ على نفسه مقاومـــة كنيسة الاسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من الوهية المسيح وتدعو اليه ، فقام هو محاربا ذلك ، مقرا بوحدانية المعبود ، منكرا ما جاء فى الاناجيــل مما يوهم تلك الالوهية .

كلام اريوس :

وقد قال فى بيان مقالته ابن البطريق : « كان يقول ان الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب اذ لم يكن الابن » .

ولم يكن بدعا فى القول بهذه الفكرة بين المسيحيين ، بل انها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله ، كما يقول المسيحيون انفسهم .

ولقد جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه : « الذنب ليس على اريوس بل على فئات اخرى سبقته فى ايجاد هذه البدع . فاخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئـــات لم يكن شــديدا كما كان تأثير اريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الالوهية ، حتى انتشر هذا التعليم وعم » .

انتشار راى اريوس وطرق محاربته :

ولقد كان لراى أريوس فى اعتبار المسيح مخلوقا لله مشايعون كثيرون ، فقد كانت الكنيسة فى اسيوط على هذا الراى ، وعلى راســها ميليتوس ، وكان انصاره فى الاسكندرية نفسها كثيرين من حيث العدد ، اقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون ، كما كان لهذا الراى مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية .

وقد اراد بطريرك الاسكندرية ان يقضى على هذه الفكرة ، فلم يعمد الى المناقشة والجدل ، حتى لا يتسع الخرق على الراقع ، وحتى لا يلحن بالحجة عليه اريوس ، ولكنه عمد الى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة .

وبينى ذلك على انه راى المسيح يتبرا من اريوس ويلعنه ، نفى من الكنيسة مرتين لهذا الراى ، وبحجة تلك الرؤى المناميــة ، ومن امثلتهم قوله

البطريرك بطرس الذى امر بنفيه : « ان السيد المسيح لعن اريوس هذا فاحذروه ، فانى رايت المسيح فى النوم مشقوق الثوب ، فقلت له يا سيدى من شق ثوبك ؟ فقال لى : اريوس ، فاحذروا ان تدخلوه معكم » .

ولم يجد النفى واعلان الرؤى والاحلام فى القضاء على راى أريوس وجمع الناس حول قوة الكنيسة ، حتى اذا ولى امر الكنيسة البطريرك اسكندر اخذ يعالج المسالة بنوع من الحيلة والصبر ، فكتب الى اريوس وزعماء هذا الراى يدعوهم الى راى كنيسة الاسكندرية ، ولكن محاولته لم تجد ايضا ، فعقد مجمعا فى كنيسته بالاسكندرية وحكم على اريوس بالحرمان منها فلم يخضع لهذا ولم يخنع، وغادر الاسكندرية الى فلسطين .

وقد كان مذهب عدم الوهية المسيح ذائعا منتشرا ، وكان أسقف مقدونية على مذهب اريوس ايضا ، ويعظ على اساسه ، وفى الحق اننا نجد ان أسقف مقدونية واسقف فلسطين ، وكنيسة اسيوط ، كل أولئك على راى اريوس ، وكنيسة الاسكندرية وحدها هى التى تحاربه ، فالخلاف محصور اذن بين اريوس ، ومعه اسيوط وفلسطين ، ومقدونية وبين بطريرك الاسكندرية .

تدخل قسطنطين وجمع مجمع نيقيا :

٨١ — وقد تدخل قسطنطين امبراطور الرومان فى الأمر ، فأرسل كتابا الى اريوس والاسكندر يدعوهما الى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، ولكنهما لم يتفقا ، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ .

ويقول ابن البطريق المسيحى فى وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : « بعث الملك قسطنطين الى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية واربعون والفان من الاساقفة . وكانوامختلفين فى الآراء والأديان ، فمنهم من كان يقول ان المسيح وامه الهان من دون الله ، وهم البربرانية ، ويسمون المريميين ، ومنهم من كان يقول ان المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها ، وهى مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة اشهر ، وانما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة دخلت فى اذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهى مقالة البيان واشياعه » .

ومنهم من كان يقول ان المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منـــا فى جوهره ، وان ابتداء الابن من مريم ، وانه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الانسى صحبته النعمة الالهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله ، ويقولون : الله جوهر قديم واحد ، واقنوم واحـــد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس ، وهى مقـــالة بولس الشمشاطى بطريرك انطاكية واشياعه ، وهم البوليقانيون .

ومنهم من كان يقول انهم ثلاثة آلهة لم تزل : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما ، وهى مقالة مرقيون اللعين واصحابه ، وزعموا ان مرقيون رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس ، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا » أ . هـ . المراد منـــه .

موقف قسطنطين من المتناظرين :

اجتمع أولئك المختلفون ، وسمع قسطنطين مقـــالة كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم ان يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من ، واخلى دارا للمناظرة ، ولكنه جنح اخيرا الى رأى بولس ، وعقد مجلسا خاصا للأساقفة الذين يمثلون هـــذا الرأى وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة .

انحيازه لرأى مؤلهى المسيح مع انهم ليسوا الكثرة :

ويقول فى ذلك ابن البطريق : « وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا مجلساً خاصا عظيما ، وجلس فى وسطهم واخـــذ خاتمه ، وسيفه ، وقضيبه . فدفعه اليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى ، لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنـــه ، ووضعوا له اربعين كتابا فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة ان يعملوا به » .

العقيدة التى فرضها المجمع :

وضع هـــذا المجمع المحدود من الأساقفة قرارات فى العقيـــدة والشرائع ، ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمنا الا بيان العقيدة التى قررها المجمع وفرضها على المسيحيين .

وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية ، فقال عنها ما نصه :
« ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وانه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء . أو من يقول ان الابن وجد من مادة أو جوهر غير الله الآب ، وكل من يؤمن انه خلق ، أو من يقول انه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران » .

قراراته تؤيد برهبة السلطان :

٨٢ — اذن قرر المجمع الوهية المسيح ، وانه من جوهر الله ، وانه قديم بقدمه ، وانه لا يعتريه تغيير ولا تحول ، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ اسقفا ، ويخالفهم فى ذلك نحو سبعمائة والف اسقف ، وان لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة ، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ ان باب النقد فيه متسع .

النقد الموجه الى المجمع :

(أ) واول ما يلاحظه الناقد ان الذين دعوا اليه ، وجابوا الأمصار ووصلوا الى نيقية بدعوة من قسطنطين ، ويتفاهم البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية وأربعين والفين من الأساقفة ، ولكنا نجد العدد ينزل الى ثمانية عشر وثلاثمائة اسقف ، فما هى آراء الباقين ؟ ولماذا اهملت كل هذا الاهمال ؟ أكانوا جميعا مختلفين فى النحل والآراء ، حتى ان نحلة لم يصل عددها الى ٣١٨ ، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التى يزيد عددها على النصف ، ولو واحدا ، اتجهوا الى الأخذ بالكثرة النسبية ، وهو اعتناق الراى الذى ياخذ به أكبر عدد فى الأصوات وان لم يصل النصف او يقاربه ؟ ان المروى غير ذلك ، لأن ابن البطريق يقول : ان قسطنطين هو الذى اختار أن يعقد أولئك الأساقفة الذين يبلغون ٣١٨ مجلسا خاصا بهم ، وحضر هو المجلس ، واعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم افلجوا على اخوانهم فى زعم ابن البطريق المسيحى التثليثى ، ولأن الرواة يقولون أن أريوس لما اجتمع بهم والتى بدعوته ونحلته اليهم انضم الى آرائه اكثر من سبعمائة اسقف ، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة ، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية ، لكان الواجب اذن ان يكون الغلب لأريوس الذى

احتج بما تحت أيديهم من اناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على الوهية المسيح قرر تحريفها .

الرغبة والرهبة من السلطان لهما دخل فى القرارات :

ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل فى تكوين راى الذين رأوا الوهية المسيح ، فلقد يروى ان اولئك الـ ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بالوهية المسيح ، ولكن تحت سلطان الاغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه اليهم شارة ملكه ليتحكموا فى المملكة اجمعوا. فقد دفعهم حب السلطان الى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلسا خاصا بهم دون الباقين ، لاعتقاده امكان اغرائهم . فأمضى اولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب ، أو هما معا . وبذلك قرروا الوهية المسيح ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ، ورهبةالحكام.

المجمع فرض لنفسه سلطانا كهنوتيا على الناس :

(ب) ان المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس اوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأسا ، بل لا بد من تلقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت ، وان أقوالهم فى ذاتها حجة ، سواء أخالفت النصوص أم وافقت ، وسواء أكانت الصـــواب ، أم جافت الحق ، وان ذلك كان له ما بعده فى المسيحية . وهو مخالف كل المخالفة لما جاء فى تعاليم المسيح المنصوص عليها ، حتى كتبهم التى يقرءونها ويعترفون بها ، فقد جاء فى الاصحاح العشرين من انجيل متى ما نصه : « رؤساء الأمم يسودونهم ، والعظماء يسلطون عليهم ، فلا يكن فيكم هذا » ولكن العلماء تسلطوا على اخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيبه ، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين .

أمره بتحريق ما يخالفه :

(جـ)ان المجمع أمر بتحريق الكتب التى تخالف رأيه ، وتتبعها فى كل مكان ، وحث الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا يمنع أن يصل الى الناس علم بأى أمر من الأمور التى تخالف رأيه ، وهو بهذا يحاول التحـــكم فى القلوب ، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه ، ومنعها

منعا باتا جازما من أن تقرأ غيره ، ويسد عليها منافذ النور للاهتداء الى ما يخالفه ، ولعل المجمع مخطىء فى ذلك التحريم ، وآثم فى ذلك التحريف ، بل ان المجامع العامة من بعد قد خطأته ، فاعادت الى حظيرة التقديس كتبا حرمها ، واخرجت من البلى كتبا حرقها ، قد حرم كتبا من العهد القديم ، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجامع المسيحية من بعده ، وحرم من كتب النصارى المعتبرة الآن : رسالة بولس الى العبرانيين ، والرسالة الثانية لبطرس ، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ، ورسالة يعقوب ، ورسالة يهوذا ، ومشاهدات يوحنا ، ولكن المجامع من بعد اقرتها ، واجمعت عليها .

اذن لم يكن المجمع مصيبا من كل الوجوه ، وان اخطأ فى معرفة الصحيح من الكتب ، فآراؤه الأخرى اكثر عرضة للخطأ واكثر استهدافا للنقد ، لعل اشذها صلة بالباطل ، واقربها به رحما ، وادناه اليه هو ما يتعلق بالعقيدة .

قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر :

(ذ) بقى أمر نشير اليه اشارة خفيفة ، وهو مقام قسطنطين فى المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع ، اكان مسيحيا عالما بالمسيحية فى ذلك الابان ، حتى ساغ له أن يحكم لبعض المجتمعين ، وان لم يكونوا الكثرة على اى اعتبار كانت الكثرة ، اكثرة مطلقة أم كثرة نسبية ؟ .

يقول المؤرخ أبوسيبوس الذى تقدس كلامه الكنيسة ، وتسميه سلطان المؤرخين : « ان قسطنطين عمد حين كان أسير الفراش ، وان الذى عمده هو ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقا » .

والتعميد اعلان دخول المسيحية ، اذن فقسطنطين ما كان مسيحيا فى ابان انعقاد ذلك المجمع ، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء ، ويسوغ لنا أن نقول انه كان له فى هذا أرب خاص ، وهو تقريبها من وثنيته ، أو على الاقل عندما رجح رأى فريق على فريق كان يرجح ما هو اقرب الى وثنيته ، وأدنى الى ما يعرفه من عقيدة ، فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار ، او كان متهما فى ترجيحه بناء على الاعتبار الاول ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فهو قد رجح ما هو اقرب الى الوثنية لوثنيته .

تلقى المسيحيين لقرارات المجمع :

٨٣ — ولكن هل أمات ذلك الرأى الوحدانية التى كان يجاهر بها أريوس ، وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها ؟ انه لو فرض ابعد الفروض عن الحق ، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأى أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعو اليه لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة ، وقوة الاقتناع بها ، وسهولة دخولها الى العقل ، واستساغته لها ، ولذلك لم يقض المجمع على فكرة الوحدانية. بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سببا فى شـــدة الاستمساك بها ، والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراد بها .

ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للاحتفاظ بها وحياطتها ، واتخذوا الخديعة سبيلا لذلك . فتقربوا من قسـطنطين واظهروا له الاقلاع عما كانوا عليه ليعودوا الى ما كان لهم من مناصب . ويستطيعوا مناصرة فكرتهم . ولينالوا ثقة قسطنطين . ومن طريق هــذه الثقة ينفذون الى نفسه . ويقنعونه هو بالتوحيد . ليستطيع ان يخدمــه بسلطانه وقوته . كما خدم الوهية المسيح ، او على الأقــل ليقف موقف الحياد ويترك الآراء تسير فى مجراها الطبيعى . ولنقص عليك محاولة من محاولات الموحدين .

مجمع صور يرفض بالاجماع قرار مجمع نيقية :

يذكر ابن البطريق ان أوسابيوس أســقف نيقومدية كان موحــدا من مناصرى اريوس فى المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرته . ولعن من أجل هذا وأراد ان يتقرب من قسطنطين « فاظهر انه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فازال عنـــه اللعنة قسطنطين . وجعـــله بطريرك القسطنطينية ، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية فى الخفاء فلما اجتمع المجمع الاقليمى فى صور حضره هو وبطريرك الاسكندرية الذى كان يمثل فكرة الوهية المسيح ويدعو اليها ، وينفرد من بين البطاركة فى المبالغة فى الدعوة اليها ، والحث عليها ، ولعن كل من يقاومها .

وانتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع واثار مقالة اريوس ، ورأيه فى المسيح وانكار الوهيته . وكان فى ذلك المجمـــع كثيرون من الموحـــدين المستمسكين به ، اذ لم يحتاطوا بابعادهم ، كما فعلوا فى المجمع العـــام

بنيقية . واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الاسكندرية ، وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولى بل امتدت الأيدي الى بطريرك الاسكندرية وعمدت الى راسه لاخراج الوثنية منها ، فضربوه حتى أدموه ، وكادوا ان يقتلوه ، ولم يخلصه من ايديهم الا ابن اخت الملك الذى كان حاضرا ذلك الاجتماع ، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه .

ما يستنبط من هـــذا :

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تاييد الراى بالعصا وجمع اليد، ولكن سقناه ليتبين منه القارىء مقدار حماسة الموحدين من اهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد ، وانهم فى تلك الحماسة لا يأبهون لشىء ، ولا يهمهم اغضاب ذوى السلطان أو ارضاؤهم ، وسقناه لتعلم ان الموحدين كمـــا يظهر من رواية الكتب المسيحية ، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة فى المسيحيين ، ففى مجمع نيقية كانوا الكثرة ، وفى مجمع صور الخاص كانوا الجميع ما عدا رئيس كنيسة الاسكندرية . واذا كانوا الكثرة فى المؤتمرات خاصة وعامة ، فلا بد ان يكونوا الكثرة فى جمهور المسيحيين .

واذن تكون فكرة الوهية المسيح هى العارضة والأصل هو التوحيد كما يستنبط القارىء من المصادر المسيحية نفسها . وسقناه لتعلم ان قسطنطين كان يشجع دائما المخالفين للتوحيد . وان كان لا يظهر السخط على غيرهم احيانا . وسقناه لتعلم ان مجمع صور كان يخالف كل المخالفة مجمع الثمانية عشر والثلاثمائة . واخيرا سقناه لتعلم ان موطن الدعاية لالوهية المسيح كانت كنيسة الاسكندرية وحـــدها ، فهى التى حاربت أريوس ، وهى التى لعنته مرتين ، ورئيسها هو الذى خالف فى صـــور ، ونال عقاب المخالفة جزاء وفاقا .

فهل لنا ان نقول ان التثليث الذى اشتملت عليه فلسفة الاسكندرية كان يعلن على السنة بطاركتها . وانهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بآرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام ؟ ان ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح لمن اراد ان يعرف كيف حالت المسيحية من توحيد الى تأليه المسيح ، فليستعن به .

نشـــاط الموحدين :

٨٤ — ولم ين الموحدون عن اعلان الاستمساك بعقيدتهم ، وتخطئة

الذين أعلنوا ألوهية المسيح ، ومعهم فى ذلك الكثرة العظمى من المسيحيين، كما يدل على ذلك ما سننقله من تاريخ ابن البطريق ، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين ابن قسطنطين الى رأيهم بعد أن مات أبوه ، فاجتمعوا به . وحسنوا رأى الموحدين له ، وبينوا له انه صميم المسيحية ، وأن الأساقفة الذين ناقضوه خالفوا وجه الحق ، ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التى بشر بها بين الأنام ، ولكنه لم يعمل على نصرتهم ، ولم يعاونهم فى دعايتهم ، مع أن أكثر المسيحيين فى ذلك العصر كانوا موحدين .

يقـــول ابن البطريق : « فى ذلك العصر غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية ، وانطاكية وبابل ، والاسكندرية » . واسيوط قد علمت أن كنيستها كانت موحدة .

ويقول فى بيان حال الاسكندرية ومصر بعد الاجمال السابق « فأما أهل مصر والاسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ، فغلبوا على كنائس مصر والاســـكندرية وأخذوها ، ووثبوا على اثناسيوس بطريرك الاســـكندرية ليقتلوه ، فهرب منهم واختفى » .

وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ويحثون على الاستمساك به ، وكلما ولى أسقف غير موحد ثاروا به ، وهموا بقتله ، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت المقدس لم يكن موحدا فيثور عليه الموحـــدون ، ويهمون بقتله فيهرب منهم ، فيقول فى ذلك « وثب أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسيا على كورلس أسقف بيت المقدس ليقتلوه ، فهرب منهم ، فصيروا أراقليوس أسقفا على بيت المقدس ، وكان أريوسيا » .

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح ، الأولى تغالب بالكثرة وقوة الايمان ، وســـعة الحيلة ، والثانية بقـــوة السلطان ، وبقايا الوثنية والذين كانوا متأثرين بها ، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون ، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا ، وامكنته التقاليد من نفوسهم . ولكن قـــوة السلطان طمست نور المذهب الأول . اذ انها احتاطت فجعلت كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين . واحتاطت أشد الاحتياط فى ذلك ، وأخذ أولئك يسيطرون على قلوب العامة بالرؤى والأحلام والالهامات يزعمونها ، حتى اختفى المذهب الحق فى لجة التاريخ ، ولم يبد على السطح الا ألوهية المســـيح .

٢ — المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١

سبب انعقاده :

٨٥ — تقرر فى مجمع نيقية أن المسيح اله ، وانه ابن الآب وانه جوهر قديم من جوهر الآب ، ولم يتعرض للروح القـدس أهو اله أم روح مخلوق ، وليس باله . ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قرارا فى هذا الأمر ، لذلك ظهرت افكار بين المسيحيين لا تعترف له بالوهيته ، ويظهـر أن الاسكندرية التى كانت مهدا للأفلاطونية الحديثة التى تقـول بالتثليث وان المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه ، قوة المكون الأول ، والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) — تريد أن تفرض ذلك فرضـا على المسيحيين ، كما كانت العامل القوى فى اعلان الوهية المسيح .

عدد المجمع والطعن فى كونه عاما :

اخذ يجاهر رجل اسمه مقدونيوس بأن الروح القدس ليس باله ، ولكنه مخلوق مصنوع ، وشاعت مقالته بين الناس ، ولم يجدوا فيها نكرا ولا أمرا لا يقره العقل أو تأباه المسيحية . فاجتمع الى الملك ذوو الأمر من وزرائه وقواده ، وبلغوه أن العامـة قد فسـدوا ، فهم ما زالوا متأثرين بوحدانية أريوس ، واعتنقوا مذهب مقدونيوس فى أن الروح القدس ليس باله قديم ، بل هو مخلوق مصـنوع ، وحرضـوه على أن يجمع جمعا من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوى ويدحضون قول مقدنيوس . فاجتمع فى القسطنطينية خمسـون ومائة أسقف وكان المقـدم فيها بطريرك الاسـكندرية ، ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلا لكل الكنائس . ولكل الأقاليم ، ولذلك كان اعتباره مجمعـا عاما من الأمور التى ثارت حولها الأقوال .

فيقول فى ذلك صاحب كتاب سوسـنة سـليمان : « قال الرهبان البندكيتيون ان المجمع الذى لم يكن أربابه الا مائة وخمسين أسقفا لا ينظم فى سلك المجامع المسكونية الا بعد أن تقره جميع الكنائس » .

بطريرك الاسكندرية هو الذى يقرر الوهية روح القدس :

اجتمع هذا المجمع فى القسطنطينية ، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة فقر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية ، وبذلك نحى عنها رئيس كنيسة الاسكندرية . وكان لذلك اثره فى نفوس تابعى تلك الكنيسة كما جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية . ولكن مع ابعاد ممثل كنيسة الاسكندرية عن مكان الرياسة ، وموضع الزعامة الذى كان لسلفه فى مجمع نيقية كان هو المقدم فى المناقشة ، وتقرير الرأى الذى اجمع عليه المؤتمر بعد ذلك ، وهذا ما نقله ابن البطريق عنه بنصه : (قال ثيموثاوس بطريق الاسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئا غير حياته . فاذا قلنا ان روح القدس مخلوق ، فقد قلنا ان حياته مخلوقة واذا قلنا ان حياته مخلوقة ، فقد زعمنا انه غير حى ، واذا زعمنا انه غير حى فقد كفرنا به ، ومن كفر به وجب عليه اللعن) .

قرار المجمع يوافق رأى بطريرك الاسكندرية :

واتفقوا على لعن مقدونيوس ، فلعنوه هو واشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده ، ويقولون بمقالته ، اذن كان للاسكندرية فضل الصدارة فى القول ، والقيادة فى الرأى العام ، وان لم تكن لها الرياسة .

نظرة فاحصة :

ونريد ان نستطرد استطرادة صغيرة عاجلة ، وهى ان ننظر فى تلك السلسلة الفكرية التى ساقها فى شكل دليل شرطى كثرت مقدماته وكثرت تالياته ، وان نظرة سريعة فاحصة الى الأساس الذى قامت عليه السلسلة ترينا أنه جعل روح القدس هى روح الله ، وهذا لا يسلمه له مخالفه . ولا يستطيع هو ان يقيم عليه دليلا .

ان روح القدس خلقه الله ، واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحيا من خلقه أو أمرا كونيا ، فهى ليست روح الله المتعلقة

بذاته ، وليس عنده من دليل على ما قال ، ولكن هكذا ســاق السلسلة ، وهكذا اقتنع سامعوه . وبذلك تم له الثالوث الذى يتشابه تماما مع فلسفة الاسكندرية ، وقد اعلنها بطريرك الاسكندرية ، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الاقنوم الثالث .

ويقول ابن البطريق فى بيان قرارهم : « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر اسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية الايمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له ، وممجد وثبتوا ان الآب والابن وروح القـدس ثلاثة اقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاثة خواص ، وحدية فى تثليث ، وتثليث فى وحدية ، كيان واحد فى ثلاثة اقانيم . اله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة » .

اذن تقرر التثليث ، وتمت اقانيمه ، ولكن ما زال للمؤتمرات العامية والمجامع العامة موضع ، فان طبيعة المسيح الانســانية والالهية ، كيف تجتمعان ؟ هذا موضع الخلاف . ولهذا تجتمع المؤتمرات .

٣ — مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

سبب انعقاده :

٨٦ — أول اختلاف بينهم بعد تقرير الثالوث أن بطريرك القسطنطينية نسطور رأى أن هناك اقنوما وطبيعة ، فاقنوم الالوهية من الآب . وتنسب اليه . وطبيعة الانسان وقد ولدت من مريم . فمريم أم الانسان ، وليست أم اله .

ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم ، كما نقله عنه ابن البطريق : « ان هذا الانسان الذى يقول انه المسيح . بالمحبة متحد مع الآب ، ويقال انه الله وابن الله ليس بالحقيقة ، ولكن بالموهبة » .

ويظهر من هذا أن المسيح الذى ظهر بين الناس لم يكن الها بحال من الأحوال ، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس .

ولذا جاء فى تاريخ الأمة القبطية عن نحلته ما نصه :

النسطوريون ينكرون الوهية المسيح :

« أما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت من اختلاف فى عقائد وضعها الآباء والأحبار ، بل هى جوهرية تختص بأعظم موضوعات الايمان والأركان فى الدين المسيحى ، ذلك ان نسطور ذهب الى ان ربنا يسوع المسيح لم يكن الها فى حد ذاته ، بل هو انسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمرا ادا » .

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بالوهية المسيح . وان كان يعتقد أنه فوق الناس ، وليس مثلهم ، ولقد جهر بهذا الرأى ، ونادى به ، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية ، ولها مكانتها ، ولكن خالفه غيره من الأساقفة ، فكان أسقف روما يعلنه برأيه المخالف له ، مع ما عند نسطور فيما رآه من بينات ، وأدلة .

ولقد بلغت مقالة نسطور بطريرك الاسكندرية ، وجرت المراسلات بين أسقف الاسكندرية واساقفة انطاكية ورومة وبيت المقدس ، فاتفقوا على عقد مجمع افسس للنظر فى هذا الرأى ، واعلان صاحبه بالتبرؤ منه ،

ولعنه ان اصر على رايه ، ودعوه ليسمع حكمهم فى رايه . ويظهر أنه عرفه قبل ان يجتمع المجمع . وانهم مصرون على ما اعلنوه ، كما انه مصر على رايه ، فلم يجد كبير فائدة فى حضور المجمع ، فلم يحضر لا هو ولا بطريرك انطاكية .

وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين من الأساقفة ، وقرروا ما نصه كما جاء فى تاريخ ابن البطريق :

« أن مريم العذراء والدة الله ، وان المسيح اله حق وانسان معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم » ولقد لعنوا نسطور .

قرار المجمع والاحتجاج عليه :

فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريرك انطاكية غضـــب ، واحتج على المجمع ، فاختلف المجتمعون على رايين ، واصر المشرقيون على الراى الذى أعلنه المجلس اولا ، وكتبوا صحيفة فيها « ان مريم القديسة العذراء ولدت الهنا وربنا يسوع المسيح الذى مع ابيه فى الطبيعة ، ومع الناس فى الناسوت والطبيعة » واقروا بطبيعتين ، ووجه واحد وأقنوم واحد ، خالفهم بطريرك الاسكندرية أولا ، ولكن يقول ابن البطريق انه وافق بعد ذلك وكتب اليهم : « ان امانتى التى فى صحيفتكم » .

انتشار النسطورية فى الشرق :

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار . فنفى الى مصر . ولم يندرس مذهبه بذلك النفى ، ولقد وجد ارضا صالحة لها فى الشرق ، فلقد نهضت النسطورية فى نصيبين ، ويقول ابن البطريق : « تكاثرت النسطورية فى المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة » .

٤ — مجمع خليكدونية سنة ٤٥١

. كنيسة الاسكندرية تعلن ان المسيح اله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة :

٨٧ — ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف فى مسالة اجتماع العنصر الإنسانى والعنصر الالهى فى المسيح ، فلم يقض على نحلة نسطورس قضاء مبرما ، وان كان قد نفاه وآذاه ، بل نمت نحلته بعد ذلك فى المشرق ، وذاعت فى البلاد التى ذكرها ابن البطريق ، ولم يتم الخلاف فى ذلك منذ نسطور وأتباعه ، بل أن كنيسة الاسكندرية قد خرجت هى الأخرى برأى جديد عرضته على الملأ من الأساقفة وجمعوا له جمعا قرروه فيه ، وذلك الرأى أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت ، وانعقد لأجل هذا مجمع افسس الثانى الذى تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص، وفى هذا المجمع اعلن ذلك الرأى .

فلما عارضه بطريرك القسطنطينية واعلن انسحابه من المجلس ، وعدم احترامه ، أمرهم رئيس المجلس باعلان حرمانه ، وحدث خارج المجلس صخب شديد ، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة القسطنطينية وقد اشتد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، اهو صحيح محترم السلطان ، أم هو مجمع غير عام لا تلتزم بآرائه الكنائس كلها ؟ واشتد الاختلاف فى قرارات الحرمان التى أصدرها ، اهى محترمة واجبة التنفيذ ، أم هى باطلة ، لأنها صادرة عن غير سلطة ؟ حتى جاءت ملكة على الرومان تخالف ذلك الرأى ، وتميل لغيره . فلتنفيذ رأيها فى هذا الخلاف الشديد حول مجمع افسس الثانى وقراراته — أمرت ، هى وزوجها ، بعقد مؤتمر عام ، فاجتمع فى مدينة خليكدونية ستمائة وثلاثون أسقف ، وكان الاجتماع تحت اشراف زوج الملكة ، واجتمع فى شهر اكتوبر سنة ٤٥١ .

طلب انسحاب بطريرك الاسكندرية ورفض الطلب :

وتقول مؤلفة تاريخ كتاب الأمة القبطية : « وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية انسحاب ديسقورس بطريرك الاسكندرية من المجلس ،

فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الاسباب التى تلجىء المجمع الى اخراج هذا البطريرك من قاعته ؟ فكان اعتراض هؤلاء ان ديسقورس شكل مجمعا دون ان يستأذن الكرسى الرسولى ، ويقصدون بالكرسى الرسولى بابا القسطنطينية .. فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الراى السقيم ، وقرر المجمع بقاء ديسقورس ، ولكن على غير كرسى الرياسة ، كما كان فى المجمع السابق لانها اصبحت فى يد رجال الامبراطورة، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات فى اثناء الاجتماع مما جعل مندوبى الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان احدهم : « انه لا يجدر بالأساقفة وائمة الدين أن يأتوا مثل هذه الاعمال الشائنة من صياح ، وصراخ ، وسب، وقذف ، وضرب ولكم . بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب فى الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد ، ولذلك نرجوكم ان تستعملوا البرهان بدل المهاترة ، والدليل عوضا عن القول الهزاء ، واميلوا آذانكم الى سماع ما سيتلى عليكم » .

الشغب فى المجمع :

وسارت المناقشة بعد ذلك فى جو عنيف متعصب وانتهى المجمع الى ان قرر ، أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحده . التقتا فى المسيح .

قرار المجمع ان المسيح له طبيعتان :

وقد قال ابن البطريق فى بيان قرار المجمع : « قالوا ان مريم العذراء ولدت الهنا ، ربنا يسوع المسيح الذى هو مع ابيه فى الطبيعة الالهية ، ومع الناس فى الطبيعة الانسانية ، وشهدوا ان المسيح له طبيعتان ، واقنوم واحد ، ووجه واحد ، ولعنوا نسطوريس ، ولعنوا ديسقورس ، ومن يقول بمقالته ، ونفوه ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بافسس وقد نفى ديسقورس الى فلسطين » .

الانشقاق ومداه :

٨٨ — هنا نرى انشقاقا بين المسيحية المثلثة ، واختلافا يكون بعيد المدى فى الأجيال المقبلة ، وهو أساس اختلاف الكنائس الى يومنا الحاضر.

فهذا المجمع يرى ان المسيح له طبيعتان احداهما انسانية يشارك فيها الناس والاخرى لاهوتية ، والاقنوم الابن مكون من الطبيعتين ، وهو بذلك يخالف النسطوريين . لانهم يقولون : ان اقنوم الابن لم يكن من العنصرين ، بل من العنصر الانسانى وحده ، ويخالف قرار افسس الثانى الذى يقول ان المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى من الروح القدس ، ومن مريم العذراء مصيرا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة ، وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة .

فان المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا ، واجمعوا امرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع .

عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريركهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا ، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذى اصدر هذا الحكم ، واعلنوا رضــاهم ببقاء بطريركهم رئيسا عليهم ، ولو انه محروم محجوب ، وان ايمانه ومعتقده هو عين ايمانهم ومعتقدهم ، ولو خالفــه فيهما جميــع اباطرة القسطنطينية ، وبطاركة رومية ، ولقد اعتبر المصريون ان الحكم الذى صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية ، مجحف بحقوقهم السياسية ، ولو انه حــكم دينى صرف » .

ولقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فثار المصريون وغضبوا عندما راوا بطريركا يعين على غير مذهبهم ، وعلى غير رغبتهم ، واستمروا على غضبهم ، فصاروا ينتقضون الحين بعد الحين ، كلما لاحت لهم الفرصة ، وديسقورس لم يمنعه النفى من ان يدعــو المسيحيين الى اعتقاده فى منفاه .

ويقول ابن البطريق : « لما نفى سار إلى فلســطين ، وبيت المقدس فافسد دين كل من بفلسطين وبيت المقدس ، حتى قالوا بمقالته » .

المصريون يرفضون تعيين بطريرك على غير مذهبهم :

٨٩ — ولقد كان الاختلاف يشتد كلما عين الرومان بطريركا ، فان المصريين يرفضونه محتجين بانه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم ، ويجب أن يكون بطريركهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذى ارتضوه دينا ، وباختيارهم ، فكان بعض الأباطرة يأخذهم بالعنف ، وأولئك هم الأكثرون ، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة ، فيترك لهم الحرية فى اختيار بطريركهم ، والاطمئنان الى مذهبهم ، وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحيانا على نهج من الهوادة والرفق ، وأحيانا كثيرة على شطط وعنف .

يعقوب البرادعى ونسبة المذهب المصرى اليه :

وفى هذه الأثناء يتغلغل فى ربوع الدولة الرومانية الدعاة الى المذهب المصرى والدعاة الى المذهب الرومانى أو مذهب رومية مقر الأباطرة أو المذهب الملكى كما سماه العرب من بعد .

ولقد ظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى المعارضة ، بليغ الأثر ، اسمه يعقوب البرادعى ، قد أخذ يجول فى وسط القرن السادس الميلادى فى البلاد الرومانية الى مصر ، يدعو الناس الى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ، ويبث ذلك المذهب فى نفوسهم ، ويدخله فى قلوبهم ، وسلك فى سبيل ذلك المخاطرة والجراءة ، لا يأبه لقوة مهما تكن ، ولا لذى خطر مهما يكن شأنه .

وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « قيل انه رسم ٨٩٠ أسقفا ، وألوفا من الكهنة والقسوس ، ومن ذلك الحين اطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون الى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقا من اسم يعقوب البرادعى زعيم هذا الحزب » .

ولكن من الخلط الكبير ، والخبط الذى يدل على الجهل اطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ، لأن مذهبها نشأ قبله ، وهو تبعه ، اذ لا علاقة لها بيعقوب ، أما اذا سميت الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية فانت مصيب غير مخطىء ، لأن هذا الاسم صار علما للكنيسة

المذكورة من بعد الفتح الاسلامى ، وهو اسم معربى الأصل مشتق من كلمة ملك ، ومعناها الذين ينحازون الى الملك ، أو الامبراطور الرومانى مذهبا وسياسة » .

انفصال الكنيسة المصرية نهائيا :

٩٠ — ولقد كان قرار مجمع خليكدونية هـو السبب فى انقسام الكنائس ، أو بعبارة ادق هو السبب فى انفصال الكنيسـة المصرية عن الكنيسة الغربية ، ولقد لخص صاحب كتاب تاريخ المسيحية فى مصر عقيدة الكنيسة المصرية فقال : « كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت ايمانها من كيرلس ، وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية ، والسريانية الأرثوذكية تعتقد بأن الله ذات واحـدة مثلثة الاقانيم ، اقنوم الأب ، واقنوم الابن ، واقنوم الروح القدس ، وأن الاقنوم الثانى اى اقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . فصير هـذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط ، والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة » .

هذه هى قرارات تلك الكنيسة ، وهى تخالف ما تقرر فى مجمع خليكدونية كما علمنا .

المجـــامع الباقيـــة

المجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة :

٩١ — عنينا ببيان المجامع الأربعة السابقـة ببعض التفصيل ، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الاطناب ، لأنها المجامع التى قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة .

فأولها قرر الوهيـة المسيح ، وثانيها قرر الوهية الروح القدس ، وثالثهـا قرر أن المسيح اجتمـع فيه الانسان والاله ، لا الانسان فقط ، وان مريم ولدت الاثنين ، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين ، لا طبيعة واحدة متحدة ، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين اجمعين ، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمعا عاما فى نظر المصريين ، والكنائس التى تنهج نهج كنيستهم .

والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد اجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكونى كما يعبرون ، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعـد انشقاقها على كنيسة رومـة ، أو انشقاق كنيسة روما عليهـا .

وانا نشير الى هذه المجامع اشارة ، ولا نعرج عليها بتفصيل لذلك ، ولأن قراراتهـا كانت فى فروع جزئيـة لا تتصل بلب التثليث الا فى بعض المجامع ، وبقدر يسير ، لا يمس الجوهر ، ولا يتغلغل فى صميمه ، وقـد نعرض لهذا بقليل من التفصيل .

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ ، ويسمى المجمع القسطنطينى الثانى .

المجمع القسطنطينى الثانى وسبب انعقاده :

ويذكر ابن البطريق أن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة أعتنق فكرة تناسخ الأرواح ، وسار فيها الى أقصى مداها . حتى لقد قال انه ليس هناك قيامة ، وبسبب أن بعض الأساقفة قـد زعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة ، بل كان خيالا ، فاجتمع لذلك هذا المجمع ، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة ، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة ، ولعنهم

وطردهم من زمرة المسيحيين ، ولم يكتفوا فى اجتماعهم باصدار قرارهم فى هذه الأمور ، بل ثبتوا قرارات المجامع السابقة ، ومنها قرار مجمع خليكدونية ، وبذلك ثبتوا عقيدة كون المسيح ذا طبيعتين ، واكدوا انكار الطبيعة الواحدة التى اعتنقتها كنيسة مصر ، ومن والاها من المسيحيين .

المارونية :

٩٢ — وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون فى القرن السابع الميلادى سنة ٦٦٧ كان يقول ان المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى اقنوم واحد ، ولكن يظهر ان هذه المقالة لم ترق فى نظر البطارقة لذلك ، فاوعزوا الى الامبراطور ان يجمع جمعا مليا فى زعمهم ، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين ، وذو مشيئتين ، بعد أن استوثقوا من ان الامبراطور ، واسمه يوغاتوس على رأيهم ، بمكاتبات تبادلوها معه .

فقد جاء فى احد كتبه : « نحن نقر ، ونؤمن بطبيعتين ، ومشيئتين ، وفعلين لسيدنا المسيح ، واقنوم واحد ، ونلعن من خالف هذا » .

مجمع القسطنطينية الثالث :

اجتمع كذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ م وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة . كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة ، وكان مؤلفا من نحو تسعة وثمانين ومائتى اسقف . وبعد أن قرروا لعن وطرد من يخالفهم كشأنهم دائما .

قالوا : « اننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذى هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله فى اقنوم واحد ، ووجه واحد ، يعرف تماما بناسوته ، تماما بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى اقنوم واحد ، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدونى ان الاله الابن فى آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسدا انسانيا بنفس ناطقة عاقلة ، وذلك برحمة الله محب البشر ، ولم يلحقه فى ذلك اختلاط ولا فساد ، ولا فرقة ولا فصل ، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الانسان ان يعمله فى طبيعته ، وما يشبه الاله ان يعمله فى طبيعته ، الذى هو الابن الوحيد ، الكلمة الأزلية المتجسدة التى صارت

لحقه لحما كما يقول الانجيل المقدس من غير أن تنتقل من مجدها الأزلى وليست بمتغيرة ، ولكنهما بفعلين ، ومشيئتين وطبيعتين اله وانسان ، وبهما يكمل قول الحق ، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين » .

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء فى تاريخ ابن البطريق ، وقد اطلنا فى النقل ، ليكون كلام القوم مبينا لفكرهم كما يريدون ، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه ، أو نحيد به عن مرماه .

ولقد كان من آثار هذا القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين ، كما خرج من قبل الأقباط وكنيستهم ، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان .

مجمع تحريم اتخاذ الصور :

٩٣ — وقد جاء مجمع غير عام باقرار الجميع انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ وفيه جمهور من الأساقفة ، وفدوا اليه من جهات مختلفة وقد قرر تحريم اتخاذ الصور (١) والتماثيل فى العبادة ، وحرم طلب الشفاعة من العذراء ، ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة ايرينى بمدينة نيقية ، ويسمى المجمع النيقاوى الثانى سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه

---

(١) يقرر الأستاذ المرحوم أمين الخولى فى رسالته « صلة الاسلام باصلاح المسيحية » أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى أماكن العبادة اسلامية ، وان أشد من ظهر بمعاداتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذى اقلق الكنيسة واتخذ العنف سبيلا لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين وينقل عن صاحب كتاب الطرق النيقية قوله : « أن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية اذ رغب فى التقرب الى المسلمين بذلك . أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العصر المسلمون فى ديارهم » ، ويقول الأستاذ أمين الخولى : « والحركة الاسلامية التى سمعت خبرها فى تحطيم التماثيل هى التى قام بها الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ — ٧٢٠ م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) اذ كتب يزيد الى حنظلة ابن صفوان ، والى مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها فى أيامه » .

٣٧٧ إجتمع وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين ، لا يعبادتها ، وجاء في هذا القرار : « انا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والابنية المقدسة ، والملابس الكهنوتية فقط ، بل في البيوت ، وعلى الجدران في الطرقات ، لأننا ان اطلقنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل ، وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد الى التفكير فيهم ، والتكريم لهم ، فيجب أن تؤدى التحية والاكرام لهذه الصور ، لا العبادة التي لا تليق الا بالطبيعة الالهية » . هذا هو المجمع السابع قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاما ، وخالفته اخرى ، فلم تعتبره كذلك .

انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية وسببه :

٩٤ — ولننتقل بعد ذلك إلى المجمع الثامن ، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التي تراسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التي تراسها كنيسة روما .

وقد علمت أن المجامع الماضية التي انفصلت بسببها فرق مسيحية كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح ، ولم يتعرض احد للروح القدس، ومن أي شيء إنبثق ، حتى إثار بطريرك القسطنطينية كيف كان انبثاقه ، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده ، فعارضه في ذلك بطريرك رومة قائلا : « ان انبثاق الروح القدس كان من الآب والابن معا ، ولم يكن من أحدهما ، وكل فريق عاضد رأيه بجمع قد جمعه ، وكلاهما قد اعتبر هو ومشايعوه مجمعه عاما ملزما للآخر ، ومجمع الآخر خاصا غير ملزم ، وكل لعن الآخر وطرده ، واعتبره محروما مطرودا من حظيرة المسيحية ، كشأنهم عند كل اختلاف .

إعلن بطريرك القسطنطينية رأيه ، وهو إن الروح القدس إنبثق من الآب فقط ، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسيه من غير ارادة رئيس الكنيسة بروما ، وبعد أن دس لسلفه ما أبعده عن كرسيه . فاجتمع في القسطنطينية مجمع بعد عزل البطريرك الذي ناوأ روما سنة ٨٦٩ ، وأصدر قرارا يتضمن البت في ثلاثة أمور :

أولها : كون انبثاق الروح القدس من الآب والابن .

ثانيهـا : ان كل من يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى الى الكنيسة بروما .

ثالثها : ان جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التى يقـوم بها رئيس كنيسة روما .

وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عنـدهم سنة متبعـة ، وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمه فوسيوس ، وحرمانه هو واتباعه .

استطاع فوسيوس هذا أن يعود الى منصبه ، فلما عاد اليه كان أول ما صنعه أن عقـد مجمعا آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، ويسمى هذا المجمع الشرقى اليونانى ، كما يسمى الأول الغربى اللاتينى ، وقد قرر فيه رفض كل ما قرره المجمـع الأول ، وقرر أن انبثاق الروح القدس من الآب فقط ، وقد صار كل مجمع يعتبر عاما عند مشايعيه . كما يعتبرون الآخر خاصا ، بل باطلا غير ملزم ، وكل يكفر الآخر أو يفسقه و « **كل حزب بما لديهم فرحـون** » .

٩٥ — كان هذان المجمعان هما السبب فى انقسـام الكنيسة الى شرقية يونانية ، وغربية لاتينية ، ورئيس هذه الكنيسة الغربية هو البابا ، وهو مستقل بسياستها وله السلطان على كل الطوائف المنقـادة الى تعاليمها .

الكنيسة الغربية ام الكنائس :

وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشـايعيها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسـول فى زعمهم ، ويزعمون إنه كبير الحـواريين ورئيسهم ، ويقولون انه رأس هذه الكنيسة ، والبابوات خلفاؤه من بعده . وتسمى الغربية لكون سلطانها فى بلاد الغرب ، ويقول صاحب كتـاب سوسنة سليمان : « وهى تدعى انها أم الكنائس ، ومعلمتهن ، وربما حق لها ذلك لجهة التفاسير التى تبنى عليها أصـول التعاليم التقليدية ، ونظامات المجامع ، وترتيبها ، وهى أيضا التى تأمر بها . وتمتد شوكتها على الخصوص فى بلاد ايطاليا وبلجيكا ، وفرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وشعوبها منتشرة فى اقطار الأرض .

وأما الكنيسة اليونانية ، ويقال لها أيضا كنيسة الروم الارثوذكسية أو الكنيسة الشرقية ، فأكثر مشايعيها في الشرق وسلطانها فيه ، وهى تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية فى كثير من التقاليد المسيحية ، ولكنها تخالفها فى انبثاق الروح القدس . فتقول انه من الآب فقط ، كما بينا ، ولا تعترف الا بالمجامع السابقة على المجمع الذى أوجد الانفصال ، كما لا تعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرياسة .

ولكن لمرور الزمن ، وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه ، ومقصد الملوك ، ولكثرة معتنقى مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان ، ويليه فى الرتبة بطريرك القسطنطينية ، والمشايعون لها فى بلاد روسيا واليونان والصرب ، وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء .

المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية الا في نظر الكنيسة الغربية :

٩٦ — قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت ، والمجامع الآتية كلها مجامع غير عامة فى نظر الكنيسة الشرقية ، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من أتباع الكنيسة الغربية فقط ، ولذلك لا تعتبر تلك المجامع عامة الا فى نظر الغربية ... » .

فالمجمع التاسع انعقد فى رومة سنة ١١٢٣ ، وأعظم قراراته شأنا الحكم بأن تعيين الأساقفة ، ليس من شأن الحكام ، بل من عمل البابا وحده .

محاولة تقريب بين الكنيستين :

والمجمع العاشر انعقد فى رومة أيضا سنة ١١٣٩ ، وكان أعضاؤه ١٠٠٠ عضو ، وقد حاول هذا المجمع ازالة الفرقة بين الكنيستين ، فلم ينجح .

والمجمع الحادى عشر الذى انعقد فى رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام التأديب الكنسى ، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلثى عدد الكرادلة .

وكان فى هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى الى جسد المسيح ودمه ، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ .

حتى جاء المجمع الثاني عشر سنة ١٢١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائيا ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه ، وهـو مبدأ أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء .

وتتوالى بعـد ذلك المجامع الكاثوليكية لأغراض عامة أو اقليمية ، وفى بعضها تتجدد محاولة توحيـد الكنيستين المتصلتين ، وفى بعضـها يتقرر التنقيب عن القلوب ، ومحاربة الخارجين عن التعاليم المسيحية .

وأهم هذه المجامع وأعظمها أثرا ، وأقواها عملا المجمع التاسع عشر الذي انعقد فى تريدنتو والذى دام انعقاده من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٦٣، وفيه الرد على البروتستانتية .

وختـام هذه المجامع هو المجمع المتم العشرين المنعقـد فى رومة سنة ١٨٦٩ وقد اعترفوا فيه بالعصمة للبابا .

وقد قال فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : « وقـد نشأ فى ذلك انقسام فى الطوائف الكاثوليكية ببلاد أوربا والشرق ، والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالى أوربا سموا أنفسهم الكاثوليكيين القدماء ، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة » .

الفــــرق المســــيحية

٩٧ — من البيــان الذى ستناه فى المجامع ، وما انعقدت بسببه من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتنقيها ، والغالب على كل نحـلة سواه من نحلهـا . وانك لترى ذلك واضحا فيما بينـاه من أن أريوس عندما ظهر مقاوما فكرة الوهية المسيح ، ومنازعا كنيسة الاسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبثه فى النفوس وهو الوهية المسيح وتنادى به على رؤوس الاشهاد ، بينما كان اتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية ، (وهذه مواطن المسيحية فى ذلك الابان) اكثر عددا واقوى مكانة ، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس ، وكل ذلك مع أن قسطنطين الامبراطور الحاكم بأمره الذى لا معقب لحكمه كان يشايع فكرة الوهية المسيح ويناصرها ، ويحميها ويؤيدها ، كما بينا عند الكلام فى مجمع نيقية اذ حمى القائلين أن المسيح فيه الوهية بحمايته ، ووضعهم تحت ظله ، وأمدهم بالجاه والسلطان .

واذا كان قد أتى حين كان فيــه التوحيد هو السائد ، فيصح لنــا أن نقسم عصور المسيحية الى قسمين :

عصر التوحيد : ونجعل نهايته الزمن الذى انعقد فيه مجمع نيقية . أو ما ولى ذلك الزمن بقليل . اذ غالب التوحيد فكرة الوهية المسيح ردحا غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية .

والعصر الثانى : عصر تأليه المسيح ، وذلك العصر يبتدىء بعد مجمع نيقية ، وبعــد أن استطاع اباطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيــد فى وسط المسيحيين ، ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

واذن فمن الحق علينا أن نراعى هــذا التقسيم عند الكلام فى الفرق القديمة عند المسيحية ، فنقسم تلك الفرق الى قسمين :

فرق ظهرت فى عصر التوحيد ، وربما كان وجود بعضها قبــل مجمع نيقية ارهاصا لعهد التثليث .

وفرق ظهرت فى عصر تأليه المسيح وعصر التثليث .

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التى ظهرت قبل عصر النهضة فى أوربا أى قبـل القرن الثالث عشر الميلادى ، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التى ظهرت بعد عصر النهضة ، وهى التى ظهرت فى عهد الاصلاح الدينى ، وما والاه .

الفرق التى ظهرت فى عصر التوحيد :

٩٨ — والفرق التى ظهرت فى عهـد التوحيد كثيرة ، وبعضها كان مستمسكا بالتوحيد ، ومعـه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنه من السياق التاريخى وكما يستفاد من ثنايا التاريخ ، وبعضها كان قـد انحرف عن التوحيد ، حتى كان وجوده تمهيدا للتثليث أو سـيرا ببعض الخطوات فى سبيله .

واظهر الموحدين اريوس واتباعه ، وقد كانوا كثيرين . فقد شرحنا انه قد كان يأخـذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطاركة ، وكان رايه منتشرا فى مصر والشـام ومقدونية ، وهى مواطن المسيحية كما علمت .

فرقة اريوس :

يقول ابن حزم فى بيـان فرقة اريوس : « والنصـارى فرق ، منهم أصحاب اريوس ، وكان قسيسا بالاسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وانه كلمة الله تعالى التى بها خلق السـماوات والأرض ، وكان فى زمن قسطنطين الأول بانى القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس .

وهذا الكلام يحتاج جزؤه الأخير الى نظر ، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب اريوس ، وقد بينا عند الكلام فى مجمع نيقية ، انه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه ، فعزل أنصـار لاهوت المسـيح ، واعتبر المجمع مكونا منهم دون سـواهم ، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من الفين ، فرفض راى الكثرة ، وعقـد مجمعا مؤلفا من ثمانية عشر وثلاثمـائة ، بينما يذكر الثقـات من المؤرخين انه قد صرح بنصرة اريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة .

نعم أن الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبه الى رأيهم ، وضمه الى مذهبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطانا ، فمال اليهم اخيرا ، أو اظهر الميل ، وان كان لم يعمل على نصرة مذهبهم ، ولم يعقد مجمعا ليقرر رأيهم، كما فعل بالنسبة لغيره ، واقصى ما عمله أنه رد المحرومين الى حظيرة المسيحية ، وأعاد المنفيين من منفاهم ، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية. ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة ، اذ رآهم كثرة المسيحيين الغالبة . واقوالهم هى الشائعة الرائجة ، فاظهر الميل اليهم حتى لا ينقضوا عليه.

اصحاب بولس الشمشاطى :

٩٩ — ومن الموحدين الذين ظهروا اصحاب بولس الشمشاطى ، ويقول فيه ابن حزم : « كان بطريركا بانطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا الهية فيه . وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة ، ولا روح القدس .

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيدا خالصا ، وأن عيسى ليس الا رسولا من رب العالمين . وانه كان اذا عرض له البحث فى كلمة الله ، وروح القدس امسك عن ذلك ، ولم يخض فيه ، وتوقف واعتصم بذلك .

ويقول ابن البطريق فى بيان مذهب بولس هذا : « ان المسيح انسان، خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وان ابتداء الابن من مريم ، وانه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الانسى ، صحبته النعمة الالهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله ، ويقولون ان الله جوهر واحد ، واقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة . ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك انطاكية ، وهم البوليقانيون » .

هذا ما قاله ابن البطريق فى معتقد بولس الشمشاطى ، وهو لايختلف فى جوهره عن كلام ابن حزم الأندلسى فيه ، وان اختلفت العبارات ، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الانسى هو ما عبر عنه ابن حزم بالرسالة ،

والنعمة الالهية التى حلت فيه هى الوحى واختياره ليكون رسول الله الى الناس يهديهم ، والنبوة التى جاءت فى عبارة ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كناية عن المحبة ، ولعل بولس لم يجرها على لسانه ، أو لم تجىء فى بيانه ، ولكن ابن البطريق المسيحى المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره ، وان كان المراد غير موافق للمثلثين .

دخول الوثنية على التوحيد :

١٠٠ — وكان بجوار الموحدين الذين كانت اقوالهم السائدة المنتشرة فى ربوع المسيحيين ، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا فى المسيحيين وفيهم بقايا الوثنية ، ولا تزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه ، ففهموا المسيحية على ضوء ما عرفوه أولا . واحتضنوا المسيحية متمثلة فى نفوسهم بما استكن فى تلك النفوس من آراء ومعتقدات سابقة ، وان ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل المختلفة التى ظهرت فى المسلمين فى ابان الفرقة التى تلت مقتل الخليفة الثالث والرابع . وما ادخل من آراء ونحل فى عصر يزيد ومن وليه .

ولكن الاسلام بنور القرآن الكريم وحفظه ، وهدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة ، وما كلأ الله به هذا الدين المتين — قد نفى عنه الدخل، وذهب الزبد جفاء، وبقى الدين، كما بعث نبيه عليه الصلاة والسلام صافيا من غير رنق ولا تكدر .

أما فى المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما بيناه فى الكلام عليها ، واختلط فيها الغث والسمين والطيب بالخبيث ، وضلت العقول ، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح ، وذاهب الكوكب السارى الذى يضىء وسط الدجنة الحالكة ، وهو كتاب مبين لا يأتيه الباطل ، ولا يتطرق اليه الريب ، يكون فيصل التفرقة بين المسيحية الحقة ، والأساطير الباطلة التى افسدتها .

اتباع مرقيون :

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم ، كما تبرز رءوس الشياطين وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع

وجاءت على نحل مختلفة ، وأهواء متباينة ، ونزعات متضاربة ، وباسماء كثيرة .

فمنهم من كان يقول أن هناك آلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهم ، وهم اتباع مرقيون ، ولعل هـذه النحلة من آثار المجوس ، لأنهم هم الذين يقولون باله الخير واله الشر .

ولقد قال ابن البطريق فى هذه النحلة واصحابها : « وزعمـوا ان مرقيون هو رئيس الحواريين ، وانكروا بطرس » فالمنتحلون لهذه النحـلة يزعمون أن مرقيون داعيتها والمنادى بها حوارى من حواريى عيسى عليه السلام ، بل كبير الحواريين وشيخهم ، والمقدم فيهم ورئيسهم .

البربرانيـة :

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول ان المسيح وامه الهـان ، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالت كلماته فى قوله تعالى مبينا ما يكون بينه سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام من قول يوم القيامة ، قال تعالت كلماته : « **واذ قال الله يا عيسى ابن مريم االنت قلت للناس اتخـذونى وامى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحـق ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما امرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شىء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم** » ولعل فريقا منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم .

نحـل اخر :

ويقول ابن البطريق فى بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمـع نيقية : ومنهم من كان يقول ان المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية ، وهى مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم تسعة اشهر ، وانما مر فى بطنها ، كما يمر الماء فى الميزاب لان الكلمة دخلت فى اذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته وهى مقالة اليان واشياعه .

ضياع التوحيد بسبب تحريف الكتب :

١٠١ — هذه هى بعض المقالات والأهواء والنحل التى جاءت فى عصر التوحيد رنقت صفاءه ، وكانت نكتا سوداء فى وسط المسيحية الحق النضرة ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة ، ويبقى الأصل سليما نقيا ، لم يتاشبه شىء من المفاسد ، ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من اى جانب ، ولا يتطــــرق اليه الظن والاحتمال ، ليكون ميزانا للحق والباطل ، وليكون مقياسا تقاس به الآراء ، وليكون مرجعا يرجع اليه المختلفون .

ولكن الاضطهادات التى نزلت بالمسيحيين ، ومصادرة الكتب وتحريفها بأمر الرومان ، والأيدى العابثة المفسدة ، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعتريها الشــك والريب ، ومن وراء ذلك نفــذت الأهواء والأساطــير الى القلوب ، واخذت تنال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد ، وكتاب ثابت السند .

فكل نحلة تدعى لا تجد ردا لهـــا من نص ، وهى تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص ، بل بقوة الداعى ومقدار لحنــه بالحجة الباطلة والصحيحة ، ومقدار نشاطه وبيانه وســـعة حيلته ودهائه ، ودربته على جــذب الجماهير .

ولقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح ابلغ تقـــديس ، فكانت مهارة الدعاة وقوتهم البيانية متجهة الى هذه الناحية ، يزيدون فى تقديس المسيح فيزيدون كلامهم قبولا لدى العامة ، ثم انتقلوا من التقديس المعقول الى الغلو المرذول ، فغالوا حتى مدوه الها .

وهكذا اخــذت العقيدة تفسد ، وكان العامة بين حبلين قويين ، وكل حبل فى يد عصبة من أولى القوة ، فحبل التوحيد ، ومعـــه العقل ، ومعه الأصل ومعه السيادة للتوحيد ، وحبل آخر قد اخذ يجتذب العامـــة اليه بقوة ، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التى يحبونها ، وأرضى شهوتهم فيها ، وهى ناحية تقـــديس المسيح عليه السلام ، واخذ يلقى تعاليمه فى النفوس ، وقـــد وضعها فى ذلك اللون الشهى ، وذلك الطعم المستساغ .

العامل الثانى : عامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تأليه المسـيح وادنائه من ذوى السلطان ، وتمكينه من الرقاب ، وتغـريبه من لا يقول هـذه المقالة ، واضطهاده ، وابعـاده عن حظيرة المسيحية ، ولعنه وطرده وتصويره للناس بصورة من لا يقدس المسيح ، ولا يرجو له وقارا واجـلالا .

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعـة فى الاستدلال والتى تقف المغالين عند حد الاعتدال . وقد كانت كفة التوحيد هى الراجحة ، حتى بعد مجمع نيقية ، ولكن جاءوا بعـد ذلك ، واخفتوا صوت المنادين بالتوحيد وحيـل بينهم وبين ما يدعون اليه . ولم يمكنوهم من أن تصل دعوتهم الى العامة فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون الا جانبا واحـدا ، وخاضعين لعامل واحد ، وهو الخروج من نطاق التوحيـد ، فتم للحكام والقسيسين ما ارادوا واختفى دين المسيح عليه السـلام . وقام دين البطارقة والقسيسين .

١٠٢ — بعد مجمع نيقية ابعد التوحيد رسميا عن الديانة المسيحية، وان كان اتباعه اكثر عددا ، واعز نفرا ، ولم تستطع الحكومة الرومانية ان تقضى على التوحيد بذلك المجمع ، ولكنها اخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة فى الكنائس ، ولا تجعل صوتهم يصل الى الشعب بالنفى والتشريد ، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد ، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد ، وفعل الزمن فعله ، وتغلبت الظلمة على النور ، واخفى ظلام الليل نور النهار الساطع . وعندئذ كانت الفرق التى تظهر بعد ذلك فى ظل الوهية المسيح فى الجملة ان أستثنينا مقدنيوس وفرقته .

فرقة مقدونيوس :

واول فرقة ظهرت فى ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا ، فقد أنكرت أن يكون روح القدس الها ، وتلاومت ما ترمى اليه الكنيسة العامة من فرض تلك الالوهية ، ودعوة الناس اليها ، وحثهم على اعتناقها ، ولعل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا يزالون يعتنقون التوحيد ، ويتابسون فى ذلك أريوس وسائر الموحدين . وان كانت الغلبة لغيرهم ، فهاله ان يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ويثنون بتأليه الروح القدس ، فجاهر بانكار الثانى ، لانه لم يعد فى قوس الصبر منزع .

يقول ابن البطريق : « وفى عشر سنين من ملكه (قسطنطين ابن قسطنطين الثانى) صير مقدونيوس بطريركا على القسطنطينية ، وكان يقول : ان روح القدس مخلوق ، وأقام عشر سنين ومات » .

لكن مقالته لم تمت بموته ، بل كان له اشياع واتباع وخصوصا من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية ، وان اصبحوا فى الجملة لا سلطان لهم .

لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ، وقد ذكرنا بعضا من قراراته ، وكان المقرر والمناظر والمجادل فى هذا المقام بطريرك الاسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة ، كما نوهنا آنفا ، ويسمى المقدونيين الأبوليناريين فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان فى بيان المجمع القسطنطينى:

« المجمع القسطنطيني المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولنياريين ، وهم المقدونيون المنكرون للاهوت الروح القدس » .

ويعتقد الكنسيون أن انكار ألوهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين ؛ فيقول صاحب تاريخ الكنيسة ، وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأى أريوس) أرطقة أخرى لم تكن اقل مناقضة للثالوث الأقدس فكانت تنكر الوهية الروح القدس ، وكان منشئها مقدونيوس ؛ وهو نصف أريوسي قد اختلس كرسي القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسي ؛ ولم تكن له شهرة خصوصية في بهوةالاسجاسي التي أحدثها الأريوسيون » . وهذا زعم له نصيب من الواقع ؛ لأن الذين ينكرون الوهية المسيح ، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقرون بالوهية الروح القدس .

ولكن يجب ان يلاحظ أنه في الوقت الذي انكر فيه مقدونيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت في مجمع عام ، وقد يكون موضع حديث البطاركة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس الهـا ، فتصدى مقدونيوس لانكار ذلك ، وتلقى الناس كلامه بالقبول ، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه الا بعد أن مات بعدة سنين .

النسطوريون :

١٠٣ — هذه النحلة تنسب الى نسطور ، وقد كان بطريرك القسطنطينية ومكث في هذا المنصب أربع سنين وشهرين ، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد الها ، بل ولدت فقط الانسان ، وهو بذلك يرى أن الأقنوم الثاني ، وهو الابن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثلثين ، بل كان يرى أن مريم ولدت الانسان فقط ، ثم اتحد ذلك الانسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني ، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئا واحدا ، أو ذلك الاتحاد ليس اتحادا حقيقيا ، بل اتحادا مجازيا . لأن الآله منحه المحبة ، ووهبه النعمة ، فصار بمنزلة الابن ، وهذا التخريج لا شك يؤدى الى أن المسيح الذى خاطبهم وكلمهم ، وحوكم وعوقب في زعمهم ، لم يكن فيه عنصر إلهي قط ، فلم يكن الها ولا ابن الاله .

وقد نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب

تاريخ الأمة القبطية تقرر ان كلام نسطور معناه ، أو يلزم منه حتما ، انكار الوهية المسيح .

ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الاسكندرية ، ويوحنا بطريرك انطاكية فى ذلك الابان ، ليعدل عن رأيه ، فلم يصغ اليهما ، ولم يجب طلبهما ، فانعقد مجمع افسس سنة ٤٣١ ، وقرر لعنه وطرده ، واثبات ان مريم العذراء قد ولدت الانسان والاله .

وقد بينا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع .

ولقد ابعد ذلك نسطور عن منصبه ونفى ، فصار الى مصر وأقام فى اخميم الى أن مات .

ويقول ابن البطريق : « كانت مقالة نسطور قد اندثرت ، فأحياها من بعده بزمان بوصوما مطران نصيبين فى عهد قباذ بن فيروز ملك فارس، وثبتها فى الشرق ، وخاصة اهل فارس ، ولذلك تكاثرت النسطورية فى الشرق ، « فى العراق والموصل والجزيرة » . ولا يزال الى الآن فى الاماكن التى يذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب .

ويقول صاحب سوسنة سليمان : « ان النسطوريين فى هذا العصر يسمون الكلدان يسكنون خاصة فيما بين النهرين ، والبلاد المجاورة لهما ، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم ، غير انهم يمتازون عن باقى المذاهب باعتقادهم ان نسطوريوس حرمه مجمع افسس ظلما . اضف الى ذلك اعتقادهم بانه لم يكن فى المسيح طبيعتان بل اقنومان ايضا ، وكان يحسب هذا المعتقد فى الزمن القديم ضلالا مبينا ، وأما فى هذا الزمان فيحسبه العلماء ، حتى الكاثوليك الرومانيون ، غلطا لفظيا لا معنويا ، لأن هؤلاء الكلدانيين يعتقدون ان فى المسيح اقنومين ، كما ان فيه طبيعتين ، ويقولون ايضا بأن هذين الاقنومين ، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما برؤية واحدة » .

وهذا الكلام يدل على أمرين : احدهما ان الكنيسة الرومانية التى كانت تشدد فى القرون الخالية فى طرد كل من يخالف معتقدها ، وتعده كافرا لا يلج الايمان قلبه قد تساهلت فى هذه الأعصر ، فوسعت صدرها للمخالفين لها ، وتأولت لهم ، لتدخلهم فى حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرد واللعن والتكفير .

ثانيهما : أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادىء نسطور ، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية ، وكما قرر ابن البطريق لا يرى أن الأقنوم الثانى مازج المسيح قط ، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة ، واستنبطنا كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الالهى خلوا تاما ، وهو يصرح بأن مريم ولدت الانسان فقط ، بينما غيره يقرر أنها ولدت الاله والانسان ، وهذا اختلاف جوهرى فى الحقيقة والمعنى لا فى الشكل واللفظ ، واذا كان النسطوريون فى هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت فى الناسوت كما يقول غيرهم ، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور .

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا فى بلادهم بلاد العراق والموصل ، ومنهم طائفة تقيم فى الهند ، واخرى تقيم فى بلاد العجم ، وهم جميعا يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به عند غيرهم من الكنسيين ، وليس عندهم من تقليد الا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل ، والامتناع عن الزواج ، وذلك منذ سنة ١٨٣٠ م وهذا كما جاء فى كتاب سوسنة سليمان .

اليعقوبيون :

١٠٤ — هم اتباع يعقوب البراذعى ، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الاله بعنصر الانسان وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت ، ونسبة ذلك المذهب الى يعقوب البراذعى لأنه من أنشط الدعاة اليه ، لا لأنه مبتدعه ومنشئه ، فان ذلك المذهب اسبق من يعقوب هذا ، فان أول من اعلنه بطريرك الاسكندرية فى منتصف القرن الخامس الميلادى .

وبسبب ذلك الاعلان انعقد مجمع خليكدونية ، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية . أما يعقوب فقد وجد فى القرن السادس الميلادى ، ويقرر صاحب سوسنة سليمان فى اطلاق اسم اليعقوبيين على أصحاب هذا الرأى « يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة الى يعقوب البراذعى الذى اعاد هذه الشيعة ، ورتبها فى القرن السادس للتاريخ المسيحى ، بعد أن كانت تتلاشى » .

وقد فصلنا الكلام فى هذه النحلة والأدوار التى مرت عليها عند الكلام فى مجمع افسس الثانى الذى تسمية الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص .

في مجمع خليكدونية فلا نعيد ما ذكرناه ، حتى لا نقع في التكـــرار الممل .

والذين يقولون ان المسيح ذو طبيعة واحدة ، ينقسمون الى آسيويين وافريقيين ، ولكل قسم رياسة دينية خاصة به .

فرئيس الآسيويين هو بطريرك السريان ، ومن هؤلاء الآسيويين من اعترفوا برياسة الكنيسة الكاثوليكية ، فتبلهم وان استمروا على رأيهم .

ورئيس الافريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة ، ويتبعه في هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون ، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية ، وهو يعين لهم أسقفا يسوسهم .

ومن الذين يعتقـــدون ان المسيح ذو طبيعة واحـــدة — ويتحدون مع الكنيسة القبطية في ذلك الاعتقاد ، ولكن لهم تقاليد دينية وطقوس ، ولهم بطاركة يرأسونهم ، ولا يندمجـــون في كنيسة القبط ، ولا كنيســـة السريان بآسيا — الأرمن .

المـــارونيـــة :

١٠٥ — هم أتباع يوحنا مارون ، وقد اشتهر يوحنا هـــذا برأيه سنة ٦٦٧ ، ودعا اليه وشـــايعه بعض القسيسين فيـــه ، ومعهم بعض من مسيحيي آسيا ، وهو ان المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو ارادة أو مشيئة واحدة ، ومن أجل هذه النحلة الجديدة اجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد ، وقرر حرمان مارون ، ولعنه وتكفيره وكل من يذهب مذهبـــه ، وينتحل نحلته ، وقـــد أشرنا الى ذلك المجمع ، ونقلنا لكم قراره في المذهب ، فلا نعيد نقله .

ويظهر ان المنتحلين لهذا الرأى لم يكونوا ذوى شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد ، فقد نزلت بهم اضطهادات شـــديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم الا الفرار ، فلم يجدوا لهم ملجأ يعتصمون به الا بعض البلاد في جبل لبنان ، فاعتصموا بها ، وقد استمروا على اعتصامهم وبعدهم ، حتى أدنتهم اليها الكنيسة الرومانية وقربتهم منها ، وأعملت الحيلة والسياسة ، حتى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحـــاد معها على أن يبقوا على رأيهم ، ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد ، وما زالت هذه الطائفة متوطنة بجبـــل لبنان ، ولها بطريرك خاص ، وان كانت تقر بالرياسة لبطريرك روما .

الكنيسة الشرقيـــة والكنيسة الغربيـــة

أساس انقسام الكنيسة الى شرقية وغربية :

١٠٦ — كان فيما ذكرناه أعظم الانقسامات القديمة شـــأنا ، وأبعدها إثرا ، ان استثنينا الكنيسة القبطية ، انقســـام الكنيسة الى يونانية ولاتينية وما يتبع ذلك الانقســـام من انشقاق فى المسيحية كلها ، وما تفرع عن الأولى من فروع وفرق ، وانا نكتفى بهذا القدر من القـــول فى الفرق القديمة التى ما زال منها بقايا الى ايامنا الحاضرة ، ونختم القـــول فيها بانقسام الكنيسة الى يونانية شرقية ولاتينية غربية ، وقد نوهنا الى الانقسام عند الكلام فى المجامع ، واشرنا الى اسبابه بالاجمال .

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التى آلت اليها رياسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة ، وكنيسة رومـــة التى آلت اليها رياسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران :

أحدهما — يتعلق بالاعتقاد — وهو ان كنيسة القسطنطينية ومن والاها من بعد اعتقدوا ان الروح القدس من الآب وحـــده ، لا من الآب والابن ، وكنيسة روما ومن والاها قد اعتقدوا ان الروح القدس منبثق من الآب والابن معا ، وعقد كل فريق مجمعا شايع اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به ، وكان المجمع المشايع لرومة سنة ٨٦٩ ، والمشايع للأخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩ .

ثانيهما — لا يتعلق بالاعتقاد — ولكن يتعلق بالرياسة الكهنوتيـــة ، أهى لكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة ؟ لقد قرر المجمع الذى شايع رومة أن تكون لرومة ، فرئيس كنيســـتها هو الحبر الأعظم والرئيس الروحى للمجمع ، وقرر المجمع الذى شـــايع القسطنطينية رفض تلك الرياسة وعدم الاعتراف بهـــا ، ويعتبرون رئيس القسطنطينية رئيسا عاما للكنيسة .

ولقد تبع هذا الاختلاف فى هاتين المسألتين الرئيسيتين خـــلاف فى مسائل أخرى أوجدها تتابع السنين واستمرار الشقاق ، فقد كثرت أوجه الاختلاف فى مسائل فرعية منها :

١ — استعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز ، فان ذلك اقرته الكنيسة الغربية ، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية .

٢ — اكل الدم والمخنوق ، فان الكنيسة الغربية اباحته وهو مخالف لمجمع الرسل في أورشليم الذى انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنين وعشرين سنة .

٣ — اكل الرهبان دهن الخنزير ، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

٤ — لبس الأساقفة الخواتم في أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم .

وجاء في حاشية لكتاب سوسنة سليمان ما نصه : « يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطاركة . وربما كان ذلك لكونها ما كانت تحددت وتتخذ كقاعدة دينية في كنيسة رومة ، كالمطهر الذى لم يثبت إلا في مجمع فلورنسا المنعقد في سنة ١٤١٩ ، ثم أوجب قبوله على كل الكنائس الغربية المجمع التريدنتيني في القرن السادس عشر .

أما الفرق بينه وبين عقابات جهنم التي يقررها الروم ، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطىء بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه .

اما عقابات الجحيم ، وهى نظير حبس يقيم فيه الخطاة الى يوم الدينونة الذى به ينالون القصاص الأبدى في جهنم ، والصلوات التى يقدمونها لأجل الموتى ، يعتقدون انها تلطف نوعا احوال هذا الحبس عليهم تلطيفا وقتيا فقط .

وكذلك منع الشعب من الاشتراك في الكأس اذا لم تثبته كنيسة رومية الا في مجمع كنستانس بسنة ١٤١٥ » .

تقادم الزمن يوسع الخلاف :

١٠٧ — كان كلما تقادم الزمن على النقطة التى ابتدأ منها الخلاف اتسعت فرجاته ، وكبرت زاوية الانفراج ، وكلتا الكنيستين ذات بأس وقوة ، وكانت في القديم لها دولة تحميها ، إذ كانت دولة الرومان منقسمة الى شرقية وغربية . فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما اكد الفرقة وقوى الانقسام .

ولقد كان يأتي الفينة بعد الأخرى صوت يدعو الى الوحدة والالتئام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام ، فتعقد لأجل هذا مجامع ، وترسل الوفود . ولكن ما أن يتلاقى المتخاصمان ، حتى تعاد أسباب النزاع جذعة اذ كل واحدة ترغب فى أن تنزل الأخرى عن رأيها ، فتلاحى كل واحـدة عما تعتقد ، فيشتد الجدل ، ويحمى وطيس القول ، فتفترقان ، وقد زادت القطيعة قوة واحتداما .

محاولة ازالة الخـلاف :

حاول أحد بطارقة روما فى منتصف القرن الحادى عشر أن يجمـع الشتات ، ويلم الشمل ، وعرض مبادىء تكون أساسا للمصلحة ، رفضها بطريرك القسطنطينية ، واصدر الأول قرارا بحرمان الثانى ، فأصدر هذا قرارا بحرمان الوفد الذى عرض عليه الشروط .

وهـــكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقى ، وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، ويظهر أن السبب فى ذلك ما تعتقده كل واحدة منها أن الأخرى خارجة على الدين ، ورغبة كل واحدة فى أن تجتذب الأخرى اليها كما بينا .

انتقاد مسيحى للكنيسة الغربية :

ويقول فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : « ان الكنيسة الرومانيـة تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الاطـلاق هى شيع هرطوقيـة خارجة منها ، ومنفصلة عن شركتها . وهذه الدعوى تصح لأية كنيسـة يمكنها أن تثبت لذاتها الاقدمية فى الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية. أما كنيسة رومة ، فليس لها فى هذه الدعوى إلا الاستيلاء على أمانة صندوق التقليدات .

غـير أن سلامة الذوق تقتضى بانه كلما قلت التقـاليد فى كنيسة من الكنائس دل على اقدميتها بالنسبة التى تزيد عليهـا فيما هو من هذا القبيل ، لأن التقاليد على ما يستبين من مجريات رومـة قابلة للزيادة ، والزيادة احداث ، والاحداث فى الدين لا ريب فى انه بدعة ، والابداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة » .

ونرى من هذا أن صاحب هــذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة، ولعل السبب فى ذلك النقد ليس مجرد الحق ، بل كونه ليس من مذهبها ، والا كان كل ما تقوله مقدسا لا بدعة فيه .

١٠٨ — وقــــد بينا البلاد التى تتبع الكنيسة الغربية ، وكانت فيما مضى كل أوربا تقريبا ، وبعض طوائف فى آسيا .

بطارقة الكنيسة الشرقية :

اما البلاد التى تتبع الكنيسة الشرقية ، فاكثرها فى الشرق كما أسلفنا من القول ، ولها بطاركة .

اولهم بطريرك القسطنطينية ، وهو كبيرهم ويضيفون الى لقبه وصفه انه البطريق المسكونى ، ويقــول صاحب ســوسنة سليمان : « انه ليس الا لقبا تشريفيا فقط ، فليس له تسلط على غيره من البطارقة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانونى أصلا » .

ويليه فى الرتبــة والمكانة الدينية بطريرك الاســــكندرية للأروام الأرثوذكس ثم بطريرك انطاكية ، ثم بطريرك اورشليم ، ثم المجمع الروسى، ثم عدة مجامع لاسقفيات مستقلة اخرى كاسقفية اثينا ، واسقفية قبرص وغــيرهما .

وقد ظهرت فى روسيا التى كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفرق كثيرة بلغ عددها نحو مائتى نحلة ، وتعداد أصحاب هذه الفرق الجــديدة مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليونا .

فمنهم فرقة لا ترى تعميد الأطفال ، ومنهم شــيعة تحسن للنصرانى أن يقتــل نفسه فى حب المســيح ، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار ، فيتطهروا بها ، ومنهم شيعة تلتزم الختــان باعتباره كان المسيحية الأولى ، وفى التوراة التى تعتبر النصرانية مجددة لها ، وهكذا تختلف النحل وتتباين ، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين .

الاسلام يظلل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية :

١٠٩ — ذكرنا أن العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين ، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر والكنائس الأوربية . ونزل بمصر أشد البلاء ، ولم ينقذهم الا الفتح الاسلامى ، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام الى الآن شعرالمصريون بحريتهم التى لم يستمتعوا بها من قبل ، حتى اهداها اليهم الأسلام السمح الكريم .

ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن تنزل احداهما بالأخرى اشد البلاء ، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية الى شرقية وغربية ، واعتصام كل واحدة منهما بدولة ، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى . فلم تقبض على ناصيتها .

ولكن لما أخذت الدولة الشرقية فى الانحلال ، وخلفها المسلمون على بعض أملاكها ، وأخذوا يقصونها من أطرافها . أخذت ترجح احدى الكنيستين على الأخرى فقويت الغربية ، وصارت لها السيادة . واعترف بطريرك القسطنطينية له بالتقدم عليه فى الجلسة ، وان لم يعترف بأنها على حق فيما يختلفان فيه ، وما اختلفا فيه من قبل ، والبلاد التى اقتطعها المسلمون كانت تنعم بالحرية الدينية كشأن المسلمين فى معاملتهم لغيرهم .

ولما جاءت الحروب الصليبية ، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة كنيستها للكنيسة الشرقية وغيرها من المدن الاسلامية التى يعيش فى ربوعها المسيحيون آمنين مطمئنين ، لا يزعجهم اضطهاد ، ولا يرنق صفاءهم ضغط ، ثم ثنى أولئك الصليبيون اتباع الكنيسة الغربية ، فاستولوا على دولة الرومان الشرقية نفسها ، فانزلوا باخوانهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون .

ولنترك الكلمة للمسيحى صاحب سوسنة سليمان ، فهو يقول : « حرك البابا أنوسنت الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان ، فافتتحوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، وداموا متسلطين عليها الى سنة ١٢٦١ م فاستعملوا ما امكنهم من البربرية فى الأراضى التى

امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين ، ليخضعوا بطارقة أورشليم ، وجميع الاكليرس اليوناني بواسطة الحبس واقفال الكنائس الى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودة العرب حكام البلاد الأصليين على موائدهم ويختاروا تسلط شعب يرضى بجزية على أن يتسلط عليهم ملك روحى طمعه وطمع قصاده لا يشبعان » .

حينئذ احس اولئك المسيحيون بنعمة الاسلام عليهم ، ونعمة حكم المسلمين لهم ، فقد سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان ، ونقبوا عن قلوبهم ، وبحثوا عما تكنه الصدور ، ولكن نعمة الاسلام كانت تلاحقهم ، فلم ينقض زمن طويل ، حتى جاءهم الاسلام فى القسطنطينية واعطاهم الأمن والدعة والقرار والاطمئنان ، حتى لقد قالوا كما حكى صاحب السوسنة : « عمامة السلطان محمد الفاتح ، ولا تاج البابا المثلث » .

وهكذا كان الاسلام رحيما تسع رحمته المخالفين .

الفرقة الحديثة « البروتستانت » (١)

او الاصلاح الدينى

حال الكنيسة قبل الاصلاح :

شدة الكنيسة على الناس والعلماء :

١١٠ ــ اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين ، وبالغت فى فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو ، ولم تسلك فى ذلك سبيل الموعظة الحسنة ، والدعوة الصالحة ، والارشاد القويم ، ومخاطبة الأرواح والنفوس ، وتمكينها من أن تتبعها ، وهى حرة مريدة مختارة ، بل سلكت سبيل العنف وركبت متن الشدة ، فجعلت كل راى فى العلوم الكونية يخالف رايها كفرا ، ولا تدعو معتنقيه الى الهداية ، وترشده الى الرشاد ، كما يليق برجال الدين مع من يرونه ضالا ، بل تكفر لأوهى الأسباب ، وتحرق أو تعذب من تراه كافرا بلا رفق ولا هوادة .

فهذا المجمع الثانى عشر من مجامع الكنيسة وهو المجمع المسمى باللاتيرانى الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ يقرر استئصال الهراطقة ، ويعنون بذلك كل من يرى رايا مخالفا للكنيسة ، ولو كان رايا فى الكون او طبائع الاشياء ، ولم تكتف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها ، بل اخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس ، وتكشف عن سرائر الناس بما اسماه التاريخ محاكم التفتيش ، التى دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام ، وما أزهقت من أرواح ، وما سفكت من دماء ، وما عذبت من احياء .

---

(١) سمى الذين اعتنقوا مبدأ الاصلاح الكنسى ، وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت ، لأنهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجا يسمى بالانجليزية برتست ، فسمى الذين امضوا القرار بروتستنت ، اى المحتجين .

وان جهر رجل من رجال الدين بالدعوة الى الاصلاح ، داعيا رجال الكنيسة الى اخذ الناس برفق ، وحاثا رجال الدين على الأخـذ بهديه كان عقابه الحرمان والقتل .

حدث فى اوائل القرن الخامس عشر ان أحس اساقفة فرنسا بوجوب اصلاح حال البابوات ، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ اسقفا ، و١٨٠٠ من رجال الدين ، ولكن هذا المجمع انتهى فى قراراته بالأمر باحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم .

ولقد حرق وعذب فى هذا السبيل علماء استشهدوا فى سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة ، وضيق صدر القوامين عليها .

ومما يذكر فى هذا ان احد العلماء واسمه ابيلارد كان له رأى فى تكفير المسيح عن خطيئة آدم خالف به رأى الكنيسة فقال : ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى فى ذلك من تعذيب سبيلا لارضاء الله وانزال عفوه عن خطيئة الانسان ، فعفو الله أيسر من ذلك واقرب ، وانما لاقى المسـيح ما لاقى اعلانا لما يكنه قلبه من حب الله ، وعسى أن يثير فى الناس عاطفة الشكر وعرفان الجميل ، فيعيدهم الى طاعة الله . ولكنه ما أن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس لمحاكمته ، فكان نصيب كتبه التحريق ، ونصيبه السجن الدائم ، حتى وافته منيته .

وجاليليلو يرى رايا فى الكون فيسجن لذلك الراى ، مع أن رأيه ليس من أمور الدين فى شىء .

فرض سلطانها على الملوك :

١١١ — بالغت الكنيسة فى شدتها ، كما رأيت ، ولم يلغ حتى الملوك من طغيانها ، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية الى ممالك مختلفة ، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالأخرى الا اتصـال محبة وسـلام ، أو حرب وخصام — كان ذلك سببا فى ان صـار البابا لا سلطان لأحد من ولاة الامر عليه ، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار المجامع ، لا بتعيين ملك او امير ، مهما تكن قوته وسطوته وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك ، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذي لا يرد على

كل مسيحى ، مهما تكن مكانته ، يستوى فى ذلك الأمير والخفير ، والراعى والرعية ، فليس لأى ملك سلطان على البابا ، والبابا له سلطان على كل ملك ، لأنه مسيحى ، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين ، ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول وبطرس الرسول اقامــــه المسيح رئيسا على الحواريين من بعده ، فالبابا على هذا الأساس خليفــة للمسيح ينطق باسمه ، ويتكلم بخلافته ، وينفذ بسلطانه ، ومن خرج عن طاعته فقــد خرج عن طاعة المسيح ، وحارب دينه .

قرارات الحرمان تنال الملوك :

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك ، كما فرضوها على سائر الناس ، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجامع بحرمانهم ، وطردهم من حظيرة المسيحية ، ولعنهم ، فقــد جاء فى كتاب سوسنة سليمان : « المجمع الثالث عشر انعقد فى ليون من اعمال فرنسا ســنة ١٢٤٥ بأمر البابا اينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمانه ، وهــذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقا » .

لم ينج اذن الملوك من قرارات الحــرمان والطرد ، وان لذلك اثره فى نفوس شعوبهم ، كما انه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية انفسهم ، وهم فى ذلك لا يتمنعون عن أن يثيروا القالة فى رجال الكهنوت ، ويكبروا صــــغائرهم ، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم ، حتى ينفردوا بالاحترام ، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم .

١١٢ — هذه هى الكنيسة فى معاملتها للناس ، عنف وزجر وقسوة، لا ارشاد وهداية واصلاح ، وهى تضرب كل من يعترض طريقها . لاتفرق بين سائس ومسوس ، وحاكم ومحكوم ، وراع ورعية .

وقد احتكمت لهــذا بذوى السلطان ، فكان لابد من مغالبة بينهما . ولم يكن الأمر مقصورا على الأذى البدنى تنزله بمن يخالفها ، ولو فيما ليس بينه وبين الدين نسب ، ولا يتصل به بسبب . بل تجاوز ذلك الى ارهاق المسيحيين باتاوات مالية يفرضونها ، وضرائب كبيرة يأخذونها ، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبــة يئنون تحت نير ثقيل ، ســواء فى ذلك من خالف ومن وافق ، فالمخالف بالعذاب يهرأ به جسمه ، والموافق بالمال يثقل به ، وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة احيــانا وما يجمع

من أموال الفقراء والمحدودين التى حصلوا عليها بالكد واللغوب بتوزعه رجال الدين بينهم ، وينفقونه أسرافا وبدارا فى سبيل تحقيق رغباتهم ، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله ، وينفقونه فى غير حله أيضا ، وبذلك انغمسوا فى شر مادى هذه الدنيا ، وتركوا لب الدين .

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة :

١١٣ — ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق فى فهم الكتب المقدسة عندهم ، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس ، ولا معقب لما تقول فى هذا التفسير ، أو فى رأى تبديه ، أو أمر تعلنه ، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحى اذا لم يستسغ عقله قولا قالته او مبدا دينيا أعلنته أن يروض عقله على قبوله ، فان لم يستطع ، فعليه ان يشك فى العقل ، ولا يشك فى قول البابا . لان البابا خليفة لسلسلة الخلافة التى بيناها .

ولقد كانت تعلن أمورا ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم ، وما تعرض له المسيحيون الأولون ، لا المجامع الأولى ، وهى امور غريبة جد الغرابة، بعيدة عن القبول فى أحكام العقل جد البعد ، وتلزم المسيحيين بها ، وتفرضها عليهم فرضا ، ومن قال كلمة فيها فالويل له ، ينزلونه به فى الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان فى الاخرة .

ونذكر القارىء على سبيل المثال مسألتين كان لهما اثر فى الفكر المسيحى ، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون فى جراة ، داعين الى اصلاح الكنيسة بالحسنى او بغير الحسنى . هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ، ومسألة الغفران .

مسألتا الاستحالة والغفران :

١١٤ — أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمت فى شرح الشعائر النصرانية ، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزا ويشربون خمرا ، ويسمون ذلك العشاء الربانى ، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل الى جسد المسيح ، وذلك الخمر يستحيل الى دم المسيح المسفوك فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد ادخل المسيح فى جسده بلحمه ودمه ، وذلك امر غريب فى العقل ، لا يستطيع أن يستسيغه احد

بيسر وسهولة ، بل لا يستطيع ان يستسيغه قط . اذ كيف يتحول الخبز لحما ، وكيف يصير لحم شخص معين معروف . وكيف تتحول الخمر دما ، وتصير دم شخص معين معروف ؟ ذلك غريب . بل مستحيل التصور والقبول في العقل ، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته ، والا عرضوا للطرد والحرمان . وهل ورد هــذا الامر في الكتب المقدسة ، حتى يجب الاخذ به من غير تفسير او تأويل . انه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وابدته في احــد مجامعها ، غــير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم .

ولقد خالفت في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس ، فالكنيسة الشرقية ترى ان العشاء الرباني لا يكون بالفطير ، بينما تراه الكنيسة اللاتينية ، ووجد من احرار الفكر من ينكرون هــذه الاستحالة ، ويعتقدون انها غير ممكنة في العقل ولا سائغة في الفكر .

١١٥ — اما المسالة الثانية فهي مسالة امتـــلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا ، فقد قررته الكنيسة حقا لنفسها في المجمع الثاني عشر ايضـــا .

وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشان : « انهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال : « ان يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات . وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى ، قد أعلم المجمـــع المقدس ، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصـــية للشعب المسيحي ، المثبتة بسلطان المجامع » .

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون ان الغفرانات غـــير مفيدة ، او ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ، غـــير انه قد رغب في أن يستعمل هــذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما ، والمثبتة في الكنيسة ، لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل .

افراط الكنيسة في استعمال حق الغفران :

هذا قرار المجمع ، وفيــه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار ، وهــو سلطان مسح الذنوب ، وغفرانها مهما يكن مقــدارها ، ومهما تكن

قد دنست النفس ، واركست القلب ، ولكنه قد اوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس ، حتى لا يؤدى الافراط فى منح الغفران الى ترك التهذيب الدينى ، وهجر تعاليم الكنيسة ، والعبث بهدى الدين ، فهل اخذت الكنيسة بما اعطاها المجمع ، وراعت حق الرعاية ما اوصاها به من عدم الافراط فى الاعطاء والمنح ؟ لقد اتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق ، أن افرطوا فى اعطائه افراطا شديدا وانشأوا له صكوكا تباع وتشترى ، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا ، ومتعة من متعتها ، وبذل العصاة فى سبيلها المال ، وما كان عليهم من حرج فى أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات ، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص ما دام ذلك يفتدى بمال قل أو جل ، وهذا نص صك الغفران الذى يباع بيع السلعة .

صورة من صك الغفران :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات ، والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وأيضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة ، وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وامحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وارفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر واردك حديثا الى الشركة فى إسرار الكنيسة واقرنك فى شركة القديسين ، واردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك ، حتى انه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح ، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والإبن والروح القدس » .

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر انها تمحو الآثام ، وتغفر ذنوب العاصى ما تقدم منها وما تأخر ، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهرا ، ثم لا يصير قابلا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا ، ومهما ينغمس فى المعاصى . كان ذلك الصك جواز المرور الى النعيم المقيم ، لا يعوق حامله عائق ، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس .

هذا ما يدل عليه الصك ، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة ان تلقيه في روع الناس تمكينا لسلطانها ، ورغبة في نقودهم التي يبذلونها للكنيسة في سبيل الحصول على ذلك الصك الذي يكون سر الامان ، وطريق الوصول الى الغـاية .

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة ، ثم تولى القسيس مسح هـذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا . ثم انتقلت من ذلك الى ان جعلت لنفسها الحق في الغفـران ، والشخص قوى يستقبل الحياة ، ولا يودعها ويقبل على متعها ، ولا يدبر عنها ، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ، ثم اغرقت في المغالاة فاتخذها رجال الدين بابا من أبواب الكسب للكنيسة . ثم انهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق ، وما قـد بحرمانه ، وبذلك طم السيل ، حتى جاوز الحزام الطبيين .

سلوك رجال الدين الشخصي :

١١٦ — وهـل كان رجال الدين في سـلوكهم الشخصي ، وفي استمساكهم بعروة الأخـلاق ، وهدى الدين يستحقون ان يبذل الناس في طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم ، وقبولهـا بقبول حسن ، متهمين العقول ان حاولت التمرد والعصيان ، لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظنة ، منزهة عن الريبة ، قد سـموا بأنفسهم ، حتى ساموا في العلو القديسين والشهداء والصالحين ، وجعلوا انفسهم عنوان العفة ، وبخع النفس عن الشر ، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم أو عرضـوا انفسهم للفداء كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل ؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب ، وتأخذهم الأنظار المتعقبة من كل ناحية من نواحي الحياة . حرموا على انفسهم الزواج اذ سادت الرهبانية وسيطرت على نفوسهم ، فجعلوا زواجهم حراما ، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب ، ويقوموا على سدانتها ، ويرعوها حق رعايتها ، ولكن ما ان توردت عليهم الأموال ، وكثرت أمامهم اسباب النعيم ، حتى فكهوا فيها مترفين وانغمسوا في الملاذ يستطيبون اطيبها ، ويطلبون اشـدها ، ولمـا مكنوا لانفسهم من السلطان ، اندفع بعضهم في طلبها اندفاعا ، ومنهم من استهتر في سبيلها استهتارا ، وخرجت حال بعض اولئك المنغمسين في الخطايا من

السر الى الجهر ، ومن التستر الى التفحش ، ومن الخفية الى الاعلان ، واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح ، بعد ان حرموا على انفسهم النكاح؟ ولم تتمنع النساء المتصلات بهم من ان يعلن ذلك مفاخرات به ، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لا آباء لهم ، ولكن لهم حظوة ، لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم ، كما يعرفون أبناءهم ، فيمكنون لهم بسلطانهم الدينى سلطانا دنيويا .

ولقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة العالية الدينية انفسهم ، أما التحوت من رجال الدين ففى فقر مدقع ، وفى حياة هى اقرب الى الدين المسيحى من حياة كبرائهم ، وذوى السلطان فيهم وفى الشعب .

ابتداء الإصلاح :

١١٧ — هذا سلطان الكنيسة ، وتلك حال رجالها ، يتدخلون فى كل شىء ، ينقبون عن القلوب ، وقد سترها علام الغيوب ، ويرهقون من يتهمونهم بأقسى انواع العذاب ، ويفرضون سلطانهم على الراعى والرعية ، حتى يتململ من تحكمهم الملوك والأمراء ، وذوو الفكر من الشعوب ويجبون الاتاوات ويفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون لا رجال الدين المهذبون ، ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب فى آخر أيامه فى الدنيا ، وأول أيامه فى الآخرة ، ثم يغالون ، فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوى الصحيح ، ويكتبون فى ذلك صكوكا يبيعونها بثمن قليل أو كثير ، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو ، وحولهم الناس ينظرون .

ولقد بلغ السيل الزبى فى العصر المشهور فى التاريخ الأوربى بعصر النهضة ، وفيه نهضت الارادة الانسانية ، والعقل الانسانى يفرضون وجودهما ، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا نور الله فى الاسلام ، والتدين الحقيقى فيما يدعو اليه هذا الدين ، اذا اتصل الشرق بالغرب فيما قبس الغرب من دراسات يلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص ، ومن الشرقيين بشكل عام ، وفيه علم أن لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب ، وأن لا وساطة بين الله والعبد ، وأن الله قريب ممن يدعوه ، ويجيب دعوة الداعى اذا دعاه .

دعوة بعض رجال الدين الى الاصلاح :

حينئذ اخـذت الأنظار المتربصة تحصى على رجال الدين ما يفعلون، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم ، واخذوا يدعون زملاءهم الى اصلاح حالهم ، ليردوهم الى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت ، وقبل أن ينفض الناس ، وقبل ان يحملهم العامة على الاصلاح .

ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس ، ولكن كان نصيبهما ان اعـدما تحريقـا بالنيران ، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذى انعقـد من سنة ١٤١٤ الى سنة ١٤١٨ ، ولقد قرر ذلك المجمع قتل هذين العالمين حرقا بالنار ، لأنهما دعوا الكنيسة الى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف ، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان فى محو الاثم أو تقريره ، وانما التوبة مع رحمة الله هى التى تمحو الآثام ، وتطهر النفس من الخطايا ، ولقد تقدم الى المجمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه ، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك فى ذلك الدفاع :

« لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعليمه فقر الرأى على القـاء القبض عليه ، وفوض المجمـع الى بعض اعضائه أن يفحصوا مؤلفاته والحوا عليه ان يقلع عنها ، ولكنهم لم يستفيدوا شيئا ووجدوا فى مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن اضاليل ، وقد خولوه الحـرية ليوضح اقواله فى كل منها ، وحرضوه على الخضوع لحكم المجمع ، وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله ، فأبى أن يمضيها ، وبقى مصرا على غيه، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معـه الى المضايقة الأخيرة ، بل حاول مرارا أن يرده عن عناده فحكموا أولا على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك ، لكنه لبث مصرا على عنـاده ، فحينئذ حطوه عن الدرجات المقدسة حطا احتفاليا ، واسلموه لحكومته فحكمت عليه بالحرق حيـا بمقتضى نواميس المملكة ثم نال جيروم تلميذه وقرينه فى العناد هذا العقاب نفسه .

اما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدنى أن يعمل بموجب شرائع المملكة التى كانت تعطى الملك حقا فى أن يعاقب من يفسدون النظام المدنى بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور » .

هـــذا ما يقوله الكتاب المدافعـــون عن الكنيسة ، ومهما يكن قولهم في براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين اصلاحا ، فمما لا شك فيه انها لم تصغ الى اقوالهم ، بل عاقبتهم عليها بالحرمان ، فسلبتهم المنصب الدينى ، ثم عاونت بذلك على قتلهم افظع قتلة ، ان لم تكن هى الفاعلة .

ابتداء الاصلاح من غير رجال الدين :

١١٨ — كانت ارهاصات الاصلاح تبدو الوقت بعد الآخر ، ويظهر به رجال استعدوا للفداء زمنا بعد زمن ، وكانت البلاد التى تظهر فيها آراء الاصلاح فى شمال اوربا وانجلترا ، وفرنسا ، لأن فرنسا قد ذاق بعض ملوكها اذى الحرمان من الكنيسة ، وأحس الفرنسيون بشدتها ، وانجلترا رأت من سلطان البابا عليهـــا تدخلا فى شـــئونها ، ولأن أمم شمال اوربة قد اقترنت حضارتها بالدين فكانت شـــديدة الغيرة عليه ، قوية الرغبة فى فهمه على وجهه ، جاعلين قبلتهم الكنيسة ورجالها ، فعثروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على عيوبهم ، فأرادوا ان يصلحوها من غير ان يهدموها ، لذلك ظهرت حركات الاصلاح ووجدت آذانا مصغية فى تلك البقاع ، ولم ينبثق فجر القرن السادس عشر حتى انبثقت معـــه أصوات قوية جريئة تدعو الى اصلاح الكنيسة ، وتنقد حالها وتندد بأعمالها ، وتنشر عيوب القوامين عليها ، وعساهم يصلحون أمرهم ، ويعـــودون الى آداب الدين وتهذيبه .

الدعـــوة الهادئة :

وقد ظهر فى فجر القرن السادس فى ازمان متقاربة اصـــوات رجال مصلحين ، ومن اشدها ظهورا صوت أرزم ، وقد ظهر بالأراضى المنخفضة ، وعاش من سنة ١٤٦٥ الى سنة ١٥٣٦ . وقد اخذ يدعو الناس الى قراءة الكتاب المقدس عندهم ، والى تهذيب عقولهم ، وتنمية مداركهم ، ليستطيعوا فهمه ، والانتفاع به ، وادراك مراميه وغاياته ، واخـــذ يدعو الى اصلاح الكنيسة ، وظهر انه لم يوجه دعوته الى الشعب ، بل وجهها الى الحكام المستنيرين ، والى رجال الكنيسة انفسهم ، فقـــد كان البـــابا ليو العاشر صديقه ، وكان ممن يقدرون آراءه ، ويعجبـــون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره ، وقد سار فى طريق ذلك الاصلاح السلمى مجتهدا الاجتهاد

كله فى أن يحافظ على مركز البابا وقداسته ، حريصا على الا ينال احد منهما ، والا يخلط دعاة الاصلاح بين اصلاح الكنيسة ومراكز رجالها ، وما يستحقون من اجلال وتقديس ، فهو يرى أن الاصلاح واجب على ان تقوم به الكنيسة فى داخلها ، او يعاونها الحكام على اصلاح نفسها ، ولذلك عندما رأى ثورة لوثر العنيفة ، وما ادت اليه من مس سلطان الكنيسة ونقص ما لها من قداسة ، نبذ آراءه ولم يعاونه .

وظهر كذلك فى هذا الابان توماس مور من ١٤٧٨ الى ١٥٣٥ ، وقد ظهر بانجلترا ، ودعا الى اصلاح الكنيسة أيضا بالطريق السلمى ، ولذلك دعا بنفسه الى وجوب احترام سيادة البابا ، وان يكون له السلطان الدينى على الجميع .

النقـد العنيف :

١١٩ — ولكن دعوات أولئك السلمية لم تفد فائدتها ، ولم تنتج ثمراتها ، وان شملت فقل أن تحول الأفكار وانتقال الفكرة الى الشعوب ، واصطدام الكنيسة بالمفكرين وبعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفا ، وجعل خطوات الدعاة اسرع مما يريد أولئك السلميون .

واشـد من ظهر من اولئك تأثيرا واقواهم نفـوذا : مارتن لوثر ، وزونجلى ، وكلفن . ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة .

لوثـر :

أما مارتن لوثر ، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من ابوين فقيرين ، ولكن أباه اجهد نفسه ، واراد أن يصل به الى اقصى درجات الثقافة ، ومكن له ليكون قانونيا ، فارسله الى الجامعة ، ولكنه عجز عن اتمام دراسته القانونية ، وعكف على دراسة اللاهوت ، وانصرف اليهـا لأنه احس بنزعة دينية قوية تدفعه الى الانقطاع لذلك ، وقد كان شديد التورع ، مبالغا فى تقدير سيئاته ، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة ، حتى لقد قال بنفسه انه لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة الرب الرحيم ، وكان لهـذا الاحساس الدينى الدقيق ، وذلك النزوع اللاهوتى موضع رعاية رجال الكنيسة ، حتى لقد اوصوا به خيرا أولى الأمر من رجال الدنيا ، فعين مدرسا للفلسفة ، وظـل عاكفا على هذه الدراسة التى كان يتمسك

فىصلاحيتها ، اذ كان يدرس فلسفة أرسطو ، وما كان فى نظره الا من عبدة الأوثان ، ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة فى ذلك العصر كانت تحت ظل الدين ، وفى خدمته ، ويقوم بها رجال الدين انفسهم ، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة له عن دراسته الدينية ، بل كانت تتميما لها .

ولقد دفعته نزعته الدينية الخالصة ، واجلاله للكنيسة ورجالهـــا الى أن يحج الى روما ، ليتيمن بلقاء رجال الدين ، ولكى تحل عليه بركات روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدســـة ، ولكنه ما أن وطئت قدماه ارض روما حتى راى ما صدم حسه ، وأزعج نفسه ، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة ، فوجد مدينة لاهية عابثة ، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم المفاســـد ، وحاطت بهم الريب ، وظنت بهم الظنون ، وجد جراة على الخطايا ، واستهانة بأحكام الدين . ووجـــد الذين تخيلهم قديسين صالحين ، وانهم ملائكة الله تســـير على الأرض ، قد إنغمسوا فى الرذيلة ، ورتعوا فى حماها زاعمين أن سحائب الرضوان قد نزلت عليهم، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها ، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض وسر التوبة ، وأبواب الغفران ، يغفرون لمن شـــاءوا ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

راى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الدينى ، ذو النفس اللوامة ، الذى يرى أن خطايا الانسان اكبر من أن يمحوها هو ، وأنه لا ســـبيل لغفرانها الا ان تسعها رحمة الله .

لذلك شده من هول ما رأى ، وتحير بين ما تخيله فى رجال الدين من زهادة ، والواقع المستتر الذى صدمه صدمة عنيفة ، ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى انتقل من الحيرة الى الاستنكار ، لذلك عاد الى المانيا حانقا مستنكرا بعد ان ذهب راضيا مقدسا .

ولقد أخذ يعلن من ذلك الأبان أن التبرك بالمقدسات ، والحج اليها وتكرار الصلاة لا يجدى العاصى ، ولا يغنيه عن توبة نصوح ، وندم مطهر، ورجاء رحمة الرحيم ، وأن احدا من الخلق مهما تكن قدسيته لايملك لاحد غفرانا ، ولا يستطيع أن يستر ذنبا قد ارتكب .

١٢٠ — كان لوثر بعد عودته مأخوذاً بهذه الافكار ، قد استولت على نفسه ، وسوغ له كل هذا انه قد عرا ثقته برجال الدين ضعف ، وان لم يعتزم الثورة عليهم او على آرائهم ، ولكن الحوادث كانت تدفعه الى ان يعلن استنكار آراء رجال الدين ، والجهر بذلك . وذلك لأن البابا ليو اراد ان يعيد بناء كنيسة بطرس فى روما ، وذلك يحتاج الى مقـدار من المال غير يسير . فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران ببيعها ، فذهب الراهب تنزل الى المانيا ، ومعه تلك الصكوك التى نقلنا لك نموذجا منها فيما اسلفنا من القول ، وأخذ يعلن من أمرها . ويبالغ فى قدسها وسرها .

عندئذ ثار لوثر الذى لا يعرف ان شيئا يستر الذنب الا النـدم على ماكان ، والاقلاع عنه فيما يكون ، ورجاء رحمة الديان ، والذى رأى فى رجال الدين ما رأى ، ثار لوثر على تلك الصكوك وكتب فى بطـلانها احتجاجا علقه على باب الكنيسة .

ولقد كان لذلك اثره فى العامة والخاصة ، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت او الاغضاء ، فقد أرسلت اليه تدعوه الى الحضور لمحاكمته امام محكمة التفتيش التى كانت تدبيرا اتخذته المجامع ذريعة للقضاء على مخالفيها .

ثورة لوثر على الكنيســة :

وهنا نجد بعض الامراء ... ، ... الا بحسب طلبها ، فلما رأى البابا بدا من أن يصدر قرارا بحرمانه ، ويعده زائغا ، وهنا تأخذ الحمية لوثر ، ويشتد فى دعوته ، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان ، حتى انه ليحرق فى وسط وتبرج — والجموع حاشدة — حرمان البابا وقرار زيفه ، ولم يبق الا أن تنفذ السلطة المدنية قرار الحرمان ، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية ، اثرا لقرار الحرمان الدينى ، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته ، ولكنه طالب البابا بأن يقنعه بخطئه فيما ارتأى . فلم يجب الى ما طلب ، فانفض المجمع من غير نتيجة فى هذا ، ولكن الامبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية الا ان امير سكسونية حماه .

ومن هذا الوقت اخذت تخضع دعوة لوثر لحكم الاحداث السياسية ، فتجد سلما من الدولة ، اذا كان الامبراطور مشغولا بحرب ، ولا يريد

الثورة فتنة ، وتجد حزبا أذا خلا الامبراطور لهم ، وفى كلتا الحالتين تزداد الدعوة حدة وتزداد اتباعها عددا ، ويشتد ساعدهم بموالاة أمراء أعزاء فى التفـرة .

وفى سنة ١٥٢٩ حاول الامبراطور أن ينفذ قرار الحرمان الصادر سنة ١٥٢١ ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك ، ومن ذلك الحين سموا البروتستنت أى المحتجين ، ثم جرت الامور سلما وحربا متداولين ، حتى اذا مات لوثر ، وكان الامبراطور تخلص من كل الحروب التى تشغله أنزل بالبروتستنت اقسى العذاب واشده بلاء ، ثم يعقب ذلك صـــلح بين الفريقين .

لوثر لم يرد هدم الكنيسة :

١٢١ — لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون الى هدم الكنيسة ، ولا الى محاربة سلطانها ، بوصف كونها مرشدة وواعظة ومبينة للناس شئون دينهم ، ولكنه كان يريد أصلاح حال الكنيسة ورجالها ، وحملهم على الجـــادة وإعطاءهم من الحق ما أعطته الكتب المقدسة ، ووصــايا رسلهم ، والمأثور عنهم ، وهو لم ينظر الى البابا على انه خليفة المسيح لا يخطىء ، ولا يأتى الباطل الى قوله ، بل نظر اليه على انه كبير المرشدين الواعظـــين .

ولما اراد لهم الصــلاح — وكان يائسا من أن يقوموا هم بذلك — دعا الامراء الى ان يتدخلوا ، وقرر ان لهم عليهم سلطانا ، وأن لهم الحق فى عزل رجال الدين اذا لم يقم بما يأمره به الدين ، ووجد أن جزءا من فساد رجال الدين يرجع الى عدم الزواج .

ورأى أن المنع منه لم يكن فى المسيحية فى عصورها الأولى ، فترز حقهم فى الزواج ، وتزوج هو فعلا مع انه من رجال الدين . وكان زواجه من راهبة .

ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الانجيل ، وذلك من اسباب غلوها ونقدها الرقيب ، فجعل لكل مسيحى منتف الحق فى فهمه ، واشتغل بترجمته الى الالمانية ليقراه كل المثقف .

وانكر ان المسيح يحل فى بدن من يأكل العشاء الربانى . فقد انكر

استحالة الخبز الى عظام المسيح المكسورة . وانكر استحالة الخمر الى دم المسيح ، وحلولهما فى جسم الآكل . واكتفى بكون العشاء الربانى تذكيرا لما قام به المسيح من فداء للخليقة فى زعمهم . وأن يعتقد المسيحى أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء .

هذا كله مع انكاره حق الكنيسة فى الغفران ، ذلك الحق الذى كان عود الثقاب الذى أشعل ثورة لوثر ، وكانت منها تلك النيران التى لم تستطع الكنيسة لها اطفاء .

زونجلى وأعماله :

١٢٢ — وفى الوقت الذى كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من ذوى السلطان ، كان فى سويسرة صوت قوى آخر ينادى بما يقارب ما نادى به لوثر ، ذلك هو زونجلى (١٤٨٤ — ١٥٣١) فقد آلمته حال الكنيسة ودعا الى مثل ما دعا اليه لوثر فى مسائل الدين . وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران كما ابتدأ لوثر ، وقد مات اثناء صراع وقع بين أنصاره المعتنقين لمبادئه وأنصار الكاثوليك .

وآراؤه فى الجملة تتقارب من آراء لوثر ، ولقد كان يرى أن العشاء الربانى مناولة تذكارية لموت المسيح وفدائه لخطيئة الخليقة فى زعمهم ، وأن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط . ويفسر ماجاء خاصا بالعشاء الربانى فى انجيل متى بمعناه المجازى . وهذا نص ما جاء فى ذلك الانجيل فى اصحاحه السادس والعشرين : وفيما ياكلون أخذ يسوع الخبز وبارك، وكسر ، واعطى للتلاميذ ، وقال : « خذوا ، كلوا هذا هو جسدى » وأخذ الكأس وشكر ، واعطاهم قائلا : « اشربوا منها كلكم ، لان هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » .

ودعوة زونجلى هذه، وان كانت تتلاقى فىمبادئها فى الجملة معمبادىء لوثر كانت منفصلة عنها ، فلم تتوحد الدعوتان ، بل كانت كلتاهما تعمل فى محيط اقليمها ، بيد ان حركة لوثر كانت أوسع دائرة واسرع انتشارا ، لسعة الاقليم الذى نشأت فيه ، ولرعاية بعض الامراء لها ، بل لاعتناقهم مبادئها ، ولأن الأحوال السياسية فى المانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيوع والانتشار .

كلفن واثره فى الاصـــــلاح :

١٢٣ — فى الوقت الذى كان فيه هذان الرجلان يعملان ويجاهدان، كل بطريقته ، فلوثر بطريقته السلمية التى خالطها العنف، وزنجلى بطريقة الصراع والمنازلة ، حتى مات فيه .

فى هذا الوقت كان رجل آخر ظهر فى فرنسا وهو كلفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) قد ولد بفرنسا ، ونشأ بها ، وتثقف ثقافة قانونية ، ولكنه مال بعد تخرجه فى القانون الى الدراسات الدينية ، وقد كانت حـركة لوثـر قد ذاعت وشاعت فى ربوع اوربا ، وما ان أعلن كلفن آراءه حتى اضطر الى الفرار بعقيدته الى جنيف فى سويسرا ، وهناك ألف وكتب، واخذ يعمل على نشر مبادىء المذهب البروتستنتى ، وينظمها بعد موت لوثر، فتنظيمها على الشكل الاخير يرجع الى كلفن اكثر مما يرجع الى اى رجل آخر ، وإن كان باذر البذرة سواه ، بل ان بذور ذلك المذهب قدكانت أقدم تاريخيا من لوثر نفسه ، وقد نوهنا الى بعض هذا الكلام فى المجامع .

ويرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها ، وعلى الحاكم المدنى مساعدتها ومعاونتها وحمـــايتها ، وذلك ليكون السـلطان الدينى غير خاضع لحكم الحكام ، وهو يرى أن المســيح لا يحضر لا بشـخصه ولا بروحه فى العشاء الربانى ، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزا للايمان . ويقول كما يقرر صاحب كتاب الاصول والفروع فى العشـــاء الربانى : « يشير العشاء الربانى أيضا الى مجىء المسيح ، كما يشير الى موته ، فيكون تذكارا للماضى والمستقبل ، فالعبرة فى العشاء الربانى للذكرى ، لا حضور المسيح ماديا اوروحيا » .

انشـــاء كنائس للمصــــلحين :

١٢٤ — كانت جهود هؤلاء القادة وأتباعهم ، وعيوب الكنيسة ، وسوء حالها وحال القوامين عليها ، وشدة ضغطهم سببا فى ذيوع الآراء التى تخالف رأى الكنيسة ، وقد ابتدأت الحركة بطلب اصـلاح الكنيسة على أن يقوم بالاصلاح رجال الكنيسة انفسهم ولكنهم انغضوا رءوسهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، ورفضوا كل دعوة للاصــلاح ، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحيانا كثيرة ، والاهمال أحيانا قليلة . فلمــا

استيأس مريدو الاصلاح من ان يقوم الكنسيون باصلاح حالهم، وان يرعوا الديانة حق رعايتها اتجهوا الى الحكام طالبين ان يتدخلوا لاصلاح الكنيسة، كما حاول لوثر ، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها ، ولكن الحكام تقاعسوا ، ومنهم من لم يحاول اصــلاح الكنيسة ، بل حاول القضاء على طلاب اصلاحها ، وانزل بهم اضطهادات وبلايا وشــدائد ومذابح ، كما حدث لبروتستنت فرنسا ، وكان ذلك اما تعصبا للكنيسة ، واما ماجملة ، واما كراهة للمصلحين ، لأن منهم من كانت لهم آراء اصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم فى اصلاح الكنيسة ، وقد كان الحكم استبداديا مطلقا ، بلا نظام يقيد الحاكم ، ويلزم المحكوم .

فلما يئس طــلاب الاصلاح من الحكام ويئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا الى ان يجعلوا لآرائهم جماعة ، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآراؤها غير خاضعة للكنيسة . ورافضة كل ما لها من سلطان ، وانشأوا لهم كنائس ليست معترفة لروما باى سلطان ، وسلطة رجال الدين فيها محدودة ، ولرجال الدين من الحقوق ماقرروا من مبادىء، وسميت كنائسهم كنائس انجيلية (١) اى انها لاتخضع الا لحكم الكتاب المقدس، ويقيد باحكامه رجل الدين امام رجل الشعب ، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب ، وليس لرئيس الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدسا ، مساويا لاحكام الكتاب المقدس فى الرتبة والاعتبــار .

وقد انتشر المذهب الجديد فى المانيا والدانمرك والنرويج وهولنــدا وانجلترا وامريكا الشمالية وسويسرا ، وان لم تصر كلها على المذهب .

اهم مبــادىء الاصــــلاح :

١٢٥ — والآن نلخص المبادىء التى اتى بها ذلك المذهب الجديد ، نكتفى بذكر أصولها التى يرجع اليها غــيرها من الفروع ، واعظم تلك الاصــــول شــــأنا :

---

(١) وتسمى الكنائس الاخرى التى تجعــل لرئيس الكنيسة سلطانا يعتبر فيــه خليفة المسيح الكنسى التقليدية وهى كنيســة الكاثوليك ، والكنيسة الارثوذكسية اليونانية والكنيسة الارثوذكسية المرقسية ، وهى كنيسة القبط وغير ذلك .

(ا) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحى لنصوص الكتاب المقدس وحدها (١) وجعله الحكم وحده الذى لا ترد حكومته ، ولا ترفض اوامره ، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على ما نص عليه فى ذلك الكتاب فما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد به ، وما خالفه رفض، ولو كان قد صدر عن اكبر رجال الكنيسة شأنا فى الماضى أو الحاضر .

ولذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان فى ذلك : « انهم جميعا متفقون فى المعتقدات على مجرد ما فى الكتاب المقدس فقط ، فلا يخضعون لشىء من التقاليد التى لايوجد لها فيه رسم اصلا ، ولا الى أقوال أحد من الآباء أو المجامع الا اذا كان موافقا لنصوصه لفظا ومعنى ، أما تفسير الآيات الغامضة والتى لم يوضحها الوحى الالهى ، فلا يمارون أحدا فيها الا اذا كان التفسير ينافى ما كان معناه واضحا فى غيرها من تعاليم الكتاب» .

فهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب وقد كان تحكيم الكتاب وحده سببا فى جعل رجل الدين غير مطاوع الا فيما ورد فى الكتاب .

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الشرقية وغيرهما من الكنائس التقليدية لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحى ، بل يعتبرون معه الرسائل غير المسطورة فى ذلك الكتاب وتعاليم المسيح التى نقلت الى البابوات خلفا عن سلف مصدرا ايضا . ويسمون ذلك المصادر التقليدية .

ويقول فى ذلك صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الذى ترجمه يوسف البستانى فى ذكر قرارات المجمع الترنديتى: «ان المجمع الترنديتى المقدس الملتئم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسى الرسولى لاعتباره أن حقائق الايمان ورسوم الآب متضمنة فى الصحف المكتوبة وفى التقليدات المكتوبة ، وهى المنقولة عن فم يسوع بواسطة الرسل ، أو المنزلة على الرسل انفسهم بالروح القدس ، وقد اتصلت الينا تسليما اقتفاء بأثر الآباء الارثوذكسيين قد قبل جميع أسفار العهدين القديم والجديد ، ثم التقليدات ايضا المتعلقة بالايمان والآداب بما انها بارزة من فم يسوع المسيح ، أو ملقنة من الروح القدس ، ومحفوظة فى الكنيسة بالخلافة المتواصلة ويعتنقها بنفس الاكرام والاحترام الذى تعتنق به الكتب المقدسة » .

وقد كان جعل سلطان الكتاب شاملا لرجل الدين ، ولرجل الشعب سببا فى أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصورا على رجال الدين ، فأزيل ذلك الحجاب الذى أقيم بين المسيحى وبين كتابه . اذ اقامه رجال الدين ليحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم . وبذلك يكون الدين ما تنطق به أفواههم وليس لأحد أن يعقب على قولهم ؛ لأن باب التفسير قد أقفل دون غيرهم فلا يستطيعون ازالة رتاجه ، ولا فتح اغلاقه، فالغى المذهب الجديد ذلك الحجاب وفتح باب التفسير لكل مثقف ذى فهم ، واذا كان ثمة نص لم يفهم توقفوا عن فهمه ، فان أبدى رجل الدين رأيا فى فهمه قبلوه الا اذا خالف نصا ظاهرا لا مجال للتأويل فيه .

عـــدم الرياســـة فى الدين :

(ب) ليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة ، بل لكل كنيسة رياسة خاصة بها، والرياسة الكنسية التى تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لا وجــــود لها عندهم ، بل ان الكنيسة فى كل مكان ليس لها الا سلطان الوعظ والارشاد، والقيام على تأدية الفروض والتكاليف الدينية وبيان الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه ، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك .

ليس لرجـــل الدين الغفـــران :

(جـ) واذا كانت الكنيسة لها سلطان الا البيان لمن لا يســـتطيع بيانا والارشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه ، فليس لها سلطان فى محو الذنب أو ستره . أو تلقى الاعتراف بالذنوب ومســحها سواء أكانت تلك هى المسحة الاخيرة عند الاحتضار . أم كانت قبل ذلك . فكل ذلك ليس لها فيه سلطان . لانه من عمل الديان. وقد علمت ان صكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب الذى اندلعت منه الثورة على الكنيسة ، وتبعها تقصى عيوبها ، وتتبع نقائصـــها . وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة ، وبينا أنها غالت فيما زعمته لنفســها فى ذلك من حق ، والاساس فى رفض الكنيسة فى هذا : كل نفس لهـــا ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وكما ان ذلك الاساس ادى الى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى الى امر آخر. وهو منع الصلاة لاجل الموتى، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لانه ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سيحاسب عليه ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، وأدى ايضا الى ان طلب شفاعة القديسين لا قيمة له ، لانه لا يغير عمل الشخص من صالح الى طالح .

وفى الجملة انهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع الى عمل الشخص وعفو الاله، وتوبة العاصى وندمه على ما فات ولومه نفسه على ما كان. وكل قول يجعل غفران الذنب اساسه غير ذلك رفضوه ، ولم يلتفتوا اليه.

عدم الصـــــلاة بلغة غير مفهومة :

(د) ولقد كان ذلك المبدأ الذى يجعل الانسان يدين بعمله وحده ، ومبدأ ان لا سلطان للكنيسة على القلب والعبادة، كان هذان المبدآن سببا فى ان رفض اولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد، لان الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب اليه ، والقيام بالخضـــوع الكامل له ، والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء الى المعبود ، فوجب أن تكون بألفاظ يفهمها العابد ليردد معانيها ويقصد مراميها ، وقد كانت صلاة التقديس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك . لأن اساس ذلك ان عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه .

رأيهم فى العشـــــاء الربانى :

(هـ) انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الربانى الى أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التى ارتكبها آدم ، وتحملت الخليقة من بعد وزرها ، وتذكار لمجيئه ليدين الناس، فهو تذكار للماضى والمستقبل كما جاء فى بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحول الخبز الى جسد المسيح . والخمر الى دمه .

والكنيسة قد أصرت على ذلك اصرارا . وهذا قرارها فى المجمـــع الترنديتى فى ذلك الشأن، فهى تقول بلسان أعضائه. . «قد اعتقدت كنيسة الله دائما بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقى ودمه الحقيقى مع نفسه ولاهوته تحت اعراض الخبز والخمر، وان كلا من الشكلين يحتوى ما يحتوى كلاهما ، لان يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز ، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل ، كما أنه هو كله ايضا تحت شكل الخمر وجميع أجزائه» .

وقد اعتقدت الكنيسة ايضا اعتقادا ثابتا بانه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز الى جوهر جسد ربنا . وكامل جوهر الخمر الى جوهر دمه تعالى ، وهذا التعبير قد دعى بكل صواب . فيلتزم اذن جميع المؤمنين بان يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للاله الحقيقى . لاننا نعتقد بانه يوجد فيه الله نفسه الذى عبدته الملائكة على امره تعالى . حينما اتى على العالم ، وهو نفسه الذى سجدت له المجوس خارين على اقدامه ، وله نفسه سجدت الرسل فى الجليل » .

هذه عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى ، لم يستسغها لوثر واشياعه، وخلفاؤه من بعده ، وانتهى امرهم الى ان رفضوا ذلك التحول الذى تفرضه الكنيسة ، وتلتزم به ، وان كان بعيدا عن المعروف المالوف ، وبعد ان رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الربانى تذكارا بالفداء وتذكارا للمجىء وفى ذلك عظة واستبصار .

انكار الرهبنة :

(و) انكر اولئك المصلحون لزوم الرهبة التى يأخذ رجال الدين انفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة . يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية ان تخلى عنها ، ولقد رأوا ما ادى اليه ذلك الحظر من كبت للجسد الانسانى، وتعذيب له من غير ضرورة ، ولا نص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك، بل لقد رأوا ما ادى اليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الانسان فى رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من شفتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وطفق يغترف من ورد معتكر بالآثام ، مرنق بالمفاسد ، وترك المنهل العذب الذى حللته الشرائع ، ويتفق مع ناموس الاجتماع الانسانى .

عدم اتخاذ الصور والتماثيل :

(ز) منع البروتستنت اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها ، معتقدين أن ذلك قد نهى عنه فى التوراة ، فقد جاء فى سفر التثنية : « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من اسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لانى انا الرب الهك غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، واصنع احسانا الى الوف من محبى ، وحافظى وصاياى » .

ولا شك ان ما نهت عنه التوراة يجب الأخذ به ما دام الجميع يؤمنون بالتوراة ، وكتب العهد الجديد ، وما دام لم يرد عن المسيح او عن الرسل ما يبطل ما جاء فى التوراة .

ولقد اثبت الأستاذ امين الخولى بالسند التاريخى أن ذلك التحريم قد قبسه النصارى المصلحون من نور الاسلام .

المسيحيون لم يسيروا فى منطقهم الى اقصى مداه :

١٢٦ — هذه اعظم المسائل التى خالف بها المصلحون فى المسيحية ما عليه الكنيسة ، وهى لا شك خلع لسلطان الكنيسة على النفوس وقضاء على سلطان المجامع ، واذا كان للحوادث منطق تسير عليه ، فهل لنا ان نستنبط منطق تلك الحوادث ، وما كان عساه يكشف عنه لو سار فى طريقه الى اقصى مداه ؟ لقد علمت فى سياقنا التاريخى الذى بيناه عن ادوار المسيحية ان ذلك السياق يعلن فى عباراته وفى فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد ، حتى جاءت المجامع ، فقررت الوهية غير الله ، وطردت من حظيرة المسيحية المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى الوهية المسيح ، وناصرتهم الشعوب المسيحية فى الابان .

فاذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الدينى من الكتب الصحيحة ، وقرروا ان يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة معا ، فان المنطق الذى يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا اقوال المجامع القديمة ، ومنها الوهية المسيح ، والوهية الروح القدس .

وقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه المجامع ، وينظروا الى سندها وقوتها فان لم يروا السند قويا رفضوا ذلك القرار ، ولكنهم لم يسيروا فى منطقهم الى اقصى مداه ، فرفضوا آراء الكنيسة فى امور ، اعظمها شأنا ما بيناه ، ولم يتجهوا الى لب العقيدة ، وهو لم يتجاوز انه قرار مجمع فيدرسوه من جديد على ضوء ما فتحوه لأنفسهم من نور مبصر ، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق فى تفسيره ، واستخراج الأوامر والنواهى منه من غير أن يتخذوا الأحبار والقسيسين وسائط فى فهمه ، ويحكموا بذلك فى ضمائرهم واعتقاداتهم .

عقول مسيحية تنكر الوهية المسيح :

١٢٧ — ولكنا وقد يئسنا من أن يسير البروتستنت فى طريقهم الى اقصى مداه وجدنا العقول المسيحية قد تنبهت ، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ونور الاسلام قد انبلج ، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا فى قوة بأن المسيح لم يكن الا رسولا ، وانه لم يكن اكثر من بشر ، قد قبسوا ذلك من الاناجيل نفسها ، فهذا رينان قد جهر بذلك فى قوة وجراة ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الاصرار على رأيه والذود عنه ، وهذا تولستوى ينكر على المسيحيين الوهية المسيح ، وتنتهى نتائج بحثه الى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح ، بل طمسها ، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضا واخفاء .

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف ، فهو يقول : « أنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى ، كما كان يفهمه هو ان نبحث فى تلك التفاسير والشروح الطويلة التى شوهت وجه التعليم المسيحى ، حتى اخفته عن الابصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا الى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل الى المظاهر الخارجية الدينية ، كالختان وغيره فادخل امياله هذه على الدين المسيحى فافسده ، ومن عهده ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صفته الالهية الكمالية ، بل اصبح احدى حلقات سلسلة الوحى التى اولها منذ ابتداء العالم ، وآخرها فى عصرنا الحالى ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وان اولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع الها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار : موسى ، والزبور ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم ، وتآليف آباء الكنيسة ، مع ان تلك الأقوال لا تدل اقل دلالة على أن المسيح هو الله .

هو اذن ينكر الوهية المسيح ، وينكر الوهية روح القدس ، ويعتقد بأن الله واحد أحد فرد صمد ، وينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بالهام ،

ويعلن في جراة انها حرفت وعراها التغيير والتبديل ، فيقول في صراحة المستمسك بالعروة الوثقى : « ان المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الالهى ، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما اعتقد بانه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية ، وهم يعتقدون بان محمدا خاتم الأنبياء ، وانه قد أوضح في قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية ، كما تلاها دون زيادة ولا نقص ، وان كل مسلم أمامة القرآن يقرؤه ، ويتمسك به ويسير بموجب احكامه ، ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واتسموا بالتقوى والصلاح ، ويسمى المسلمون ديانتهم بالمحمدية ، لان محمدا وضعها بخلاف الكنيسة المسيحية التى تسير الآن بموجب تاليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من روح القدس ، فكان الأحرى بالمسيحيين ان يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية » .

خاتمـــــة

١٢٨ — قد ظهر اذن مسيحيون يدعون الى التوحيد ، وانك لترى بريق الاسلام يلمع بين السطور التى دونوها والأقوال التى نشروها ، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتهم كما فعلت المجامع من قبـل ، ولقد كان الأمر لا يسترعى النظر لو كان مقصورا على العلماء . بل انك لترى المسيحيين الذين تجادلهم او تخالطهم بالمودة — ان استثنيت رجال الدين منهم — يصرحون فى بهرة المجالس وفى جهـر من غير اسرار بانهم لا يستطيعون ان يتصوروا المسيح الا رجلا عظيما رســولا من عند الله ، وليس هو الله ، ولا ابن الله وليس ذا صلة بالألوهية الا صـلة الرسـول بمن أرسـله .

فهل لنا أن نعتقد ان شيوع هذا على السنة أولئك المثقفين يؤدى الى اصلاح كامل للعقيدة ، يكون شاملا للأصل ، ولا يكون مقتصرا على الفرع كما فعل الاصلاح السابق واقتصر عليه ؟ .

ان الأجدر لهذا ان يتجه أولئك المثقفون الى دراسة دينهم ، وأن يتجه الذين يحاولون ارشادهم — الى بيان الأدوار التاريخية التى مرت بدينهم ، والى ما احدثته المجامع من احداث ، وكل حـدث فى الدين هو بدعة فيه ، فان دراسة تلك الأدوار تريهم الحقائق عارية ، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية او غير كنسية ، وقد حاولنا فى اثناء بحثنا ان نبين ان الوهية المسيح والوهية الروح القـدس فكرتان غرضتا على العقـل المسيحى ، ولم تكونا فى المسيحية الأولى ، وذكرنا السند التاريخى فى ذلك وانه لمسيحى خالص ، وانه بهـذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحى الى التوحيد — الى العناية بدراسة تاريخ المسيحية واعلانه لأهلها ، ونريد ان ندعو الذين يريدون نشر الاسـلام بين ربوع المسيحيين الى اعلان ذلك التاريخ ، فانهم ان دخلوا فى التوحيد ، دخلوا فى الاسلام بأيسر مجهـود ، لان الخطـوة التالية لا تحتاج الى اكثر من الاعـلام ، والحمد لله رب العـالمين .

(تم بحمـــد الله وتوفيقه)

ما يشتمل عليه الكتاب

١٢٠ — المجـــامع المسيحية

تاريخهـــا — واسبابها — وقـــراراتها

١٢٠ — كيف وجدت فكرة جمع المجامع ١٢١ — المجامع العامـــة والمجامع الخاصة .

١٢٢ — مجمع نيقية : ٣٢٥

١٢٢ — سبب انعقاده العام ، الاختلاف بينهم فى شخص المســيح ١٢٣ — الاختلاف الخاص الذى انعقد المجمع بعده — كلام اريوس — انتشار رأى اريوس وطرق محاربته ١٢٤ — تدخل قسطنطين وجمـــع مجمع نيقيا ١٢٥ — موقف قسطنطين من المتناظرين — انحيازه لرأى مؤلهى المسيح مع انهم ليسوا الكثرة — العقيدة التى فرضها المجمــــع ١٢٦ — قراراته تؤيد رهبة الســـلطان — النقد الموجه الى المجمـــع ١٢٧ — الرغبة والرهبة من السلطان لهما دخل فى القرارات — المجمع فرض لنفسه سلطانا كهنوتيا على النـــــاس — امره بتحريق ما يخالفه ١٢٨ — قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر ١٢٩ — تلقى المسيحيين لقرارات المجمع — مجمع صور يرفض بالاجماع قرار مجمــع نيقية ١٣٠ — ما يستنبط من هذا — نشاط الموحدين .

١٣٢ — المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١

١٣٢ — سبب انعقاده — عـــدد المجمـــع والطعن فى كـــونه عاما ١٣٣ — بطريرك الاسكندرية هو الذى يقرر الوهيـــة روح القدس — قرار المجمع يوافق رأى بطريرك الاسكندرية — نظرة فاحصة .

١٣٥ — مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

١٣٥ — سبب انعقـــاده — النسطوريون ينكرون الوهية المســيح ١٣٦ — قرار المجمع والاحتجاج عليه — انتشار النسطورية فى الشرق .

١٣٧ — مجمـــع خليكدونية سنة ٤٥١

١٣٧ — كنيسة الاسكندرية تعلن أن المسيح اله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة — طلب انسحاب بطريرك الاســكندرية ورفض الطلب ١٣٨ — الشغب فى المجمع — قـــرار المجمع أن المسيح

١٤٢ — المجامع الباقية

١٤٩ — الفرق المسيحية

١٥٦ — الفرق القديمة فى عهد التثليث

١٦١ — الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

١٦٧ — الفرقة الحديثة « البروتستانت »

أو الاصلاح الدينى

مؤلفات فضيلة الامام الشيخ
محمد ابو زهرة

- خاتم النبيين (٣ أجزاء) .
- المعجزة الكبرى — القرآن الكريم .
- تاريخ المذاهب الاسلامية — جزءان .
- العقوبة فى الفقه الاسلامى .
- الجريمة فى الفقه الاسلامى .
- الأحوال الشخصية .
- ابو حنيفة — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- مالك — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- الشافعى — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- ابن حنبل — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- الامام زيد — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- ابن تيمية — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- ابن حزم — حياته وعصره — آراؤه وفقهه .
- الامام الصادق — حياته وعصره — آراؤه وفقهه
- احكام التركات والمواريث .
- علم اصول الفقه .
- محاضرات فى الوقف .
- محاضرات فى عقد الزواج وآثاره .
- الدعوة الى الاسلام .

رقم الايداع ٨٧/٨٧٥١

مطبعة عقل

٣٠ شارع العطانة - شبرا مصر

ت ٩٤٢٠٨١

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا

الفرع الرئيسي

٦-أ شارع جواد حسني - القاهرة

ت : ٧٥٠١٦٧

فرع مدينة نصر

٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة السادسة

فرع الدقي

٢٧ شارع عبد العظيم راشد - متفرع من

شارع الدكتور شاهين - بالعجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي

ت : ٤٣٦٧٦٥ ص . ب ٢٢٧٥٤